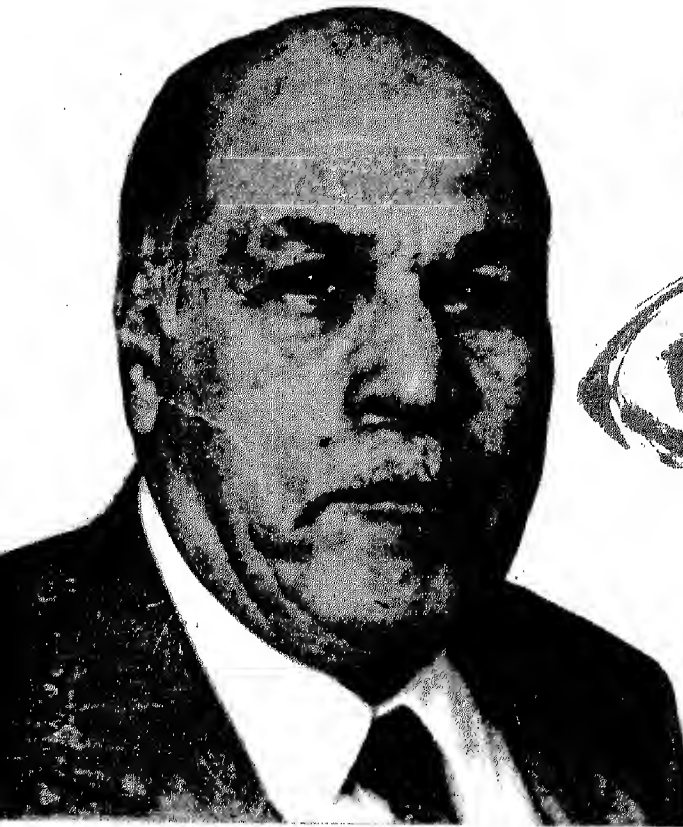


٦

كتاب
الحرية

٧٢ شهرًا مع عبد الناصر



Biblioteca Alexandrina
0138409

فتحي رضوان

كتاب الحرية

يصدر أول كل شهر عن
دار الحرية
للصحافة والطباعة والنشر
الشمارع شريف - القاهرة
تليفون : ٧٤٧٠٠٠ - برقياً : الحرية
المراسلات : ص.ب ١٣٧ محمد فريد - القاهرة

رئيس مجلس الإدارة

د. د. محمود محفوظ

نائب رئيس مجلس الإدارة

د. د. يحيى الجمل

عضو مجلس الإدارة المنتدب

محمد جبر

مستشارو التحرير

د. إبراهيم البحراوى د. د. سعد الدين إبراهيم

د. د. على الدين هلال د. د. محمود متولى

د. د. ملاك جرجس

رئيس التحرير : محمد جبريل

الطبعة الثانية
ديسمبر ١٩٨٦ م

حقوق الطبع محفوظة

٧٢ شهرًا مع عبد الناصر

فتحي رضوان

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم : فتحى رضوان

نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب - والله الحمد - فى أيام قليلة ، وهو أمر قليل الحدوث ، ولست أخطئ دلالة هذا التوفيق ولا معانيه ، فهو تحية خالصة للرجل الذى إتخذت اسمه عنواناً للكتاب ، ونعنى به جمال عبد الناصر . فالشعب العربى ، بما فيه الشعب المصرى ، لا يزال شديد الرغبة ، فى تقصى كل ما يتعلق به ، ويتصل بعهده ، وما يعد من أسرار حكمه ، فبعد الناصر لم يكن رئيس دولة ، ولا زعيم حركة ، ولا بطل فترة من حياة مصر أو حياة المنطقة الغالية والخطيرة ، التى نعيش فيها ، وننتسب إليها .

بلى كان عبد الناصر عهداً بشر بمبادئ ، ودعا إلى حياة جديدة ، وخاض حروباً ترامت أبعادها ، وتساعدت آثارها ووصلت إلى أعماق النفس العربية ، فى مرحلة من حياة الشعب ، والانسانية كلها ، كانت الدنيا كلها ، تنهياً فيها للتغيير والتطور .

فالوطن العربى عاش نحو ثلاثة أرباع قرن - وفى بعض أجزائه فوق القرن وربع القرن - راسفاً فى عبودية ثقيلة وناطشة ، لدول الغرب ، التى بذلت أقصى غاية الجهد ، لتفقد العرب خصائصهم ، وتنسخ صفاتهم ، وتحولهم إلى شعوب بلا عقيدة ، ولا لون ، ولا هدف يعيشون على رُضهم كأنهم قطعان ماشية كل همهم أن يجدوا علفاً يقتاتون به ، وحظيرة يأوون إليها ، وراعياً بعضاً ، يقودهم ويش

عليهم . ونجح الغرب على الأقل في الظاهر في قتل الشعور الوطني في نفوس العرب ، وتعويدهم أن يذعنوا للحاكم الأجنبي ، يأمر فيأثمرون ، وينهى فينتهون ، ويتسابق زعماءهم وقادتهم على ارضاء الحاكم الأجنبي ، ومحاكاته في كل ما يفعل ، في اللبس والزى ، والمأكّل والمشرب ، وفي النظر إلى الحياة ومعرفة ما هو الحق وما هو الباطل وما يشرف وما يندش العرض ، وكانت المنطقة العربية بأسرها محكومة بدولة أجنبية ، وكانت حركات التحرر قصيرة العمر ضعيفة الأثر ، وكانت تلبسها حالات من تفرق الصفوف ، والاختلاف على الصغائر .

وكان أمل الاستعمار الغربي ، أن تدوم هذه الحال ، وأن تستمر الحياة في الوطن العربي ، بمفاوضات تبدأ وتقطع ثم تستأنف وتتوقف ، وتمضى في طريقها خطوتين ، ثم ترجع إلى الوراء خطوات ، وأحزاب تختلف ، وتتفق ، وتتحد وتفترق ، وتبادل الاتهامات ، وتلى الحكم في تتابع ، فلا يصل إليه ، الا من استعد أن يذعن للغاصب الدخيل ، ويطيعه ، ثم لا يلبث أن يسقط ، ليحل محله آخرون يفضلون غفل الدين سبقوهم وهكذا العمل ، والأجنبي يزداد غنى ، ونفوذاً ، وسلطة ، وهيمنة ، والمصري أو العربي يزداد ضعفاً وفقراً ، وتسابقاً إلى منابر الكلام ، وتنافساً على بذل الوعود .

كان ذلك كله عاراً لا يطاق ، ومذلة لا تحتمل ولكن لم يكن هناك أمل في الوصول إلى نهاية .

وفجأة وبلا تمهيد دوت فرقة هائلة ، كانت صدى لسقوط العهد القديم بكل آثاره ورموزه ، وشعاراته ، وأساليبه ، وشاراته ، وتعالى غبار ركام البناء القديم المنهار ، حتى أصبح أشبه شيء بسحاب كثيف متراكم ، ولم يستطع أحد أن يرى شيئاً ، ولم يبد للجديد وجه تتضح معالمه ، أو تبدو ملامحه ، حتى أنتهت مرحلة التحضير والإبتداء ، التي أخذت شكل صراع خيل إلى البعض أنه سيلتهم الوضع الجديد ، وأن البداية ليست الا نهاية .

ولكن السحب انقشعت ، والأوضاع استقرت ، وظهر بناء جديد تماماً لم يكن فيه من القديم شيء ذو قيمة .

(ب)

وكان أول ما أحتفى الملك ، وكان عنوان النظام كنه ، وسيده وملخص أفكاره ومعتقداته ، والمدخل إلى مناهجه وأساليبه ، فقد كان الملك ، يملك ويحكم ، وكان يأمر وينهى ، وكان يرم وينقض ، وكان كل شئ وأى شخص عداه ظلاً ، يبدو ويختفى ، وكانت القوانين والدساتير ، ومجالس التشريع ، ومجالس الحكم كلها ، توجد وتبقى طالما سكنت عنها الملك ورضى بها ، فإذا غضب ، حل (البرلمان) وسقطت الوزارة ، وقيدت اللسن ، وعقلت القلوب ، وانتهت الحركة الوطنية ، الى صراخ خافت فى الطريق ساعة أو بعض ساعة فى يوم أو بعض يوم ، ثم عاد كل شئ إلى سابق عاداته ، التلاميذ فى المدارس ، والطلاب فى الجامعات ، والموظفون فى الدواوين ، فكل إنسان فى وظيفته وديوانه ، يؤدى ما يسمى بالواجب ، ولا ييم أن تكون الحكومة لأغلبية شرعية ، أو لاقلية انقلابية ، يظهر من ورائها الحاكم الأجنبى بمعنه (وغلونه) اما يختفى ، ليظهر الحاكم الوطنى ، كأنه صاحب الكلمة ، وسيد الموقف ، حتى يضيق الأجنبى بصلافته وتوهمه ، فيزيح بيده الحكومة أو الحاكم ، ويعود عارياً لا يتستر .

بدأ إذن عهد جديد ، اختفت معه الملكية القديمة الراسخة ، التى لا يدانها فى الطول والقدم ، ملكية فى الشرق والغرب ، ثم لحق بهم نظام تقديس الأرض المنزعة ، وبأساليب الأجداد فى الرى والصرف ، والزرع والقلع ، كأن فلاح الفراعنة ، الذى نرى صورته على المعابد ، هو فلاح سنة ١٩٥٢ بثوبه القصير ، وفأسه الاعجف ، ومحرثه المتآكل والمتهالك ، ينتج الخيرات ، ويخرج من الأرض الثمرات ، ويقف بين الزارعين أستاذاً وفناناً ، ومع ذلك لا يحصل على قوت يومه وطعام أولاده ، الا بشق النفس .

وذهب الأجنبى السيد الذى كان يملك الذهب النضار والحقل والعقار ، والبيت والفيط ، والمصانع والمزارع ، ويستأثر بالربح ، عن طريق شركات يمولها ، ولا يجنى الفلاح من عملها الا درهمات قليلات .

وذهب مع كل هؤلاء نظام لم يرق إلى مستوى الاقطاع الذى عرفت أوروبا فى

ظله ، حكومات مستقلة ، تسليح الفلاح وتجهيز الجيوش ، وترعى فنون الموسيقى والتصوير ، وتنشئ المتاحف وتحمل الطرق والميادين بالحدائق والبساتين ، والتماثيل الرائعة وأقواس النصر البديعة .

وأمتلات الأمة المصرية والأمة العربية ، بروح قتال رهيبة ورغبة عنيفة في مقاتلة الأجنبي والقضاء عليه ، فمصرت كل أجنبي ، وسادت اللغة العربية بعد انحسار وتضييق ، وتسابقت الحكومة مع الشعب ثم تعاونوا في انشاء المصانع وتأسيس الشركات حتى وقعت الواقعة الكبرى في ٢٦ من يوليو ١٩٥٦ حينما أمت أكبر مظاهر العدوان على مصر : أرضها وفلاحها وماءها العذب ، وماء بحرها ، ونعنى بها شركة قناة السويس التى مزجت مياهها بدم الفلاح العامل المصرى ، التى بنيت قوتها على اكتافه وهو الذى عاش حياته منذ أبعد الحقب ، وأوغلها في القدم ، يؤلف بين الشعوب ، ويقرب بين الأمم ، وينقل العلم من أرضه وبلده ، إلى بلاد مختلفة ، فتعلمد عليه في تعلم الحروف الأبجدية ، ومبادئ الرى والرياضة ، والفلك ، وبناء السفن ، وشق الترع وإقامة الهياكل ، ومزج الأصباغ واستنبات الزروع الجديدة ، وتهية الأرض ، وإخصابها .

نعم ، شقت مصر أرض الصحراء ، بين البحرين العظيمين اللذين عاشا قرونا كرسى الملك والسلطان ، فتدفقت المياه بينهما ، وقربت المسافة بين العالمين - الشرق والغرب - وزادت التجارة كما لم يصرف من التجار ورجال المال ، الزيادة في التبادل في السلع والأقوات ، وتضخمت كروش وخزائن زعماء الاستعمار في أوروبا ، وظنوا ان هذه القناة السحرية ، قناتهم ، وأن المال الذى تدفق فيها ، وتدفع منها ، مالم وأن مصر ، ليس لها في القناة ، ولا في الثراء الذى تنشئه ، الا أن تشاهد السفن رائحة غادية ، وان تبيع إلى ركاب هذه السفن ، لعباً للأطفال ، وطعاماً للمسافرين ، وفاكهة للسائحين ، وكان ذلك أشبه شيء بجملد ظهور المصريين ، كل يوم بسياط من نار ، ولكن المصريين الفوا هذا العذاب ، حتى لم يعد يؤلمهم ظهوراً ، ولا يشق لهم جلدأ .

وقبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فاوضت الحكومة المصرية الشركة مفاوضات

مضنية خرجت منها مصر بدخل قدره مليون جنيه واحد في السنة ، وعدت الشركة الطاغية أن هذا المبلغ ، نعمة من الله وفضل ، وعلى مصر حكومة وشعباً أن تشن على حفظها السعيد ، وتقبل كفيها ظاهراً وباطناً .

وكان ذلك بعد الثورة . أمراً مستحيلاً ، فبعد الثورة خلقت مصر خلقاً جديداً ، وكان يجب أن تعبر عن عهدها الجديد وعزمها الذي أصبح من حديد فقررت أن تنازل أكبر الأقوياء في العالم ، فكان تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ ، وهو اليوم الذي بلغت فيه الثورة الذروة . وقد جاءت بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، قادة أشد الاحلاف المخطاطا وضراوة وطمعاً . ولم تخلج بريطانيا الدولة العجوز ، التي شاب رأسها في نهب الأرزاق ، واستعباد الأمم والشعوب ، ان تكون حليفها دويلة صغيرة حقيرة هي إسرائيل . جاءوا باساطيلهم ، في البحر والجو ، وجيوشهم في البر ، ليقترحموا مصر من جديد ، ويكبلوها بالأغلال ، ويطوقوها بالسلاسل . وكان فخراً لمصر أن تخوض هذه المعركة وهي تقريباً بلا سلاح .

وتحرك أعداء النظام الجديد ، الذي انتفض في ظله الفلاح المصرى المريض المغلوب إلى عملاق ، يطاول (تشرشل) و (ايدن) و (جى موليه) فإن هذا الفلاح لم يدعن لتهديد الأساطيل الثلاثة في البحر : اساطيل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل ، ولا لاساطيلهم في الجو التي غطت طائراتها وجه الشمس ، ولا لجيوشهم التي نزلت إلى البر ، وهي تعزم السير حتى القاهرة لتحتلها ، وترفع فوقها أعلام الدول الثلاث وتحتل مدن القناة : بورسعيد ، والاسماعيلية والسويس . فلم يكن كافياً تدخل أيزنهاور ، ورفضه المؤامرة البريطانية الفرنسية الاسرائيلية ، إذ لو قبلت مصر في شخص عبد الناصر وحكومته ، طلبات الغزاة الثلاثة ، لتغير وجه التاريخ الانساني ، ولاستعاد الاستعمار الغربى ، ما فقدته من سلطان ، ولتأخر لأجيال استقلال أكثر من ستين أو سبعين دولة أفريقية واسيوية في مقدمتها الجزائر ، والعراق وعدن ، وليبيا واندونيسيا ، وأخيراً مصر نفسها .

ولقد كان بعض الساسة المصريين من زعماء عهد ما قبل الثورة ، ينعون على

عبد الناصر أنه أقدم على تأميم قناة السويس ، واعتبروا عمله هذا قصر نظر ، لان الباقي من عمر قناة السويس لم يكن يزيد عن اثني عشر عاماً ، فلو صبر عبد الناصر هذه المدة القصيرة لعادت قناة السويس إلى مصر بلا حرب ، ولا تضحيات هائلة بالأرواح والأموال .

ويجب أن أذكر هنا أن المهندس « طراف على » وزير المواصلات الأسبق ، وكان مندوب الحكومة المصرية لدى شركة قناة السويس ، مر على ومعه نسخة من جريدة (هندوستان تايمز) وهي جريدة هندية ذات اطلاع واسع - نشرت في العدد الذي حصل المهندس طراف على - على نسخة منه - أن شركة قناة السويس تنوى تشييد مبان لموظفي الشركة ، وستجرى توسعات في منشآت الشركة الأخرى . ولفت نظري إلى أن هذه الاضافات التي ستكبد الشركة الملايين لا يمكن ان تنفقها الا وهي تعلم ان الشركة ومراقفها لن تعود إلى مصر في الميعاد المتفق عليه في عقد الشركة المخرى في ١٨٦٩ وهو العقد الذي أبرم مع الخديو اسماعيل وقد أعددت مذكرة بهذا المعنى لعرضها على مجلس الوزراء ، ولكن اكتفيت بعد ذلك بالتحدث في هذا الشأن مع عبد الناصر .

وأياً كان الحال فهؤلاء أقوام لا يعرفون كيف تبني أجماد الشعوب ، فحرب مصر من أجل استرداد قنواتها ، شرف سيبقى يزين اسم مصر وابناء مصر والعرب أجمعين إلى آخر الدهر ، ووقف مصر في وجه الاستعمار الغربي الباطش والتأله ، درس للشعب المصري وللشعوب المستضعفة في العالم كله أن الأمر في الصراع بين أصحاب الحق والمعتدين عليه ليس مرده إلى القوة المادية وحدها ، وأن المستمسكين بحقهم ، والمستميتين في الذود عنه يزودهم الله بقوى من عنده ، ترد كيد المعتدين إلى نحورهم .

فقد سبقت معركة القناة معركة السلاح سنة ١٩٥٥ ، حينما كسر عبد الناصر حصار السلاح وتعاقد على صفقة مع تشيكوسلوفاكيا أذهلت الغرب ، وهزته إلى الأعماق إذ لم يكن (دلاس الأمريكي وزير خارجية الولايات المتحدة) يعتقد أن عبد الناصر يجزؤ على أن يتعامل مع الاتحاد السوفيتي في السلاح .

هذه المواقف الضخمة هي التي صنعت مصر الحديثة وهي أيضاً التي تبنى الدول الكبيرة ، وهي في الواقع مفتاح شخصية عبد الناصر : شجاعة لا ترهب خطراً حتى تبدو لخصومه تهوراً واندفاعاً ، وثباتاً عند الشدة ، حتى يظن أعداؤه أنها سوء تقدير للمواقف أو بلادة وتيهو للقتال ، وحب لمنزلة الاعداء حتى يغفل لمن لا يعرفونه ، أنها مشاكسة ، وليست سياسة وخطة مدروسة .

ولقد أدهش الكتاب الذي أقدمه للقارئ العربي للمرة الثانية الجميع فقد فرح به الذين يكرهون الثورة وكل ما جاءت به ، ويعيدونها كارثة أخرت مصر أجيالاً إلى الوراء ، فقد حسبوا أن هذا الكتاب قدم صوراً لعبد الناصر وعهده وحكومته ساحرة ، وملئية بالغرائب والمتناقضات وما يدعوا إلى الهزء . ولكن أكثر الذين قرأوا الكتاب ، بنية حسنة ، وبروح الانصاف ، أدركوا أنني صورت لعبد الناصر والذين حولوه في الحكومة وخارجها ، صورة صادقة ، لا تريد أن تحولهم إلى آلهة ، ولا إلى أنبياء معصومين كما لا تذهب مذهب الذين يضمرون ثورة سنة ٥٢ الحقد والكراهة ، لأنها أضعفت مصالحهم ، أو وضعت حداً لنفوذهم وسلطانهم ، والذين دأبوا على تصوير عبد الناصر وأعدائه ، باعتبارهم شياطين وزبانية جحيم ، وأنهم تجردوا من صفات الانسان البسيط ، الذي يعرف كيف يرضى ، وكيف يغضب ، وكيف يحب ، وكيف يكره ، وحرصت أكثر ما حرصت أن أصور ما كان يجري في الجلسات التي كنا نتداول فيها في شئون بلادنا الكبيرة والعادية ، ليعرف من لا يعرف أنها كانت جلسات خالية من روح القهر يتكلم فيها الوزراء همساً ، ويصرخ فيها الضباط بأعلى الصوت ، وإن الحرية داخل حكومة عبد الناصر كانت مخنوقة وإن الآراء كانت مقيدة ، إذ أن الواقع كان هو النقيض تماماً ، إذ كانت هذه الجلسات ، تلقائية ، يتكلم فيها الحاضرون على البديهي ، ولا يحاول أحدهم أن يتلطف للحاكم ، أو أن يتحدى رغباته ، ولا أن يتحاشى غضبه ، واشهد أني لم اسمع طوال السنوات التي تعاونت فيها مع عبد الناصر أنه زجر أحداً لأنه قال كلاماً لا يرضى عنه أو نقد رأياً للقيادة أو لمن يعمل معها أو ينفذ إرادتها .

وقد لا يصدق الناس أن عبد الناصر كان يتمتع بما يسميه الانجليز Sense of

humer أى الاحساس بالدعابة ، بل كان لا يكف عن مداعبة زملائه وتلقي التعليقات المنطوية على الدعابة .

وقد كانت له لوازم للدعابة منها قوله « السبب الـ ١٧ » وهو يعنى بهذا القول أن الأمر المعروض للمناقشة مرفوض لسبعة عشر سبباً وأنه لا يذكر السبب رقم ١ أو ٢ بل يكفي أن يذكر السبب ١٧ ، لأن الأمر المطروح للمناقشة مرفوض تماماً .

وكان يقول دائماً أن اخطر أمور الدولة والحكومة تتوقف على قول أو فعل لعبا السميع أفندى . وهو يعنى بعبد السميع أفندى موظف صغير فى إدارة (أرشيف أى محفوظات أو إدارة شئون مستخدمين ، يستطيع أن يعطل أى قرار خطير بحجة من حجج الروتين يتقنها هو ولا يعرفها الوزراء أو الرؤساء . وكان يرسم صوراً كاريكاتورية لبعض الشخصيات الكبيرة من ذلك أنه اطلق على أحد الكبار لقب فصيح الاذاعة ، وهو شخصية فكاهية لعلها كانت من ابطال ساعة لقلبك وكان قد أطلق على اقتصادى بارز لقب (أبو حميد) لصخامة أقواله ، وقلة علمه وكان حريصاً جداً على أن يلبي دعوات زملائه فى مناسبات عائلاتهم السعيدة ، كـ كان لا يتخلف عن تقديم العون لكل من حوله من الكبار والصغار . ورأيته يوماً يستمع إلى شخص عرف بالثورة الفارغة باهتمام شديد ، ولما انصرف محدثه سألت عبد الناصر ماذا كان يقول لك قال : علمى علمك .. فقلت له : ولكنك كنت مستمعاً باهتمام شديد فقال : هذا قدرى ان أسمع كل شئ ، أما ان يكون المتكلم مفهوماً فشيء آخر .

فبعد الناصر كان انساناً بكل ما فى الانسان من حسنات وعيوب ، وعناصر قوة وعناصر ضعف ، ولا أنسى ألى كنت أتغدى معه فى بيته قبل إعادة بنائه ، وكنا قد فرغنا من عمل ، ورحنا نستعيد ذكريات ما قبل الثورة . فقلت له : لقد اعتقلت مع حسن البنا لسبب لم أتبينه إذ لم يكن لى نشاط فى فترة الاعتقال ثم أفرج عنى بلا سبب أيضاً فقال وما وجه الاستغراب نحن نفعل أيضاً أحياناً مثل ذلك اعتقال وإفراج بلا سبب .

تقديم

حينما نشرت هذه الفصول التي أقدمها ، في « مجلة الفجر » التي كان الأستاذ حلمي سلام ، يرأس تحريرها في الدوحة عاصمة قطر ، فاجأني اقبال الناس عليها واهتمامهم بها ، ولم أخطئ في تبين السر في هذا الاقبال والاهتمام ، فقد كان العرب بعامه ، والمصريون بخاصة في شوق شديد إلى معرفة كل شيء عن ثورة سنة ١٩٥٢ ، وعن الرجال الذين قاموا بها ، وعن حقائق شخصياتهم ، وخصائص اخلاقهم ، والظروف التي أحاطت بهذه الثورة ، وصلاتها بالقوى العالمية ، فقد كان ما نشر عن كل هذه الجوانب قليلاً بالنسبة لضخامة الدور الذي لعبته هذه الثورة في حياة الوطن العربي ، واتجاهاته ، والمستقبل الذي ينتظره ، والعقبات والصعاب التي تتعقب كل خطواته وترصد كل حركاته .

الثورة العربية الأولى :

ولم يكن في هذا ما يدعو إلى العجب

فثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، كانت الثورة العربية الأولى ، التي استهدفت التغيير في الاقليم الذي قامت فيه تغييراً يتناول الأسس ، وقد نجحت في أمرين جد خطيرين : اولهما : قيام الثورة ، ذاته والثاني :- في ثباتها واستقرارها .

أما أنها الثورة الأولى فهذه هي الحقيقة التي يؤيدها التاريخ ولا ينكرها فمئذ اندلاع الثورة العربية في ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ التي بدأت بحصار الجيش المصري بقيادة أحمد عرابي لقصر عابدين ، مقر الخديو توفيق ، لم تقم في الوطن العربي ، ثورة انفجرت ثم استقرت ، ثم غيرت الأمور في الاقليم العربي الذي اندلعت فيه تغييراً اختفت له المعالم الرئيسية في هذا الوطن .

لقد سبقت ثورة الشيشكلي في سوريا التي اسندت زعامتها الرسمية لحسن الزعيم ثورة ٢٣ يوليو ، ولكنها لم تلبث حتى سقطت وعادت الأمور في سوريا سيرتها الأولى ومضت الأمور في الوطن العربي ، على نفس الوتيرة التي كانت تجري عليها حتى جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ ، فكان انفجارها في ذاته حدثاً يجب على المصريين والعرب أجمعين أن يزهبوا به ، ويفخروا . ذلك لأن أكبر ما كان يوصم به المجتمع العربي ، هو أن العرب يركبهم حكامهم بالهوان ، ويستبدون بأمورهم أقبح استبداد ، فيهبون أموالهم ، ويددون مصالحهم ، ويجرمونهم من كل حرية ، ويؤخرون تقدمهم ، والشعب خائف خاضع لا يحرك أصبعاً ، ولا ينطق بحرف ، ولا يكف عن الشكوى بينه وبين نفسه ، تلتفت يمينا ويسارا ، خائفاً من أن يسمعه سامع ، ولا يعرف أن الحرية

لا يناها الآملون فيها ، والعاشقون لها ، إلا بعد تضحية وبذل وأن الهامسين اذا اجتمع بعضهم لبعض ، ونظموا أنفسهم ، وساووا صفوفهم أصبحوا قوة لا تقاوم ، وأن الشعب الأعزل الذى يضرب ويسام الخسف ما اجتمع مرة ، إلا وكتب له الفوز ، وتحققت له الحرية .

ولذلك كان قيام ثورة ٢٣ يوليو ، واستمرارها ، فى مصر ، رداً لاعتبار المصريين والعرب ، وتعزية لهم على أنهما ثورة عراقى ، أمام النظام الملكى المؤيد بالاستعمار الغربى .

ولم يكن انتصار ثورة ٢٣ يوليو ، مجرد قيامها ، وتسليم جميع القوى المناهضة للثورة بها والتعامل معها ، على أساس أنها صاحبة الكلمة فى مصر ، إلى حد أن الملك حزم متاعه ، وجمع أهله وأتباعه ، ورحل عن مصر ، فى الساعة التى حددت له ، لم يتأخر دقيقة ، ونفذ جميع ما أمر به ، بل أنه راح - يرجو ممحلى الثورة أن يأذنوا له باصطحاب السيور « بوللى » تابعه الأيطالى الأمين ، بحجة أنه لم يباشر من أمور السياسة شيئاً ، وأنه مجرد خادم ، وقد تسابقت الدول كبيرها وصغيرها ، شرقها وغربها ، إلى الاعتراف بالثورة ، وقد كان كل هذا تكريماً لمصر ، وتطهيراً لشرفها من عيوب الضعف ، وآفات العجز ، وقد مضت بعد ذلك الشهور تلو الشهور ، والسنوات تلو السنوات ، والثورة باقية ، وقد غيرت من أمور مصر ، أكبر أنظمتها ، ومن سماتها ، ومظاهر أقدم خصائصها .

فقد ازال النظام الملكى ، وأنزلت الملكية الزراعية من عرشها العالى ، وطاردت النفوذ الأجبنى فى كل مجالاته : فمصرت وأمت التجارة والصناعة التى استأثر بها الأجانب ، وجعلت لتعليم بجميع درجاته مجانيا ، فأقبل أبناء الطبقات الفقيرة من فلاحين وعمال ، على التعليم الجامعى ، وأصبح عشرات الألوف منهم قضاة وأساتذة جامعة وسفراء وأطباء ومحامين ، وتغيرت البنية الاجتماعية ، فقد أصبحت القمة فى المجتمع من أبناء الطوائف التى حرمت طويلاً من التعليم ومن التقدم .

هذا فى الداخل ، أما فى الخارج فقد كان أثر الثورة المصرية عميقاً وواسع النطاق ، حيث وجدت جميع حركات التحرر من الاستعمار على طول الوطن العربى وعرضه التأييد والدعم المادى والمعنوى من تلك الثورة وحكومتها ، فسقطت مراكز الاستعمار فى الجزائر وليبيا وعدن والعراق واليمن . وساد تيار التحرر والاستقلال هذا الوطن بعد نحو قرن من العبودية والتبعية فزال القواعد الأجنبية فى السويس ، وفى الحبانية فى العراق ، وفى هوبلس والعصم فى ليبيا وفى عدن . وأصبحت الوحدة العربية حقيقة بعد أن كانت مجرد حلم ، ولم يؤد سقوط الجمهورية العربية المتحدة ، وانفصال سوريا عن مصر ، إلى انحسار المد العربى ، بل ربما أدنى هذا السقوط إلى تأجيج الرغبة فى إقامة تلك الوحدة على أسس سليمة قوية ، رداً على المؤامرات والدسائس التى أفضت إلى سقوط أول دولة من دول الوحدة .

وقد قادت مصر الثورة حركة عالمية جديدة مع زعماء الهند ويوغسلافيا ، وهى حركة عدم الانحياز التى اقلقت الاستعمار العالمى ، وعلى رأسه الولايات المتحدة وقد ارتفع مد هذه الحركة واشتد تأثيرها .

ثورة أم انقلاب :

ازاء هذه التطورات البعيدة المدى التى غيرت وجه المجتمع العربى ، والتى أدخلت فيه العشرات من أسس الحكم وأساليب التفكير وبناء المجتمع وعلاقات مصر بالعرب وعلاقات العرب بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالعالم على أوسع نطاق ، ازاء هذه التطورات كان يجب أن ينحسم النزاع حول ما إذا كان ما وقع فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثورة أم انقلاباً .

فالثورة هى تغيير اجتماعى يخفى فيه مجتمع بأسس تفكيره ، واتجاهاته وطموح أهله ، وهمومهم ، ويأتى بمجتمع جديد آخر باسس واتجاهات وطموح وهموم لم يعهدها أهل المجتمع الختفى .

وكان حسب حركة ٢٣ يوليو أنها أزالت الملكية فقط . لتكون ثورة . فالملكية المصرية هى أقدم الملكيات . نشأت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولم تقطع قط . فالملكيات الأوربية كلها حديثة لم ينقض على ميلادها أكثر من سئائة او سبعمائة سنة . فى حين أن الملكيات اليونانية والرومانية والهندية والصينية ، أنهت منذ قرون

أما الملكية المصرية فقدية قدم التاريخ الانسانى ، وقد اقترنت فى بدايتها بالمعبود الخالق ، اد اندمجت شخصية الملك بالإله ، فأصبح الإله هو الملك ، وأصبح الملك هو الإله . ثم حدث الانفصال بين الاثنين ، فأصبح الملك ، ظل الله ثم أصبح ابنه ، ثم أصبح صوته . ولذلك كانت الملكية المصرية راسخة رسوخ العقيدة الدينية ، ولذلك أيضا كان سقوط الملك فى مصر ، وبالتالى سقوط الملكية ، حدثا هائلا لا فى تاريخ مصر وحدها ، بل فى تاريخ الانسانية كلها ، وقد تم هذا السقوط على يد ثوار ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقد تم بسهولة ويسر عجيبين ، فالملك لم يفاوم ، إذ قامت الثورة فى فجر ٢٣ يوليو وخرج الملك من مصر مع زوجه وابنه وبناته وخدمه ومجهراته وثيابه ، فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو أى بعد أقل من ثلاثة أيام كاملة . وكان هذا أعظم استفتاء على تمثيل الثورة لآمال الشعب المصرى ، فقد خرج الملك بعد هذه الأيام الثلاثة ، دون أن يرفع مصرى واحد يده بقصد الاعتراض فضلا عن المقاومة . حتى حرس الملك ، الذى تمرغ فى نعمه ، وحظى بشديد عطفه لم يسفك من أجله دمعة . ولم يطلق فى الهواء قذيفة . ووقف الكل يشاهدون اسدال الستار على حكمه وملكه وعهده . لا يخالط مشاعرهم إلا الأسف الإنسانى على رجل بدأ حكمه محفوفا باعجاب الشعب وحبه . واستمر لسنوات

قليلة ، معقد الآمال ، ولم يكن مطلوباً منه للمحافظة على هذه المكانة إلا أقل القليل ، كان لا يطلب منه أكثر من الابدو لشعبه في مواقف لا تليق بالملك ، وألا ينقل عنه ما يعيبه في حياته الخاصة ، وأن يطبق الحديث الشريف : « اذا بليت فاستروا » ولكنه للأسف الشديد جرى على تقاليد العائلة المالكة ولا سيما في المراحل الأخيرة من حياته . هذه التقاليد التي تقضى بأن يبدأ الملك صغير السن بحمل الطلعة ، قريباً من قلب الشعب ، لوطنيه ولعدائه لحصوم البلاد ثم يتقدم في السن ، فيترهل جسمه ويتضخم ، ويزداد طمعه في مال الشعب ، ثم يحيط نفسه ببطانة سوء ، ما يلبث سوء سلوكها وخروجها على تقاليد البلاد الخلقية والدينية أن يجعل الألسن تتناقلها ثم ينحاز الملك شيئاً فشيئاً لأعداء الوطن حتى يصبح عميلهم الأول ، وخادمهم الأكبر ، فينفذ أوامرهم ، ويطبق سياستهم ، ويتأى عن الشعب ، ويتنكر له ، حتى يصبح نداً للشيطان .

بدأ كذلك محمد توفيق الذى كان يجتمع مع الوطنيين وهو ولى للعهد ، ويضيق بسياسة أبيه في الاسراف ثم تولى الحكم ، فادار ظهره لأصدقائه القدامى ، وأمر بالقبض عليهم وخضع للانجليز واحتسمى بهم ، فلما ضرب الأسطول البريطانى ميناء الأسكندرية لجأ إلى هذا الأسطول وتنكر للثورة العربية ، وأمر بمحاكمة زعمائها ، وكرههم بقى في قصره وحيداً لا صديق له من الوطنيين ، ولا نصير ، حتى توفى ، وجاء بعده الخديو (عباس حلمى) سنة ١٨٩٢ ، فصادق مصطفى كامل الذى كان في مثل سنة تماماً فكلاهما ولد سنة ١٨٧٤ ، وأصبح يقابل الوطنيين سراً في مسجد القبة ، ويتامر معهم ضد الاحتلال البريطانى ، ويتصدى له ما وسعه لتصدى ، ويضيق بالوزراء الذين يلودون بالاحتلال البريطانى ويصادقون ممثله السير ايفلنج بارنج الذى أصبح فيما بعد اللورد كرومر ملك وادى النيل غير المتوج ، وتهدد عرش الخديو عباس حلمى أكثر من مرة ولكنه كان يتأسك ويتجلد ويتمسك بالصبر ، ثم مال إلى مسالمة الاحتلال الانجليزى شيئاً فشيئاً ، ولاسيما بعد أن انعقد بين بريطانيا وفرنسا ، ما عرف بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ فقد كان الخديو عظيم الأمل في المعونة الفرنسية ، وكان يحسب أن الحركة الوطنية المصرية بزعامة مصطفى كامل ، ودعم فرنسا ، قادرة على تحقيق الجلاء عن مصر ، فلما اتفقت فرنسا مع بريطانيا ، على ألا تقيم فرنسا العقوبات والعراقيل أمام الاحتلال البريطانى ، على أن تفعل المحتلرا الشيء ذاته بالنسبة للاحتلال الفرنسى للمغرب ، أحس الخديو عباس أنه أصبح وحيداً ، وأن مصر لم تعد قادرة على مقاومة الانجليز ، فنفض يده من الحركة الوطنية المصرية وتنكر لها ، وقطع صلته بمصطفى كامل ، الذى أرسل إليه سنة ١٩٠٦ خطاباً مدوياً أعلن فيه الزعيم الشاب أنه قرر أن يبعد عن الخديو حتى لا يخرج مركزه مع الاحتلال الأجنبى .. وواصل الخديو تدهوره حتى بات عدواً للحركة الوطنية يعمل ضدها ويتقرب لأعداء البلاد ، حتى عزل في بداية الحرب العالمية الأولى في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ وقد تم الأمر ذاته مع فاروق ولى العهد بعد وفاة أبيه في مايو سنة ١٩٣٧ ولم يكن قد اكتمل

له سن الرشد ، فحكم مصر مجلس للوصاية يرأسه الأمير محمد على باشا شقيق الخديو عباس حلمي المعزول ، ولكن رئيس الديوان الملكي على ماهر باشا لم يلبث أن استصدر من شيخ الأزهر فتوى بأن الملك بحسب عمره بالتقويم الهجري ، فيكون قد بلغ سن الرشد ، ونولى الملك ، والناس شديدة الإعجاب بشبابه ووسامته ، وكان موكله وهو يذهب كل يوم جمعة إلى الصلاة في المساجد الفقيرة في الأحياء الشعبية ، محفواً بآلاف من أفراد الشعب الذين يتجمعون حول سيارته تعبيراً عن الحب والوفاء ، ولكنه فعل كل ما في وسعه ليحقق ما سبقه إليه أسلافه الذين تولوا الملك في مثل شبابه والذين بدأوا حياتهم ملوكاً مشمولين بالرعاية والحب ، حتى بلغ الذرور حيناً احاط الانجليز في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ مقره بدباباتهم ، واقتحموا عليه مكتبه في قصر عابدين. بقيادة الجنرال ستودن ومعه السفير البريطاني اللورد كيليرن وفرضوا عليه رئيس وزارة بذاته . ولكنه بدأ يغير موقفه بعد هذا الحادث ، فبعد عن الشعب ، وأصبح صديقاً للانجليز ، فمناحه رتبة الجنرال الفخرية في جيشهم وأصبح يخلص لهم الود ، وينفذ ما يطلبون ، وكلما اقترب منهم نورط في مسلك شخصي غاية في السوء ، حتى قضى آخر رمضان له في مصر ، على شاطئ جزيرة كبرى في جنوب إيطاليا ونشرت له صحف العالم صوراً وهو في هذا المصيف تسيء إلى سمعته ، وتطلق أسنة الناس فيه ، حتى عزلته الثورة في مساء يوم ٢٦ من يولييه سنة ١٩٥٢ كما سبق القول .

وربما يكون الكلام عن الملك والملكية قد طال ، ولكن كان ذلك واجباً ، فالثورة قامت أول ما قامت ضد الملك وكان مطلبها الأول ان ينزل آخر أعضاء أسرة محمد على عن عرشه وأن ينحى كل الذين أحاطوا بهذا الملك من السياسة الذين ربنوا له مسلكه ، وحبوه في أسلوب الحكم الذي اتبعه . وربما لو رزقت مصر في تلك الأيام ملكاً أقل سوءاً ، وأدنى إلى الفضيلة والعمل الصالح ، لما وجدت الثورة طريقها مهيأاً ، ولما التف الناس حولها كما التفوا بالفعل

مقالات الملك فاروق :

ولم يكده فاروق يضع قدمه في أوروبا ، حتى تلقفته أجهزة الاتصال بالجماهير ، أي الصحف ، والاذاعات المسموعة والمرئية ، لتتخذ منه بوقاً ضد الثورة .

فقد كان المعسكر الاستعماري متمثلاً في بريطانيا ، التي كانت جيوشها في مصر ، عند قيام الثورة ، وعزل الملك . وكانت بريطانيا مختلفة أشد الاختلاف مع الولايات المتحدة في أمور عديدة أهمها مصير الملك فاروق ثم مصير الملكية .

فبريطانيا كانت تعند بخبرتها الطويلة في حكم مصر والمنطقة العربية أى في مصر والسودان وفلسطين والعراق وجنوب اليمن وقبرص ، بل بخبرتها الاستعمارية في الشرق البعيد والقريب أى

أهبط وبورما حتى هونج كونج ، ولذلك كانت تدل بهذه الخبرة على الولايات المتحدة ، وترى هذه الأخيرة ، من (المحدثين) الذين لا يعرفون كيف يدار الشرقيون ، ومن هنا عارض الانجليز في خلع فاروق أولاً ، وفي اسقاط الملكية ثانياً ، وقد استمر هذا الخلاف فترة طالت شهوراً . فبقى النظام الملكي قائماً في مصر حتى يولييه سنة ١٩٥٣ ، ففي هذا التاريخ رجحت كفة السياسة الأمريكية ، وتقرر اسقاط الملكية واعلان الجمهورية .

ولقد انتهر فاروق هذا الخلاف في المعسكر الاستعماري فشن حملة على الثورة ، ولكنه لم يجد نقطة ضعف في البناء الذي تولى الحكم بعد عزله إلا شخص كاتب هذه السطور . ففي أول الثورة توارى مجلس قيادة الثورة ، فلم يتول من الضباط الشبان أو زعيمهم اللواء محمد نجيب شيئاً من :اصب الدولة . لم يعين منهم أحد في مناصب الوزراء ، ولم يتول رئيسهم لا الوزارة ولا غيرها ، وكان هؤلاء الشبان مجهولين لم يسمع العالم عنهم شيئاً قبل ثورتهم التي رضعتهم على رأس الحكم في أشد نقط الشرق العربي حساسية ونفاة .

ولذلك لم يحاول فاروق الهجوم على محمد نجيب ولا على أعضاء مجلس قيادة الثورة الشبان ، وكنت السياسي المدنى الوحيد ، وكان فاروق يعلم شيئاً عن حياقي السياسة أثناء وجوده على العرش ، وكان السفراء الانجليز والأمريكان ، يحبون أن ينظروا إلى بوصفى شيوعياً ، وقد اثبتت المراسلات المتبادلة بين هؤلاء السفراء ووزارات الخارجية في لندن وفي واشنطن ، أنهم كانوا لا يدحرون وسعاً في اثبات لوى الشيوعى المزعوم . وقد أعانهم على ذلك أننى اخترت عضواً في مجلس السلام العالمى الذى انعقد في وارسو قبل قيام الثورة مباشرة ، ولم يغير في موقف الاستعمار ، أننى اخترت لهذه العضوية بدون الرجوع الى أو أخذ رأى ، أو مجرد اخطارى ، هذا فضلاً عن أننى لم أحضر جلسة واحدة من جلسات هذا المؤتمر .

والدوائر الاستعمارية في إنجلترا والولايات المتحدة وكل غرب أوروبا جد حساسة لكل من تعارن مع الاتحاد السوفيتى قبل ثورة سنة ١٩٥٢ ، لشدة خوفهم من زحف التيار الشيوعى المستمر ، فأحسوا استغلال هذه الملابس التى اتصلت بى ، بلا عمل ولا سعى ولا نشاط من جانبى ، في تعليقاتهم عقب اختياري وزيراً في الوزارة التى شكلت في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ بعد قيام الثورة بشهرين ، واعلنوا بأعلى الصوت ، وفي كل مكان أن في صفوف زعماء الثورة شيوعياً هو فتحي رضوان ، وتلقف الملك فاروق هذه الدعوى ، واتفق مع صحفى بريطانى شهير من المحافظين ، يدعى (دارد برايس) ، على أن يكتب سلسلة من أربع حلقات ضد الثورة ، حشاها بحملة ضدى ، وسيرى القارىء تفصيل هذه الحملة في الفصول التى يتكون منها هذا الكتاب .

ولكنى اكتفيت بالاشارة اليها ، لتوضيح موقف الملك فاروق من الثورة ، وكيف أن سوء سمعته ، في العالم ، أعان الثورة على تشديد قبضتها على البلاد ، وتثبيت قدمها في الحكم .

الثورة ثورة :

يبدو أننى فتحت قوساً كبيراً ، طال فيه استطرادى ، في موضوع هل ما حدث في ٢٣ يوليو كان ثورة أم انقلاباً ؟ .

وأحسب أنه بعد هذا الذى سقته في هذا الموضوع ، لم يعد ثمة شك في أن ما جرى في ذلك اليوم كان ثورة ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى لأن الانقلاب ، هو عمل مادي يمتد بتغيير به شخص الحاكم ، فيذهب حاكم ويأتى حاكم غيره ، دون أن يتغير شيء في نظام الحكم أو في أسسه ، فانقلابات أمريكا الوسطى ، التى يقوم بها ضابط كبير أو صغير ، ضد الحاكم القائم أو (الجنى) الحاكم أى الجماعة العسكرية الحاكمة ، لا تسمى ثورات . لأن التغيير المترتب على الانقلاب يكاد يكون معدوماً ويبقى كل شيء في البلاد التى شهدت الانقلاب كما هو .

أما ما حدث في مصر بعد ٢٣ يولييه ، فيعد تغييراً شاملاً ، لم يدع شيئاً إلا غيره ، ولم يغير الهياكل الخارجية ، والمظاهر فقط ، ولم يغير الأسماء فقط ، بل غير الجوهر تماماً .

والذين لا يوافقون على التغيير الذى تم..من حقهم أن ينقلوه بل من حقهم أن يرفضوه ويستكروه ، ومن حقهم أن يشيخوا أن مصر كانت أحسن حالاً قبل الثورة ، فكل هذا لا ينفى أن ما حدث هو ثورة ، إذ لا يكفى أن يقع في بلد ما ثورة ، حتى ينصلح حالها ، وينقلب الفساد خيراً ، والجوع شعباً ، والاضطرابات نظاماً . فقد تفشل الثورة في تحقيق أهدافها ولكنها تبقى ثورة . كذلك قد يبقى الانقلاب ويستمر ويحقق أهدافه ولكنه لا ينقلب بذلك إلى ثورة .

تماماً كما لو رزق انسان بنتاً ، وكان يتمنى أن يكون له ابن ذكر ، ومع ذلك فإن هذا الولد ، ولد عليلأ كثير الأمراض ، ولم ينجح لا في تعليمه ولا في حياته العملية ، ولكنه يبقى ذكراً . وقد يرزق الرجل نفسه بنت صحيحة البدن ، ذكية ، تنجح في المدرسة وبعد المدرسة ، ولكنها مع ذلك تبقى بنتا . فالثورة والانقلاب جنسان مختلفان في الطبيعة ، بغض النظر عن النجاح والفشل .

محمد نجيب :

وقد كان من أبرز سمات ثورة ٢٣ يوليو ، أنها كانت مجموعة من الشباب لم يبلغ أى منهم الأربعين من عمره ، ولكن كان على رأسهم رجل مكتمل الرجولة ، في رتبة اللواء ، وهى أعلى رتب الجيش حتى سنة ١٩٥٥ . فلم يتجاوزها طوال زمن الاحتلال والزمن الملكى ، أحد سوى

ضابط واحد ، قضى أكثر عمره في وظائف الشرطة ، هو الفريق محمد حيدر مدير مصلحة السجون ، وياور الملك .

وقد كان محمد نجيب منذ اللحظة الأولى للثورة علامة استفهام كبيرة ، وقد بقي هكذا حتى توفاه الله سنة ١٩٨٤ وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وقرب من التسعين .

كان محمد نجيب ضابطاً حسن السمعة شجاعاً ، امتاز دون أكثر زملائه ، برفضه الخضوع والاذعان لإلـلـملك فاروق ، ولا الحاشية العسكرية و المدنية . وكانت له مواقف مذكورة من ضابط الملك ، الفريق محمد حيدر باشا الذي سبقت الإشارة اليه .

وقد شارك محمد نجيب في حرب سنة ١٩٤٨ ضد اليهود في فلسطين ، قابلي بلاءً حسناً ، وأصيب ثلاث مرات احداها كانت في الصدر فوق القلب ، ولذلك كادت تكون اصابة قاتلة .

وكان فوق ذلك موظفا عفا اليد ، لم يطمع قط في المال العام ولم يأخذ منه مليماً واحداً

ولذلك وقع اختيار الضباط الشبان عليه منذ اللحظة الأولى ، فكان اختياراً موفقاً ، فقد اثبتت الأيام بعد ذلك أنه كان يتمتع إلى جانب شجاعته الفائقة ، ونزاهته الكاملة ، بمجاذبية لا تقاوم . ولذلك ما كاد يقع نظر الشعب عليه وهو يلوح بقبعته العسكرية ، حتى تعلق به ، ووقع في حبه . فأصبح يجرى في أعقاب مواكبه ، وهو منجذب اليه ، مشدود إلى شخصيته ، يود أن يلმسه ، أو يقبله أو يعانقه لو استطاع وقد امتحن محمد نجيب امتحانا عسيراً ذلك أنه ورث الزعامة الشعبية عن زعيم أحبه المصريون غاية الحب ، وتغنوا باسمه في المظاهرات والاحتفالات ، ذلك هو مصطفى النحاس باشا .

وقد كان الظن أن الزعيم الجديد سيبقى بعيداً عن قلب الشعب ، وفاء من الشعب لزعيمه القديم ، ولكن الذي حدث أن الزعيم الجديد أنسى الشعب حبيبه القديم بلا أدنى جهد ، فمحمد نجيب ، لم يبذل جهداً ليغزو قلب الأمة ، وليحتل في هذا القلب مكان البطل الأول المحبوب ، فمن اللحظة الأولى ، تعلم الناس ، كيف يرددون اسمه ، وكيف يشتررون صورته ، وكيف يرفعون هذه الصور في المظاهرات والمواكب وكيف يلصقونها في الدور والأماكن العامة .

وقد كانت له خاصية تميز بها وتفوق على سلفه ، تلك هي حب الأطفال الشديد له ، فما من اجتماع عام إلا جاءت إليه الأمهات ومعهن أطفالهن حتى تحلق الأطفال حول محمد نجيب ، يتعلقون به ، ويتسلقون اكتافه ، ويقبلونه ، وهو يحملهم فوق ذراعيه مثني وثلاث ورباع ويقبلهم ويعودون إلى أمهاتهم وهم يتسابقون في منظر جيل كأنهم الحمام البيض . وجاء حب الأمهات بعد حب الأطفال ، فقد كن يقتربن من الزعيم الجديد ويقدمن له (الأوتوجرافات)

ليوقع لمن باسمه ، فلا يمل ولا يتعب ويوقع المثات في هذه الدفاتر ، وهو راض ومبتسم ، يوزع دعاياته ، التي تضحك وتزيد من حب الناس له ، وتعلقهم به .

وقد كانت لهذا الزعيم الجديد خاصية جديدة هي أن الاشاعة ، صنعت له نسباً فقد قيل أن امه سودانية ، أو نوبية ، وأعان على رواج هذه الاشاعة ، أن طريقته في نطق اللفظ العرى شبيهة بالنطق السودانى أو النوبى ولعل مرد ذلك أن والده وخاله وربما عمه أيضا - قد كانوا ضباطاً في الجيش المصرى بالسودان ، وأنهم ماتوا ودفنوا هناك . فتطبع بطبعهم ، وحاكاهم من حيث لا يدري بنطقهم . ولذلك أحبه أهل النوبة والسودانيون حياً شديداً وصدق بعضهم أن امه سودانية مع أنه كما قلت مصرى ولد في قرية التجارية مركز كفر الزيات من أعمال محافظة الغربية ولكن محمد نجيب - وإن كان مصرياً - قد أتاحت له نشأته في السودان وتعلمه في مدارسه ، فرصة التعرف على عدد كبير من رجالات السودان في مقدمتهم عبد الرحمن المهدي باشا كما كان الفريق إبراهيم عبود زعيم الثورة السودانية التي أزال حكومتها جعفر القميرى سنة ١٩٦٩ - كان زميله في المدرسة الحربية ، وفي فرقة الملاكمة بها .

وقد ثار جدل حول ما اذا كان محمد نجيب قد شارك في تأليف جماعة الضباط الأحرار قبل الثورة أم أنه كان في بيته في الوقت الذى كانت فيه الثورة ، تبدأ أولى وقائعها بالنزول من معسكر الهاكستب ، لتحصن مقر القيادة العامة في كوبرى القبة ، أم أنه كان مشاركاً بالاعداد والتنظيم والتوجيه لهذه الأحداث الأولى .

والثابت في هذا الصدد أن الضباط الأحرار تعرفوا على محمد نجيب ، وأحبوه ، ومنحوه ثقتهم قبل قيام الثورة . عرفوه عن طريق الصاغ عبد الحكيم عامر الذى كان أركان حرب اللواء الذى كان الأميرالاي محمد نجيب يقوده ، وقد أبلغ عبد الحكيم عامر زميله وصديقه جمال عبد الناصر باسم محمد نجيب ، وحدثه عن مزايه ، وكل منهما في خنادق القتال في فلسطين . فلما انتهت الحرب ، وعاد الضباط إلى بيوتهم عرف بقية الضباط الأحرار محمد نجيب ، واعتبروه واحداً منهم . دون أن يشركوه في اجتماعاتهم ، أو يسمعوها رأيه في مداولاتهم ، وهو بلا شك كان في بيته المتواضع جداً الذى لا يبعد كثيراً عن مقر القيادة العامة للجيش في كوبرى القبة عندما كانت أولى عجالات (الطابور الميكانيكى) الذى خرج من الهاكستب وعلى رأسه بطل يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ المقدم يوسف منصور صديق ، الذى يذكرني دائماً ببطل الثورة العراقية الأميرالاي (محمد عبيد) ، الذى ينتسب إلى نفس المركز الذى ولد في أرضه محمد نجيب - مركز كفر الزيات .

ولكن لم يبق محمد نجيب في بيته اتقاءً للمستولية ، ولا خوفاً منها ، إنما هكذا طلب منه ، وحينما أخبروه بأن الضباط الشبان وصلوا مقر القيادة العامة ، وأنهم يطلبونه ، ليتولى القيادة ، لم

ولا إلى معالجتها . فمحمد نجيب مال في مارس سنة ١٩٥٤ إلى حصوم الثورة ، فحتى الشبان أن يعاود محاولته في وقت لاحق .

وكان ممثلو النظام القديم قد تبنوا اتجاهات الثوار الشبان على وجه قاطع فأدركوا أن ليس لهم ولا لنظامهم القديم بقاء مع هؤلاء الشبان ، فزادوا من انحيازهم لمحمد نجيب ، والنظر اليه بوصفه رمز الحرية النيابية ، وتعدد الأحزاب ، فوسعوا شقة الخلاف بينه وبين جيل الشبان ، فكان لابد أن يختلفي ، ولم يكن عنده - كما سبق القول - من وسائل المناورة ما يؤخر هذه النتيجة ، فضلاً عن بساطته وصراحته وعدم وجود أنصار له في الجيش يسندونه ، أو يخيفون أعداءه ، أما حب الشعب له وتعلق الجماهير بشخصه ، فلم يكن قوة يعتد بها ، لأنها قوة غير منظمة ، من جهة ، وغير مستعدة للنضال والقتال ، وكان أسلوبه يعين على خسارة المعركة لا كسبها ، فقد كان دائم التنقل بين وحدات الجيش ، وأماكن تجمع الجماهير ، دون أن يستقر في مكتبه ، ليتابع تطورات الأمور ، ويحسن الاتصال بدوى المكافحة أو التأثير والاستماع اليهم ، ووضع خطة عمل من أى نوع .

لذلك كان مصيره قد تقرر ، وكان عليه أن يتحمل آلام السقوط الرهيب ، الذى طال وقد زاد من هول هذا العذاب ، أن محمد نجيب لم يقبل التسليم بهذه النتيجة القاسية ، ولم يفقد الأمل في إمكان تغييرها حتى وافاه الأجل المحتوم فمضى معترفاً من التاريخ بفضلته وبمزاياه الثلاث شجاعته ، ونزاهته ، وجاذبيته .

مع أعضاء مجلس قيادة الثورة وجهها لوجه :

حينما دعيت لأقابل أعضاء مجلس القيادة مجتمعين في ظهر يوم أحد - بعد أن قابلت عبد الحكيم عامر وجمال سالم منفردين ، جلست في حجرة انتظار بمجلس القيادة في كوبرى القبة ، وأنا أتأمل في تطور الأحداث ، وسرعة متابعتها ، وفي أنى لأعرف من هؤلاء الشبان أحداً غير (أنور السادات) ، الذى تردد على مكنتي أكثر من مرة ، وكان في إحدى هذه المرات ، هارباً من وجه البوليس والذى رأيته بعد ذلك في قفص الاتهام ، والذى لا أنسى قفزه من هذا القفص ، بعد أن فرغت من مرافعتي في قضية أمين عثمان باشا التى اتهم فيها أنور السادات ، بالتحريض على قتل هذا الوزير الوفدى . وفيما أنا أدير هذه الدكريات في رأسى ، اذ بشاب يرتدى ملابس طيار يقف أمامى ويحيينى بحماسة ، ذكر لى اسمه وذكرنى بأنه حضر اجتماعاً من اجتماعات حزبنا (الحزب الوطنى القديم) ، وأنا ذهبنأ سويا بعد الاجتماع إلى دار جريدة الأخبار . استمعت لكل هذا ولم أكن أدرى أنه أحد أعضاء مجلس القيادة ، حتى دخلت إلى الحجرة التى اجتمع فيها أعضاء هذا المجلس . ففوجئت بهذا الشاب جالساً مع زملائه أعضاء

المجلس وأنه عبد اللطيف البغدادي . وفوجئت بعضو ثالث كان زميلي في المدرسة الثانوية بنى
سوييف هو يوسف منصور صديق . وبذلك يكون من أعرفهم من صناع الثورة ، ثلاثة هم أنور
السادات وعبد اللطيف بغدادي ثم يوسف منصور صديق

ولكن حين اكتمل عقد المجلس ورأيت نفسي بينهم ، ورأيتهم جالسين مستعدين لسماع
كلامي ، أحسست بسعادة عميقة فأنا مع الشبان الذين صنعوا الثورة ، شبان صغار ، لا يكفون
عن مداعبة بعضهم بعضا ، ففتيض وجوههم بشراً ، وتعلو هذه الوجوه اشراقة الشباب ، والفرح
بالجراح ، والثقة بالنفس . وقد ذكروني بالشباب الذى كان يؤلف اجتماعات الحزب الوطنى
الجديد ، واجتماعات مصر الفتاة من قبل ، لقد سمعونا سنوات كادت تكمل العشرين عاما
من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٥٢ ، وما كنا نظنه كلاما يذهب فى الهواء ، ثبت أنه أثر ، فهؤلاء
الشبان صدقوه ، وقرروا أن يحولوه إلى واقع ، وحقيقة ، وفعلًا تم ذلك لهم . وحينما وصلوا
إلى السلطة ، وواتت لهم الأمور ، وأصبحوا سادة أنفسهم ، طلبوا منا أن نواصل الكلام معهم .
ويومها شعرت بأن هذا الاجتماع يجب أن يسجل فهو صفحة من صفحات التاريخ الحديث . انتهى
العهد القديم . انتهى عهد الحديو والملك ، وعهد البكوات والباشوات ، وعهد الكبار ، والفلاح
المغلوب على أمره الذى يجد كسرة الخبز بشق النفس ، والعامل الذى لا يسمع له رأى فى شان
من شؤونه هو أو شؤون وطنه .

حضر اعضاء مجلس قيادة الثورة جميعا الا اثنين : محمد نجيب لأنه لم يكن يسمح له بعد بحضور
اجتماعات مجلس القيادة ، وجهال سالم الذى كان يعتبر نفسه أكبر من أن يخضر اجتماعا سبتكلم فيه
مدنى ، ومع ذلك فقد نجسنت فيما بعد علاقتى به ، وأصبحتنا نجتنب سويا كثيرا ، ونتكلم
طويلا ، ونضحك من أعماق القلوب .

وفى هذا الاجتماع حدث شئ يجب أن يسجل لأنه أصبح ذا دلالة فى قابل الأيام . فقد داعب
أكثر الحاضرين ، ولاسيما كمال الدين حسين وصلاح سالم ، زميلهم أنور السادات ، مداعبات
نفيلة ، وعجبت أن أنور السادات قد احتملها فى حضورى ، فلم يبد عليه غضب ولا احتجاج ،
ولم يتوقفوا عن هذا المسلك غير المفهوم حتى شغلهم الكلام الذى تبادلناه .

اسمان سقطا :

فى تاريخ ثورة سنة ١٩٥٢ اثنان أحدهما يذكر أحبانا . ولكن دون أن يظفر صاحبه بما يستحق
من الاجلال والتقدير ، وقد حاولت أن أرد اليه بعض حقه ولكنى اعتبر نفسي الى لم الخج غاما
فيما قصدته

أما الثانى فهو انسان غريب حقا . عرف بن الذين احتكوا بالثورة وعانوا منها . او احتكوا بها

ولم يخاضموها ولم تخاضمهم ، ومع ذلك لا يقف أمامه المؤرخون ، ولا يحكمون ضده ، ولا يحكمون لصالحه كما فعلوا مع أشباهه الذين كانوا من أصحاب الأدوار التي تتم في الخفاء ولا يرفع عليها النور ، ولا أقول الأدوار الثانوية ، لأن دوره كان خطيرا إلى أبعد الحدود .

أما الأول فهو المقدم يوسف منصور صديق ، الذى لولا خطأ وقع فيه فى صبيحة يوم ٢٣ يوليو بالذات لوئدت الثورة فى مهدها ، ولتعرض كل زعمائها أو على الأقل أكثرهم للموت .

وأما الثانى فهو حمزة البسيوى الذى وصل إلى رتبة اللواء ، والذى اسند اليه منصب مدير السجون الحربية ، والذى نسب اليه من الأعمال أو قل من الجرائم ، ما يرفضه الشيطان ذاته . ومع ذلك لم يظفر من الشهرة وذويوع الاسم مثلما ظفر زميله صلاح نصر مدير المخابرات

وقد أبت الصدفة إلا أن تجعلى قريبا من الاثنين عرفتهما قبل الثورة كثيرا ، ورأيتهما فى الحياة العادية ، ورأيتهما بعد الثورة . وسمعتهما يتكلمان ، ورأيتهما يعترفان ، ومع ذلك بقيت علاقتى بكليهما من الظاهر ، فلم ادخل فى حياتهما بالقدر الذى يجعلنى صديقا وقد تأملت فى كليهما ، ووددت أن ارسم لكليهما صورة حتى يبقى ما أكتبه مرجعا لمن يريد أن يكتب عن هذه الثورة الكبيرة كتابة فيها تجرد واستقصاء .

أما يوسف منصور صديق ، فبطل بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، انضم إلى الضباط الأحرار ، وآمن برسالتهم ، وشاءت الظروف أن ينفرد وحده بدور حاسم فى الثورة ، تعرض فيه للموت أو الخطر الجسيم وهو يقوم به ، والثورة بعد لم تستقبل نور الحياة ، ولم يصدر القدر حكمه فى شأنها . تبقى أم تطوى صفحتها ، وتنكس رايتها .

ومع أنه قد أدى دوره ، واحتمل عبئه ، واجتاز بالثورة مرحلة الخطر فإن بقاءه بين زملائه ، لم يطل يستمتع بالسلطة ويندوق لذائد الشهرة ، وصعد فى مراقى الخلد ، كما صعد أخوانه وزملاؤه الذين لم يبدلوا بذلك ، ولم يجاهدوا جهاده بل كان بعضهم أبعد ما يكون من الخطر ، يتلهى فى مكان للتسرية وازجاء الفراغ ، أو فى خارج القاهرة كلها ، بعيدا بمئات أو ربما بآلاف من الكيلو مترات ينتظر الأنباء بقلق ، ولكنه مع ذلك آمن على حياته .

كان على يوسف منصور صديق أن يقود طابورا (ميكانيكا) من معسكر للجيش فى الصحراء ، كان اسمه (الهاكستب) وهو اسم امريكى اطلقته قيادة القوات التابعة للولايات المتحدة اثناء الحرب العالمية الثانية التى استمرت من سبتمبر سنة ١٩٣٩ حتى مايو سنة ١٩٤٥ وكانت ساعة الصفر المتفق عليها هى الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو ، ولكن لأمر ما ، تصور المقدم يوسف منصور أن الساعة الثانية عشرة هى الساعة الموعودة ، فحرك قواته ، فى اتجاه ضاحية هليوبوليس مصر الجديدة حيث يوجد مقر قيادة الجيش الملكى فى كوبرى القبة

وكان سر الثورة قد كشف بملابسة بسيطة ، ولكنها أدت الى هذا الذى كان يمكن ان يقضى على الثورة تماماً . فقد اجتمع في عائلة واحدة ضابطان . احدهما مع الثورة ، والثاني صدها . أما الضابط الذى انضم الى الثورة فقد كتم السر ولم يدعه إلا أنه قبل ساعة الصفر ارى نياحه الرسمية ، وترك داره ، فتساءلت أمه عن سبب تركه الدار في هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولم تكن تلك عادته ، فسألته إلى أين هو ذاهب ، فقال لها ، لمهمة طارئة ، فسكتت . ولكن لم يلبث حتى جاء أنها الأكبر ، في ملابسه المدنية ، ليرى أمه وأخاه ، فلم يجد الأخ الضابط فسأل عنه ، فأجابته أمه بما سمعت من ابنها ، فشرد ذهن أخيه ، وعرف في الحال ، ان هذه المهمة الطارئة التى تعلل بها شقيقه لا يمكن أن تكون إلا عملاً ثورياً مخالفاً للتعليمات ، لأن خروج ضابط من داره في الليل المتأخر وملابسه الرسمية لا يمكن أن يكون لعمل رسمى ، والا لعرف فهو ضابط مثل أخيه ، والحالة في الجيش وفي البلد عادية وهادئة . فأسرع الضابط إلى رؤسائه ، ولأن الوقت كان صيفاً ، فكل القادة في الأسكندرية ، فقد اتصل بمقر القائد العام ، وفي الحال اتصل القائد العام بأعوانه في القاهرة وفي الأسكندرية وأمرهم أن يجتمعوا في مقر القيادة ، وأن يتصلوا بمعاونيهم ، ليذهبوا إلى مكاتبتهم في المعسكرات المختلفة ، ويراقبوا الأحوال . ويتخذوا الاجراءات التى يستدعيها الموقف . ولو تأخر (الطابور الميكانيكى) الذى كلف يوسف صديق بقيادته حتى ساعة الصفر أى الساعة الواحدة لسبق المعسكر الملكى الى المواقع الرسمية التى تمكن من قطع الطريق على الثوار ولكن رحمه الله ، وقوع يوسف صديق في خطأ ، جعله يعجل بالذهاب إلى مقر القيادة العامة حيث اجتمع كل القادة الرسميين ، ولم يكن الوقت قد اتسع لهم بعد ليصدروا الأوامر ويستدعوا رؤساء الفرق والوحدات ، وهناك فوجئ القادة بالطابور الميكانيكى يحاصرهم ، وعلى رأس هذا الطابور بطلنا يوسف صديق .

وكان اجتماع هؤلاء القادة خدمة جليلة للثوار فقد سقطوا في قبضة الثورة دفعة واحدة ، ولو لم يحدث هذا لكان على الثوار أن يطوفوا بيوت أو مكاتب هؤلاء الضباط الكبار واحداً واحداً ، وهذا يكلفهم جهداً وربما يعرضهم للخطر اذ كان من المحتمل أن الدولة تكون قد تنبأت لقيام الثورة واتخذت ما يلزم لمواجهة ، ولذلك كان العمل الذى قام به يوسف صديق عظيماً ، ولكن هذا العمل لم يقف عند هذا الحد فقد هاجم يوسف مقر القيادة ، فقاوم جندى على الباب ، واقترح يوسف المدخل ، وسقط الجندي قتيلاً ، وجرح على ما أذكر آخر . وصعد يوسف إلى الدور الأول حيث كان القادة مجتمعين ، فألقى القبض عليهم جميعاً ، وأودعهم بعد ذلك في أماكن تابعة للقوات المسلحة ، تحت حراسة كافية . وبذلك سقطت الدولة الملكية بعد هذا الهجوم المظفر . حيث آلت الأسلحة المختلفة إلى القيادة الثورية ، وبهذا حرمت هذه الدولة من حماية الجيش .

ولكن يوسف صديق كان يسارياً شديداً الانحياز لليسار ، لذلك لم يكن ممكناً أن يتفق

مع عبد الناصر وأخواته ، ولما وقعت حوادث مارس سنة ١٩٥٤ ، كان يوسف مع الداعين إلى إعادة الديمقراطية وقد كتب مقالا نشر في جريدة الجمهورية دعا فيه إلى تأليف وزارة محايدة برئاسة المستشار وحيد فكرى رأفت . واشتد الخلاف بين يوسف وباقي الضباط الأحرار ، مما استدعى اعتقاله فى اسوان ، وتم اسناد وظيفة له فى سويسرا على سبيل الابعاد ، ولما استقر الأمر لعبد الناصر أطلق سراح يوسف ، وبقي بعيدا عن الحياة العامة حتى توفاه الله منذ نحو ثلاثة أعوام . هذا هو صاحب الاسم الأول .

أما صاحب الاسم الثانى فهو حمزة البسيونى . الذى عرفته شابا صغيراً عندما كان طالبا فى جامعة القاهرة قبل أن ينتحول إلى الكلية الحربية وكان منتسبا إلى مصر الفتاة ، وزميلا ملازما لاثنين ، لايفترق عنهما هما عبد العزيز الشوربجى نقيب المحامين فيما بعد ، وعبد الوهاب حسنى الذى لعب دورا ظاهراً فى حركات الشباب ، فى الفترة السابقة على توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ وما بعدها ، والذى كان نموذجا للشباب الفياض بالحوية ، والقادر على مزج الدعاية بالجد ، والعنف باللطف .

ولما بدأت أحداث وقصص التعذيب فى عهد الثورة تتصاعد وتتكاثر ، أخذ اسم حمزة البسيونى يتردد على سمعى ، فكنت اسمعه ، دون أن اتوقف أمامه ، ولو للحظة ، إذ لم يخطر على بالى قط أن حمزة البسيونى الذى يذكر الناس اسمه مقرونا بقصص التعذيب يمكن أن يكون حمزة البسيونى الذى كنت أعرفه ، وتصورت أن بطل القصص التى تدوى ، شخص آخر غير حمزة الذى أعرفه جيدا وأن الأمر لا يبدو أن يكون تشابها فى الأسماء .

فقد كان حمزة البسيونى الذى أعرفه انسانا جميل الطلعة ، يبلغ من البساطة والطيبة ، حد السذاجة ، وكان يشارك فى مظاهرات الجامعة ، ويتصدى للبوليس بشجاعة ، وفى مرة رأيت فى حديقة الجامعة حافى القدمين يحمل فى يده خرطوم الماء الضخم ، و يصوبه إلى رجال الشرطة وهم يفرون أمامه ، وهو سعيد بهذه المطاردة كأنه طفل غرير .

ثم حدث ظرف جعل حمزة البسيونى الذى أصبح ضابطاً صغيراً فى الجيش يتردد على مكنتى ، اذ اتهم بقتل زميل له خطأ فى شقة كان يستأجرها مع اثنين من زملائه الشباب العزاب ، فقد أقام الشبان الثلاثة وآخرون من زملائهم حفلة فى احدى المناسبات ، وأخذ حمزة يطارد زملاءه بمسدس ثان يظنه فارغا ، وانطلقت منه رصاصة خطأ وأصاب أحد الضباط الذى توفى فى الحال وأقام أهل الخنى عليه دعوى ضد حمزة ، فطلب منى أن أحضر عنه فيها ، فلبيت طلبه وطال أمد هذه القضية لسنوات ، فكان يتردد على فى مكنتى ، وفى كل مرة أزداد ايمانا بأنه مثال البساطة والسذاجة ، وأحيانا كان يزورنى والده ، الذى كان من رجال القضاء الشرعى ، وكان يطيب لى التحدث معه ، فقد كان وجهه ، يفيض سماحة ولطفاً ، فضلا عن جماله وحسن

الفصل الأول

غبار التطهير
وقدائف بين
نجيب وجمال سالم

بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبعد تأليف أولى وزارات الثورة في السابع من سبتمبر من تلك السنة ، حدث أمر لم يقع من قبل في بلد غير مصر ، ولعله لم يقع ، بعد ذلك ، في مكان آخر . فقد كانت شكوى مصر ، منذ مطلع عهد الاحتلال البريطاني الذي بدأ في الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، من الأداة الحكومية ، ومن كثرة الموظفين ، وتضخم مرتباتهم على مر الأيام ، وقلة كفايتهم ، وانتشار الرشوة في صفوف بعضهم ، وتعدد القوانين وكثرة تغييرها . ومفات ، بل وآلاف ، من اسباب الشكوى لم تنقطع - على الزراعى - هو « اصلاح الأداة الحكومية » . وكان رأى بعض وزراء الثورة ، أن الخطوة الأولى لهذا الاصلاح هى طرد الموظف الفاسد ، والمحظوظ ، والعاجز .

ولكن .. كيف نضع أيدينا على هؤلاء وحدهم ودون غيرهم ، فلا نظلم معهم الأكفاء .. والمتشدددين والمكروهين ، لأنهم « حنبليون » لا يستجيبون للدواعى المجاملة ، ولا يغمضون العين عن القليل من الفساد الذى يعتبره البعض (كالزيت) الذى لا بد منه لتليين تروس الالة ؟.

اخيرا .. اهتمدى المشرعون إلى طريقة قانونية (ديمقراطية) لاجراء ما سمي (بالتطهير) . وخلاصة هذه الطريقة ، أن ينتخب كبار الموظفين واحدا منهم يثقون به ، وينتخب صغارهم واحدا يثقون به . ثم يرأس الأثنين قاض من المحاكم بدرجة متوسطة . فلا هو من المبتدئين ، ولا هو من الكبار المشغولين بأعباء القضاء الكبرى . ولما كان عيب (الديمقراطية) الأصيل ، هو أن وسيلتها هى الانتخاب ، وأن الناخبين (بشر) ، تجوز عليهم الأكاذيب ، وينطلى الافتراء ويتأثرون بالهدية ، وبالرشوة ، وبالكلام المعسول ، كما أنهم يخافون القوى ، حاكما كان ، أو صاحب مال ، أو جاه - فالانتخابات لا تنتهى إلى « الرجل الصالح » لانه ، فى أغلب الأمر ، رجل متوسط الحال . صادق لا يكذب . حتى لا ينسب لنفسه الفضائل والمواهب . لا يوزع الوعود يمينا ويسارا بلا حساب ، فيفتح الطريق لأصحاب الأصوات العالية ، ولذوى الوجوه الصفيفة ، ولمن عنده مال ، ولمن وراءه جاه فإذا المجلس النيابى صورة من هذا الفساد ومرآة له .. ولكن الانتخابات ، مع ذلك كله ، هى « الوسيلة » التى لم يستطع المصلحون . وأساطين التشريع ، أن ينصحوها بسواها .. ومن هنا ، قالت الثورة : « انتخبوا خياركم .. ليطردوا شراركم » .

● فماذا حدث ؟.

●● في أول عهدي بالوزارة ، كان مكتبي - كوزير للدولة - يقع في مبنى مجلس الوزراء .. وجاء أحد رؤساء اللجان المنتخبين لتطهير المجلس (مجلس الوزراء) من الفاسد ، والمرتشى ، فرأيت - برؤيته - أغرب واعجب شخصية من المستخدمين والموظفين في مصر . ولما كان هذا الرجل نموذجاً لغيره ، وشديد الاتصال بالأحداث ، فاني استأذن القارئ الكريم في أن أطيل الحديث عنه قليلاً . ولكن .. لأن الرجل مات من جهة .. ولأنه من جهة أخرى ، لم يكن شخصية سياسية ، فسأدخل على الأحداث بعض التغيير الذي لا يمس جوهرها ، حتى لا أكشف عن شخصية انسان أصبح في رحاب الله .

جاء سكرتيرى الخاص يوماً ليعلن : أن الأستاذ (ولنقل عبد السميع) يريد مقابلتي ، وسألت : من يكون الأستاذ عبد السميع هذا ؟ فقال السكرتير : « إنه موظف كبير ، وأنه رئيس لاحدى لجان التطهير » . فسألت سكرتيرى : « وما الذى يريده منى ؟ » . فأجاب : « إنه يقول ان الموضوع شخصى بحث ، وان كان له جانب عام خطير إلى أبعد الحدود وقد رفض ، رفضاً باتاً ، أن يضيف إلى هذه الاجابة المثيرة حرقاً واحداً » .

وتحرك فضولى ، فأصبحت شديد اللفتة على مقابلته ، ومعرفة هذا الموضوع (الشخصى جدا) . وذى الاتصال بشأن عام ، وهام .

ودخل إلى مكتبي ، رجل تجاوز منتصف العمر ، يبدو عليه شئ من الاضطراب ، يسبح على نفسه مظهرها من التأدب المبالغ فيه . فحييته ودعوته إلى الجلوس .. فاعتذر عن قبول الدعوة ، فلما تشددت .. قبلها . وجلس على طرف المقعد ، وقبل أن يتكلم سألته عن وظيفته ، مؤهلاته ، والعمل الذى يباشره فى مجلس الوزراء ، وعن رأيه فى العمل قبل الثورة ، وما يستحسنه من أسلوب هذا العمل ، وما يستهجنه .. ولم أظفر منه بشئ دى قيمة ولكنى فوجئت به يقطع حديثه ، ويقف . وخيل إلى أنه يود أن ينصرف لأنه تذكر شيئاً كان قد نسيه على أن يعود .. ولكنى وحدته يقف ، ويستمر فى الكلام واقفاً !! فلم أفهم هذا التصرف ، وسألته : « لماذا وقفت ، هل تود الانصراف الان لنستكمل الحديث بعد حين ؟ » فإذا به يقول : « ابدا .. ابدا .. لم أصدق أن وقتك سيسمح باستقبالى وسط المشاغل ، والمواعيد ، والمقالات التى استطعت بسبب وجودى فى ديوان الرئاسة ، أن

أكون فكرة عن ضخامة عيبتها « فقلت له متعجبا : « وفيه وقوفك اذن ؟ » . قال : « لأنى هكذا أكثر ارتياحا » . فقلت له : « تعنى انك تحس الكلام واقفا منك وأنت جالس .. أكنت مدرسا قبل أن تأتى إلى هنا ؟ » فصاح صيحة قصيرة ، وخافته ، معلنا اعجابه الشديد بذلك ، وقال انه ، بالفعل كان مدرسا . ولكنه لا يقف بسبب الاعتياد ، ولكن لسبب آخر . فقلت له : « وماذا يكون ؟ » وكم كانت دهشتى حينما سمعت هذا « المدير الكبير » يقول : « لأنى أخشى أن تفسد معاليك أخلاقى » ! .

وخيل الى أن بعقل الرجل مسا ، ولكنى رأيته على حالة من التنبيه والهدوء . وقبل أن أسأله : « كيف تفسد أخلاقه اذا جلس ، وكيف تصلح أخلاقه اذا وقف ؟ » .. قال : « يامعالى الباشا .. إن الرؤساء جميعا لا يطبقون أن يخاطبهم مرءوسوهم وهم جالسون .. ولم أر وزيرا يخاطب حتى وكلاء الوزارة إلا وهو جالس ، وهم وقوف بين يديه . لا يبدأون بالكلام إلا اذا وجه اليهم الخطاب . وقد ربيت على هذه المبادئ وأصبح الحرص عليها . والتسلك بها ، ديدنى ورأبى ، فإذا اعتدت الجلوس أمام الوزير ، فإنى أخشى ان استمرى هذه العادة ، فافعل هذا مع غير معاليك فأفقد عطفه إلى الأبد .. فلا تضيع على مستقبل . ودعنى اتكلم واقفا » ! . وعشنا حاولت اجلاس هذا « المدير الفذ » !

ولكن .. لقد كانت فى جمعته مفاجأة أكبر . فقد قال : « يا معالى الباشا أرجو ألا تغضب منى اذا علمت اننى جئت اتطفل على مائدة علمك ، وأن التمس منك فتوى قانونية ، وأنا أعلم أن هذا اجترأ منى ، وسوء خلق ولكنى مضطر إلى هذا اضطرارا » . فهدأت من روعه . وان كنت لم أتأثر قليلا ولا كثيرا بهذه الألفاظ التى كان يمكن أن تمس شغاف قلبى فى ظرف اخر ، فقلت له : « تفضل .. ماذا تريد ؟ » فقال : « انى جئت اشكو اليك حظى العاثر الذى لا علاج له ، فأنا أخ شقيق لشرفى بك » . وتنهت ، فى هذه اللحظة ، للشبه بين لقب هذا المدير ، ولقب « فلان بك » الذى أشار اليه . فقلت له : « وأى حظ عثر فى أن تكون شقيقه ؟ » قال : « لا بد أنك عرفت أنه وجد فى شقته منتحرا » فقلت له : آهرف .. رحمه الله . وماذا فى هذا ؟ » قال : « انه انتحرا لأنه وجد أن له صلة ببعض النشاط المخالف للقانون ، ولذلك فأنى أود أن اتخذ اجراء اتبرأ به منه ، ولقد أمرت بعض أفراد الأسرة لينقلوا جثته من مدافنا ، ويلقوا بها ولو فى مقابر الصدقة » ! .

وفهمت المعنى الذى قصد اليه هذا المدير ، وهمت بأن اطرده من مكتبى ، ولكنه اندفع يقول : « ارجو ألا تقسو على ، وأن تفهمنى معاليك جيدا ، فلقد نشأت على أسس من الأخلاق تعد الخروج على القانون أشبه بالكفر . فماذا أفعل ليعلم الناس جميعا أن (شرفى) ليس أخى .. وأنتى أبرأ إلى الله منه ومن علاقتى به » .

★ ★ ★

لقد خيل إلى هذا المدير المسكين أنه سيناله بعض الشر ، أو الشر كله لكونه شقيق « شرفى بك » .. وقد غلبنى الاشمزاز من هذا التشوه الذى أصاب نفسا انسانية فأخرجها عن طبيعة البشر ، فأحيت رأسى خجلا ، ولم استطع أن أرفع وجهى حتى لا تقع عينى على وجهه . وبعد فترة صمت قلت له ، وأنا انتزع الألفاظ انتزاعا : « مثل هذا الكلام يضرك أبلغ الضرر ، وسأعتبر نفسى أنى لم أسمع منك شيئا . وإذا أعدت منه حرفا واحدا على مسمعى فى أى وقت آخر فلن أكتفى بطردك من وظيفتك ، بل سوف أطاردك أينما كنت » .

وحسبت هذا التهديد سيفرعه ، وسيجعله يكف عن هذا الغثيان المقرز . ولكنه اندفع نحوى وهو يقول : « افعل بى ما تشاء ، ولكن انقذنى أولا من هذه الصلة التى لا يدلى فيها ولا ذنب » !

وكلما زدت أنا امتعاضا . وكلما بدا على الاحتجاج . زاد هو تضرعا وتوسلا . ولم يوضع حد لهذا الموقف الشاذ . إلا بأن اخرجته بيدي من المكتب احراجا وهو يواصل تمثيله . دون أن يفقد من تماسكه ، ومن ثقته بنفسه ، واصرارها على تمثيله المفضوح ، قليلا أو كثيرا !

★ ★ ★

لم يكن هذا سوى نموذج لموظف كبير ، حاز ثقة زملائه ، ونجح فى أن يكون على رأس « لجنة تطهير » . ولست أزعم أن احدا من رؤساء اللجان كان فى مثل سوته . بل الذى أجزم به . أن الأغلب الأعم من هؤلاء الرؤساء كانوا من أفاضل الموظفين وخيرتهم ،

ولكن .. يمكن دائما للسياسيين في انتخابات عامة ، ان ينفذوا إلى أماكن ذات قيمة . ولكن ماذا تفعل حكومة تريد أن تلتزم العدل ، وأن تنزل على مقتضياته ؟. انها ان عينت رؤساء وأعضاء اللجان .. قيل انها « لجان مرفوضة .. وموحى اليها » . وان هي تركت الأمر للانتخابات ، كانت النتيجة ما رأينا .. فأين طريق الخلاص !؟

★ ★ ★

ليس ذلك سوى مدخل إلى صدى عملية « التطهير » في مجلس الوزراء الذي كان يرأسه عبد الناصر . وأول هذه الأصداء .. حكاية معروفة سبق أن ذكرتها في مواضع أخرى . ولكنها لا بد أن تعاد هنا بتفاصيلها . فقد كان النظام يقضى بأن يعرض كل وزير النتائج التي توصلت اليها « لجان التطهير » المشكلة في وزارته ، مشفوعة برأيه . ثم تقرر بعد ذلك ، ان تعرض هذا النتائج على لجنة وزارية تشكل من ثلاثة وزراء قبل عرضها على مجلس الوزراء .. وحدث أن عرض وزير التربية والتعليم ، المرحوم الأستاذ اسماعيل القباني ، ما قرره اللجنة المشكلة في دار الكتب من وجوب احالة الأستاذ توفيق الحكيم إلى المعاش - باعتبار أنه موظف غير منتج - وأفاض المرحوم القباني في بيان « أن الأستاذ الحكيم لا يكاد يحرك ورقة من مكانها في دار الكتب ، على الرغم من خطر هذه الدار ، ومن عظم الآمال التي تعقدتها الوزارة على هذا الجهاز الثقفي . وهي آمال تتزايد لما تعتمز الوزارة من توسيع الدار وتزويدها بالأجهزة والأنظمة الحديثة ، فضلا عن المراجع العلمية باللغات المختلفة » ..

وخيل إلى الوزير أنه القى بيانا مقنعا ومؤثرا .. فإذا به يفاجأ بعبد الناصر يقول في عبارة موجزة « انه من سوء التقدير أن اخرج في عملية تطهير أحد كبار كتابنا الذين ترجمت كتاباتهم إلى اللغات الأجنبية .. ماذا يقول عنا الناس في الخارج ؟ » .

ولم يعلق الأستاذ القباني على هذا الكلام بحرف واحد ، حتى خيل إلى الجميع أنه وافق على الاعتراض وأن المسألة مرت بسلام .. ولكنه ما لبث ان انسحب بعد قليل ، ومضى إلى بيته . وأدرك (عبد الناصر) أنه اهانه بقوله « سوء تقدير » .. وهو تعبير لم يقصده بحرفه ، وذهب إلى بيت الوزير ومعه الرئيس محمد نجيب واسترضياه ، ورضى .

ولكن الذي أدهشني ، حقيقة ، أن (توفيق الحكيم) لم يجد بين الوزراء جميعا نصيرا

واحدا ينضم إلى الرئيس عبد الناصر ، ويدفع عنه همة العجز الإداري ، أو يقيه من الفصل في « حملة التطهير » ، إلى الحد الذي خيل إلى معه أنه لو سأل سائل الوزراء - كما يجري الأمر في برامج الاذاعة - « هل قرأ أحدهم شيئا للحكيم ؟ » لما استطاع أى منهم أن يذكر له كتابا واحدا .. وقد كانت هذه نتيجة تدعو ، بلا شك ، إلى الأسف الشديد .

★ ★ ★

ولقد ساهمت في تعقيد الموقف بعد أن كانت هذه الأزمة قد انفرجت . فقد تحدث إلى الصديق الأستاذ حلمى سلام . عن شبهات وشكوك الناس في نتائج حملة التطهير ، فذكرت له خطوات التطهير .. من قرار تصدره لجنة منتخبة يرأسها قاض ، ثم لجنة وزارية ثلاثية ، ثم قرار من مجلس الوزراء . وضربت له - بأزمة اسماعيل القباني واصطدام الرئيس جمال به - مثلا على أن قرارات الفصل لا تصدر اعتبارا . ورأى الأستاذ حلمى أن من واجبه أن ينشر هذا المثل ، تهدئة للرأى العام وتنويرا له . وكان اذ ذاك ، يرأس تحرير مجلة (التحرير) .. وأدركت عندما وقع نظرى على الخبر منشورا في المجلة أن المرحوم الأستاذ القباني ، سيؤله هذا النشر . وقد يقوم في ذهنه أن الرئيس عبد الناصر هو الذى أوعز للأستاذ حلمى سلام بنشر الخبر لاعتراضه على قرار الأستاذ القباني فور سماعه له ورأيت أن من واجبي أن أبادر بزيارة الأستاذ القباني في بيته ، وأن أؤكد له أنني وحدى المسئول عن نشر هذا الخبر . وفعلا وجدته - كما قدرت - متألما ، ومنتويا الاستقالة . لكننى ما زلت به حتى وثق من صدق كلامى ، وأدرك أن استقالته لم تعد ذات موضوع فالاحتجاج على أنا لا يكون بالاستقالة .

وعرض عبد الناصر لما نشر . وقال انه لا يد لى فيه ، ولا أعرف كيف تسرب الخبر « مجلة التحرير » . وأن الأخ القباني لابد أن يكون غاضبا ، وله حق في غضبه . فتوليت شرح الأمر كله .. وانتهيت إلى الرئيس جمال ، وإلى المجلس كله ، اننى أنا المسئول عن كل ما جرى ، وأننى اصلحت ما وقع منى وأن الزميل القباني سيحضر المجلس في الجلسة القادمة . وقد أخبرنى المرحوم صلاح سالم ، أننى لما أعلنت « أننى أنا المسئول عن نشر الخبر » ، قال لجاره في المجلس : « إن هذه شجاعة من فتحى رضوان .. يحمدهم عليها .. فاستنكرت أن يكون اعلان الحقيقة في مسألة تفصيلية كهذه شجاعة تستحق التنبه ، فقال : « لقد أصبحنا نفتقد هذا القدر الضئيل من الشجاعة ! » .

ولكن « التطهير » كان قادرا على أن يلد أزمات صغيرة كهذه الأزمة . من ذلك أن احدى اللجان الثلاثية الوزارية ، التي كانت برياستي ، وافقت على فصل عدد من كبار الموظفين ، كان أحدهم ابن خالة أحد الوزراء المدنيين .. وكان اخر ، صهرا لاحد الوزراء العسكريين . وقد قال الوزيران - المدني والعسكري - بعد موافقة مجلس الوزراء على قرار اللجنة الثلاثية ، ان اللجنة الثلاثية لم توص بفصل أقربائهما . وطلبا اعادة الأمر على مجلس الوزراء ووافق الرئيس جمال على اعادة النظر في القرارين ما دامت هناك شبهة في عدم موافقة اللجنة الثلاثية على القرارين ، ولكن ما كاد الموضوع يعاد عرضه .. حتى تبين « عبد الناصر » أن احد الموظفين هو ابن خالة وزير مدني ، وأن الثاني هو صهر لوزير عسكري ، وعضو بمجلس قيادة الثورة وعندئذ صاح قائلا : « اذن المسألة هي هذه . سيقول الناس اننا لم نعد النظر في قرار واحد من قرارات التطهير ، ونعيد النظر في قرارين اثنين لمجرد أنهما يتعلقان بأقرباء الوزراء .. لا .. لا .. إن هذا سينزع الثقة بقراراتنا كلها . ليكن في هذين القرارين من الظلم ما فيهما ، ولكن المصلحة العامة أولى بأن تراعى » .

وسكت الوزير المدني وزميله العسكري على هذا القول على مضض .. فقد كانت حجة « عبد الناصر » من القوة بحيث لا ترد .

ولكن الوزير العسكري وجد سبيلا لعرض الموضوع مرة أخرى ، وبطريقة يمكن أن نصفها - بلغة هذه الأيام - بأنها أكثر (درامية) ! .

فقد حدث بعد صدور قرار مجلس الوزراء بالموافقة على فصل صهر عضو مجلس قيادة الثورة ، أن خاطبني بوصفي الوزير المسئول عن الجهة الادارية التي كان يعمل فيها صهر عضو مجلس القيادة ، عدد من أكبر الشخصيات ، استشفاعا له وثناء عليه .. كان منهم « صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا » رئيس لجنة الدستور في ذلك الوقت . وكان منهم قانوني مصر الأكبر استاذي المرحوم « الدكتور عبد الرزاق السنهوري » . ولكن الدكتور السنهوري اضاف إلى حسن شهادته في الموظف المفصول شيئا اندهشت لصدوره من رئيس مجلس الدولة ، فقد قال لي : « هل لديك مانع من أن يأخذ القباني (فلان) معه في وزارة التربية والتعليم » . اندهشت لصدور هذا القول عن رئيس مجلس الدولة ، لان تعيين موظف مفصول في التطهير ، بعد قرار فصله بأيام قليلة ، يجعل قرارات التطهير كلها هزلا لا معنى

له . ويدعو إلى ثورة المفصولين في هذا التطهير . فأجبت ، احتراما لمقامه عندي : « الأمر لم يكن اضطهادا شخصيا لفلان حتى أمانع في أن يناله خير على يد سوى . ولكن .. هل يمكن تعيين موظف مفصول في التطهير عقب فصله بأيام ؟ » فأجاب : « ممكن !! » فسكت ، ولم أعقب .. وأنا مندهش - كما قلت - غاية الدهشة من صدور هذا الكلام عن الدكتور السنهوري ذاته !!

وانعقد بعد ذلك بقليل ما كان يسمى ب (المؤتمر المشترك) ، وهو مجلس كان يضم الوزراء ، وأعضاء مجلس القيادة . وفي نهاية إحدى جلساته - وكانت برئاسة اللواء محمد نجيب - أمر رئيس الجلسة باخراج جميع الموظفين الإداريين والكتابيين من قاعة الاجتماع . وكان يقوم بأعمال السكرتارية الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن الذي عين ، سنة ١٩٧٥ وزيرا للتخطيط ، فخرج مع الخارجين . ثم قال الرئيس نجيب كلاما لم اتبينه ، لأني كنت مشغولا بورقة في يدي . ولم يدر بخلدني قط أن هذا الكلام يخصني ، وأنه يتضمن اتهامي بتهمة جد خطيرة . ولما استمر في كلامه ، وأنا مشغول بما كنت أقرؤه ، نهني احد زملائي بأن الكلام يخصني ، فالتفت إلى الرئيس نجيب ، فإذا به يقول ان عضو مجلس قيادة الثورة الذي فصل صهره ، يتهمني بأن اذعت اسرار مجلس الوزراء !!

والحق أنني وجمت . لأنني أعلم يقينا أنني لم أقابل أحدا قط وسمحت لنفسي بالتحدث معه عن أى شيء يجري بحثه في مجلس الوزراء حتى ولو كان اتفه الشئون . فسألت ، والدهشة تغمرني تماما : « أسرار ؟ .. أى أسرار ؟ . أريد أن أعرف السر الذي أذعته .. ولمن أذعته ؟ » .

وبدا الارتباك على الرئيس نجيب لأنه لم يكن محيطا تماما بنص التهمة ، فأعطى الكلمة لعضو مجلس القيادة الذي قال : « الدكتور السنهوري اتصل بك في شأن اعادة تعيين صهرى الذى فصلوه ظلما في وزارة المعارف وأنت وافقت » . فقلت : « وهل هذا اذاعة لأسرار مجلس الوزراء ؟ ! إن قرار الفصل بلغ - حسب القانون - للموظف من الجهة التى يعمل بها ، فلم يعد سرا . أما البحث في اعادة تعيين صهرك في وزارة أخرى فأمر لم يعرض على مجلس الوزراء ، ولا يمكن الحديث جرى بين رئيس مجلس الدولة ، وأحد الوزراء أن

يكون من أسرار الدولة » .

فقال عضو مجلس القيادة : « وكيف وافقت على اعادة تعيين صهرى ؟ » فقلت له : « وهل موافقتى على اعادة التعيين من أسرار الدولة ؟. وهل أنا أملك الموافقة أو المعارضة فى شأن موظف فصل نهائيا من الدولة ، ويراد تعيينه فى وزارة لا تتبئى ، ولا اشراف لى عليها ، ولست رئيس مجلس الوزراء » . فإذا بعضو مجلس القيادة يقول : « موافقتك على التعيين القت فى روع صهرى أننى وراء قرار فصله ، وأن هذا أفسد علاقتى بأولاد عمومى » .

وهنا لم أستطع أن اضبط نفسى فصحت : « وهل أنا مسئول عن علاقتك بأقاربك ؟! وهل أنا سميت لهذا الأفساد ؟ » .

وحاول بعض الوزراء تهدئى ، ولكنى فى الحقيقة شعرت بمرارة فى حلقى ، وخيل إلى أن بقائى فى الوزارة ، لم يعد محتملا . فلما انفض المجلس ، اسرعت إلى قطعة ورق فكتبت عليها استقالتي ودفعت بها إلى الرئيس محمد نجيب ، فأخذها دون أن يقرأها ، اذ لم يحسب أننى استقلت هكذا بسرعة .

وفى صباح اليوم التالى ، مررت على بيت « عبد الناصر » ، وتركت له صورة من الاستقالة .. فاتصل بى « عبد الناصر » - وسألنى : (ما الحكاية ؟) فرويتها له . فقال : « لقد حاولت أن أفهم المسألة من خالده محبى الدين ، والظاهر أنه لم يكن متتبعا لما جرى ، فلم أفهم منه شيئا .. » .

وطلب منى « عبد الناصر » ، بالحاح ، أن اسحب الاستقالة ، وقال لى : « انه ، هو واخوانه ، تحدثوا إلى زميلهم عضو مجلس القيادة ، ولاموه على موقفه منى ، وطلبوا منه أن يمر على فى المنزل ليعتذر لى عما وقع منه فى حقى » .

وفى أصيل ذلك اليوم ، كان وزير القصر قد دعانا لمشاهدة معروضات القصور الملكية المصادرة فى قصر القبة .. وهناك ، تقابلت مع عضو مجلس القيادة الذى كان طرفا فى هذه الأزمة ، فبادلنا التحيات ، ولم انتظر منه ، بعد ذلك ، زيارة ولا اعتذارا ، فقد كان يكفينى أن يتبين الجميع أننى لم أخطئ .

ومع ذلك .. بقى في جعبة التطهير طرائف ..

وفي أوائل سنة ١٩٥٣ ، كانت فرنسا تتحرش (بباي تونس) أى سلطانها أو ملكها الذى مال إلى الوطنيين وأخذ صفهم .. وبدأت في الأفق نذر تدل على أن فرنسا تنوى عزله ، وكان مجلس الجامعة العربية على وشك الانعقاد في القاهرة . وكنت ، في ذلك الوقت ، وزيرا للخارجية بالنيابة .. بعد التعديل الوزارى الذى خرج فيه السفير العظيم أحمد فراج طابع من وزارة الخارجية .. فاستقبلت سفراء الدولة العربية في القاهرة بواسطة لعقد مجلس الجامعة . فإذا بسفير اليمن - وهو السيد على المؤيد - يقول : « إلى متى ستبقى دول الجامعة وحدها في مواجهة دول الاستعمار . لماذا لا ندعو سفراء الدول الآسيوية والأفريقية لينضموا إلينا ويقفوا معنا في وجه فرنسا التى تهدد (باي تونس) بالعزل ، وشعب تونس بالقمع » .

وراقنتى الفكرة . فدعوت سفراء الدول الآسيوية والأفريقية جميعا للانضمام إلى سفراء الدول العربية . فبدأ عددا كبيرا . ثم تدفقت الأفكار من كل جانب . وكان من بين هذه الأفكار تهديد فرنسا بعدم تموين طائراتها العسكرية المسافرة إلى الهند الصينية . ولم تكن فرنسا وقتها قد هزمت هزيمتها الحاسمة في (ديان بيان فو) .. ولم تكن فرنسا لتجد مطارا تمون طائراتها بالوقود من فرنسا حتى فيتنام إلا (مطار اللد) في اسرائيل . وفيما عدا ذلك فجميع المطارات واقعة في بلاد الكتلة الآسيوية الأفريقية . وقد قررت هذه أن تمتنع عن تموين طائرات فرنسا بما يلزمها من الوقود والزيت .

ولما كان بين سفراء دول الكتلة الآسيوية من يعرف الإنجليزية وحدها . ولا يعرف الفرنسية .. ومنهم من يعرف الفرنسية ، ولا يعرف الإنجليزية . ولم تكن الترجمة الفورية قد عرفت ، فقد اضطررنا ، في وزارة الخارجية المصرية ، إلى الاستعانة ببعض السفراء الذين يجيدون اللغتين للقيام بأعمال الترجمة .. ووقع الاختيار على الأستاذ حسين رشدى - أحد رجال السلك السياسى المصرى - ليقوم بأعمال الترجمة إلى اللغة الانجليزية .

وفيما كان سفراء الدول الآسيوية والأفريقية والعربية مجتمعين في وزارة الخارجية ، وصل إلى مقر الاجتماع الرئيس محمد نجيب ، وشهد جانباً منه وكان الأستاذ حسين رشدى يقوم بالترجمة إلى الإنجليزية . فغاض الرئيس نجيب تدخل الأستاذ رشدى ، فيما يتولى ترجمته ،

بالتعليق عليه . و غاظه أكثر أنه لم يكن سريعا بالقدر الكافي . وذات يوم ، عرض اسم الأستاذ حسين رشدى ضمن الأسماء المطلوب إحالة أصحابها إلى المعاش ، فإذا بالرئيس نجيب يتذكر ما كان من الأستاذ رشدى فى يوم انعقاد اجتماع الكتلة الأسيوية والأفريقية فإذا به يصمم على إحالته إلى المعاش . ولكن الأستاذ رشدى كان صديقا للمرجوم جمال سالم . وكان « جمال سالم » يحسن الظن بكفائته ، وخصوصا بقدرته الفارقة على التكلم باللغة الانجليزية !! . ووقف كل منهما على طرفى نقيض . محمد نجيب يهاجم رشدى ، وجمال سالم يشنى عليه . هذا يطلب فصله ، وذاك يصمم على إبقائه . ثم ترقيته بعد ذلك . و حار المجلس بين الاثنين !! فلم يكن ثمة مخرج من هذا الجذب والشد إلا بتأجيل القرار إلى جلسة تالية .

وفى الجلسة التالية ، تكرر المشهد . ووقع بين « جمال سالم » و « نجيب » عراك بالالفاظ تطايرت فيه النعوت والوصاف .. كأنها قذائف بندقية !! وانتهت المعركة لصالح « جمال سالم » .. وبقي حسين رشدى فى مكانه حتى وصل إلى منصب السفير فى يوغوسلافيا . ونسى الناس ما جرى فى مجلس الوزراء .. ونسوا التطهير . ومضت الحياة على عادتها ، تصابيح الناس .. وتماسيهم .. بكل جديد .

ولكن هذا الاجتماع الذى أثار كل هذا الخلاف الحاد ، كان ، مع ذلك نعمة وبركة . فإنه كان نواة الكتلة الأسيوية الأفريقية التى كانت ، قبل هذا الاجتماع ، مجرد تجمع لا تنظمه ضوابط ، يلتزم لمجرد تنسيق مواقف أعضاء الكتلة ازاء المسائل المعروضة فى الأمم المتحدة . فمالم لبث ، بعد هذا الاجتماع ، حتى أصبحت كتلة متماسكة لها دورها الواضح ، وخطتها المعروفة . وقد أفضت هذه الكتلة نفسها إلى ميلاد « عالم دول عدم الانحياز » الذى أفضى ، بدوره إلى العالم الثالث .

الفصل الثاني

عندما هبت
العاصفة على
مجلس الثورة

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة في ليلة باردة من ليالى شهر فبراير سنة ١٩٥٤ ، حينما دق جرس التليفون ، معلنا اننى مطلوب لمجلس قيادة الثورة الكائن بالجزيرة . وهو مبنى مطبل على النيل ، كان الملك فاروق قد اعده ليكون مقرا لادارة اليخوت الملكية النبيلة . وكتمت عن أهل بيتى فحوى هذه المكالمات غير العادية ، حتى لا اثير مخاوفهم ، وان كانوا قد الفوا هذه المفاجآت ، ولم تصبح لديهم بالأمر الذى يخيف .. لا فى عهد الوزارة ، أو ما قبلها . ولكننى لا أكتم القارىء اننى فى تلك اللحظة التى تلقيت فيها هذه المكالمات - حرت تماما - فى سر هذه الدعوة . وملت إلى التشاؤم ، وقد لاحظت اننى رحت ارتدى ثيابى فى همة ، كشأنى فى اللحظات التى تبدو فيها نذر لا تطمئنى ، ولم يبد على أثر من انزعاج أو قلق . فلقد كان التحدى يبعث فى شجاعة لا أتمتع بها فى الظروف العادية . والظاهر أن الذى وجه الينا هذه الدعوة الغربية ، والمفاجئة ، حسب حساب السيارات التى تقلنا . فقد وجدت سيارة تنتظرنى على الباب ، لعلها سيارة وزير العدل المرحوم المستشار أحمد حسنى الذى كان بيته لا يبعد عن بيتى إلا امتارا .

ومضت بنا السيارة تشق طريقها فى شوارع القاهرة المتألقة بمصابيحها ، وقد خلت من المارة أو أوشكت ، ونحن - زميل وأنا - لا نجد عند انفسنا ميلا إلى حديث ، كأننا فى مأتم . فقد تبادلنا ، أول ما تلقينا ، السؤال الطبيعى : ماذا تظن وراء هذه الدعوة ؟ .

ثم ضربنا احساسا لاسداس ، فلما لم نهتد إلى رأى يمكن الاطمئنان اليه ، كففنا عن الكلام حتى وصلت السيارة إلى غايتها ، ورأيت الوزراء ينزلون من سياراتهم صامتين واجمين .. وقد بدا كل منهم فى معطفه الثقيل ، وخطواته البطيئة ، والتساؤل يبهظه ، كأنهم نقط سوداء تتحرك فى الظلام ، كأنها حبات تذروها الرياح إلى غير غاية ..

وكانت هناك رياح حقيقية طبيعية ، اذ كان قيام المبنى على شاطئ النيل داعيا إلى هبوب هواء بارد يلفح الوجوه ، فتطابقت الطبيعة مع السياسة .

● دهشة مضاعفة !

وسلام هذا المبنى ليست بالواسعة ، وليست بالمستقيمة .. فهى تدور فى ارباع ودوائر تشبه سلام اليخوت . ووجهنا الحراس إلى حجرة ، وجدناها اشبه ما تكون بالحجرة الخالية ، لولا أننا أحسنا بحركة فى جانب منها ، تكشف عن شخص طويل ، رشيق ،

وقف ليحيينا ، فعرفنا للتو أن مضيفنا هو « جمال سالم » . فكان ذلك سببا في مضاعفة الدهشة ، ففي مثل هذه الظروف الخطيرة التي تدعو الوزراء لترك بيوتهم ، أو قل محادعهم ، في هذه الساعة المتأخرة من الليل البارد ، يجب أن يكون مجلس قيادة الثورة كله مجتمعاً . فإن لم يفسر ذلك لسبب أو لآخر ، فلا بد أن يكون جمال عبد الناصر موجوداً في الموقع الذي يتقاطر عليه الوزراء ، فما الذي خرق القاعدة ؟ وأين هو « عبد الناصر » في هذه اللحظة ؟ هل أصابه مكروه ؟ وماذا عسى أن يكون هذا المكروه ؟ هل عزل ؟ أم قتل ، أم شرع في إصابته ؟ .

ولقد كانت الأيام السابقة على هذه الليلة حافلة بدواعي التوجس والتوقع ، وكان كل شيء فيها ممكناً . ولم يطل انتظارنا . فقد تكلم « جمال سالم » .. وعلى غير عادته ، تكلم بصوت هادئ لا انفعال فيه ، وفي جمل قصيرة ، خالية مما اعتاد « جمال سالم » أن ينحلي به أحاديثه من عبارات وتشبيهات تكشف عن قدرته في الحديث وتلويحه . وقال : « انني دعوتكم لاطلحكم على أننا قررنا - للأسف الشديد - تنحية (نخب) .. فانه لم يعد ممكناً احتمالاً ، ولا أمل في معالجته ، ولعلكم تذكرون جميعاً أننا ابرزناه ، وقدمناه على أنفسنا، حتى لم يعد أحد في مصر يعرف من قادة الثورة سواه . وقد تلقى ، لهذا السبب ، من الشعب تأييداً وحياً لا نهاية له . ولكن الرجل صدق أنه أهل لهذا الحب والتأييد ، وأنه هو الذي اكتسبه بجهد وعمله . وقد تركناه يسعد نفسه بهذا الاعتقاد تعويضاً له عن كونه من غير أعضاء مجلس القيادة . ولكن .. لقد التف حوله عدد ممن ينتمون إلى فئات معادية للثورة ، أو من أصحاب الميول الانتهازية ، فأحبوا أن يستغلوا هذا الاعتقاد عنده ، وأن يؤكدوا له انه قادر على الاستقلال عنا ، والاستئثار بالثورة . وقد احتملنا هذا التطور السيئ طويلاً ، وحاولنا - وخصوصاً عبد الناصر - لأني لا طاقة لي على هذه المحاولات .. محاولات التلطف والمجاملة والمداواة - حاولنا أن نبصره بسوء عاقبة هذا التطور ، فازداد اقتناعاً بقوته وضعفنا . وهنا تحركت الأحزاب القديمة وما خلفها . وخيل اليهم أن الفرصة قد أتتحت لهم ليطيحوا بالثورة ، فازدادوا تقرباً اليه ، ومدحاً فيه ، وازداد هو بعداً عنا وكرهاً لنا .. وقد كان من رأيي أن نحسم هذا الموقف ، ولكن اخواني - و« جمال » في مقدمتهم - كانوا يهتمونني بالتسرع والانفعال ، وأطالوا صبرهم حتى دخل « نخب » في دور خطير للغاية .. وهو دور النفاق .. يشترك معنا في اصدار قرار ما ، بعد المناقشة ، ثم يخرج ويعلن انه ضد

هذا القرار ، وانه مغلوب على أمره .. وانه وحده مع الحزبية ، ومع الحياة النيابية ، وضد اتخاذ أى اجراء ضد « الأحزاب » ، وزعماء الأحزاب . مع انه ، فى أحوال كثيرة ، يكون اشد منا تنديدا بهذه الأحزاب وزعمائها ، وبالماضى وعبوبه .. ولأن الأمر عنده كله لا يتجاوز شخصه ، فهو حائر ، لا يدري أىكون مع الاجراءات الثورية التى تبهره وتعجبه ، باعتبار انها اجراءات ، يدل الأقدام عليها على الشجاعة ، وعلى الرغبة فى التجديد الكامل ... أم يكون مع الأحزاب وما تنادى به من وجوب عودتنا إلى الثكنات ، وإعادة الأحزاب إلى مكانها القديم ، وتصفية الثورة ؟ . . .

• شىء مؤسف !

ثم سكت « جمال سالم » ، وقد بدا على وجهه من علائم الألم ما تأثر به الحضور . ثم ختم كلامه بتلوينة خفيفة من يده ، وكأنه يقول : « لم يكن لدينا مع هذا الموقف حيلة » .

وساد المكان وجوم شديد ، وسمع فى الخارج صوت الريح يشند ، واهتزت الأشجار التى وصلت بأطرافها العليا إلى نوافذ الحجرة التى كنا نجلس فيها . ولم يتكلم احد .. ولما لم يصدر تعليق منا جميعا ، وقف « جمال سالم » بقماته المشوكة ، ومد يده المليئة بالحويوة ، فصافحنا ونحن لا ندري أكان يعزينا ، أم كان يتلقى منا العزاء !! .

وفى هذه اللحظة سمعت صوت احد زملاء يقول : « على كل حال هذا شىء مؤسف » . فأجاب « جمال سالم » على الفور : « بلا شك » .



وهبطنا درجات السلم المتتوى ، وقد ازداد إحساسنا بالبرد ، وأخذ كل منا مكانه فى السيارة ، دون أن نجد عنده النشاط ، أو الاستعداد ، ليقول حرفا واحدا ، وعندما اترقنا ، وبدلا من أن يقول كل منا التحية التقليدية .. « تصبح على خير » .. قال : « ربنا يستر .. » .

وذهبت إلى فراشى ، وقد أصبحت رأسى مسرحا لحركة عنيفة من الخواطر والتأملات حتى مطلع الصباح . فتمت ساعة أو بعض ساعة ، ثم قمت مليئا بالنشاط العصبي ، منتظرا يوما حافلا ..

ولكن .. عندما طلع النهار ، خيل الى أنى رأيت على ضوئه حقائق جديدة ، عجت كيف غابت عنى وعنا جميعا . فقد ادركت ، بعد هذا التأمل ، فى الليل الهادئ ، بعيدا عن جلبة المناقشة ، وضجيج الحياة اليومية وتدافعها ، ان ما حدث فى الليلة الماضية ، وما هو موشك على الوقوع على أثر تلك الليلة ، والقرار الذى اتخذ فيها - كان طبيعيا - وأن غير الطبيعى هو الا يقع ما وقع . كل ما فى الأمر اننا لم نكن ندرى طبيعة العلاقة بين « نجيب » ، وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة . ولكن حينما تعرف هذه الحقائق على حقيقتها ، ثم بعد أن نحيط بمقدار الجاذبية التى ظهر أن الرئيس محمد نجيب كان يتمتع بها عند افراد الشعب ، يصبح ذلك الشقاق الذى وقع ، هو التطور المنطقى للأحداث ، ولم تكن ثمة قوة تستطيع أن تمنعه .

• بطل شعبى ..

إن المسئول الأول عن هذه الأزمة الخطيرة التى استمرت من اوائل سنة ١٩٥٤ ، هو أن محمد نجيب بدا بطلا شعبيا كاملا ، من اليوم الأول الذى ظهر فيه للناس . لم يحتاج إلى زمن لتكامل شخصيته كزعيم . ولا شك ان نصيبا كبيرا من هذا السحر ، يرجع إلى نجاح الثورة السريع ، وطرده الملك بلا تعثر ولا تردد ، وإخلاء القوات الأجنبية إلى السكون والصمت ، واذعان الملك لارادة الثورة ، وخروجه من مصر . كل هذه الأحداث ، أثارت فى المصريين الاحساس بالكرامة . فهؤلاء حفنة من أبناء مصر ، استطاعوا أن يدبروا لبلدهم فأحسنوا التدبير ، فطردوا اخر ملك من عائلة غير مصرية ، فتحت حياتها بصفحات مليحة بالعار . وكان القول الشائع ان المصريين لا يحسنون عملا ، خصوصا حينما يقع هذا العمل تحديا للأجانب ، ولا سيما اذا كان هذا الأجنبى بريطانيا أو امريكا . فهذه الثورة جاءت شهادة للمصريين بأنهم يحسنون كتمان ما يجب كتمان ، ويحسنون التنظيم والتففيذ ، ويليقون بالمهام الكبرى . وكان « محمد نجيب » ، هو رأس هذه الجماعة ، فما أحراره وأجدره بالحب والتكريم .. وبالأعجاب والاعزاز .

ولكن « محمد نجيب » كان له نصيبه ، غير المنكور ، فى خلق هذه الشخصية التى تمتع بها ، وظهر على مسرح الأحداث وهو يرتدى طيلسانها . فهو وجه يتمتع بكل جمال الرجولة ، فضلا عن لطف أخاذ ، وسحر خلاب ، وبساطة تلقائية ، لا تكلف فيها

ولا تصنع ، مع سرعة في الحركة وكثرة في التنقل ، وتآلف للناس ، لم تشهد الزعامات المصرية له نظيرا .

وهذا كله جعل لمحمد نجيب شخصية مستقلة عن مجلس قيادة الثورة ، حتى في أحلك الظروف التي كثرت فيها الشكوى من الأحوال في مصر - ولا سيما الاقتصادية من هذه الأحوال - بقي « محمد نجيب » محبوبا ، كأنه لا يد له فيما يجرى .

ولكن هذه « الجاذبية » هي نفسها التي جنت عليه آخر الأمر . فقد أفسدت العلاقة بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة الشبان ، وكادت تودى بالثورة كلها ، وهي لا تزال في سنتها الأوليين . فقد جعلته قوة لا بد أن يحسب لها حساب ، أى حساب . ولكن هذه القوة كانت تموزها الاداة التي تجعل هذه القوة حقيقة لا مظهرها . فقد كانت السلطة في يد « جمال عبد الناصر » وإخوانه الشبان . ومن هنا ، تمتع « نجيب » بمظهر قوى .. وتمتع جمال بالقوة فعلا . وحينما بدأ الصراع بينهما ، رجحت كفة « نجيب » في الجولة الأولى ، ذلك لأن الناس كانت معه بقلوبها ، ولكن التأييد القلبي قصير العمر مالم يسندته التنظيم الفعال ، ولم يكن خلف « نجيب » تنظيم على أية صورة .

وبعض الذين تمتعوا ، في التاريخ ، بتأييد قطاعات كبيرة من أهل بلادهم ، اخفوا هذا التأييد ، أو قللوا من مظاهره حتى يتيسر لهم جمع القوة اللازمة للوصول إلى السلطة .. فلقد روى « كمال اتاتورك » ، أنه أمر أن يصحب ولى عهد سلطان تركيا في رحلة إلى الخارج ، فلما قابل ولى العهد في ديوانه الخاص بالقطار المسافر من استانبول إلى أوروبا ، رآه رجلا مغمض العينين ، يلقف انفاسه بضعوبة ، ولا يكاد يحرك أصبعه . فلما تحرك القطار ، وترك الحدود التركية ، عاد « كمال اتاتورك » إلى ديوان ولى العهد ، فرأى رجلا ممشوق القامة عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، ينظر من النافذة إلى الحقول التي كان يحترقها ، فحيل إلى « أتاتورك » أنه أخطأ الديوان فهم بتركه . لولا أن الرجل الذى كان واقفا فيه استوقفه . ثم تبين أنه ولى العهد الذى كان منذ لحظات شيخا هرمًا . وبتمازض ، ويتظاهر بالضعف أمام جواسيس أبيه « السلطان » حتى لا يقضى عليه بالسهم ، أو بوسيلة أخرى من وسائل القتل الخفية . فلما أحس أنه بعد عن رقابة أبيه ، انتفض رجلا مليئا بالقوة ، وبالحوية ..!

ولو كان لمحمد نجيب حظ أكثر من الدهاء السياسى ، لقلل من مظاهر وصور التفاف

الشعب جوله ، ولحاول أن يتحاشى أسباب التصادم مع زملائه الشبان ، حتى يصل الطرفان إلى مرحلة التوافق البلى كانت فى حاجة إلى صبر ، وجهد ، ووقت .

وأشهد - للحقيقة ، والأمانة التاريخية - أنى سمعت « عبد الناصر » فى منزله بمنشية البكرى ، قبل أن يهدم هذا المنزل ، ويبنى على انقاضه البيت الذى عاش فيه « عبد الناصر » بعد ذلك ، سمعته يتحدث بسرور وارتياح عظيمين عن شدة تعلق الناس بمحمد نجيب ، وكانت قد راجت فى تلك الأيام أغنية شعبية تقارن بين طهارة محمد نجيب ورائحة خبث الملك فاروق . فأخذ « عبد الناصر » يردد الفاظ الأغنية وهو يضحك ، ويعلق على ذلك واشباهه من مظاهر التفاف الشعب حول « محمد نجيب » بقوله : « لاحظ أن نجيب استطاع أن ينسى الناس (النحاس) وأنا اعرف مدى افتتانهم به . ولا تنس أن (النحاس) بنى مكائته عند المصريين على مدى ثلاثين عاما ، و(نجيب) لم يمض على ميلاد شهرته إلا أقل من سنتين » .

* * *

كما أشهد اننى سمعت أكثر من عضو من أعضاء مجلس القيادة يقولون بأنهم يحبونه أكثر مما يحبون آباءهم . ولقد كان شيئا ممتعا أن ترى نجيب عائدا من الخارج إلى احدى جلسات المؤتمر المشترك الذى يضم الوزراء وأعضاء مجلس القيادة . فقد كان أعضاء هذا المؤتمر من الضباط يستقبلونه بالحفاوة والترحاب ، ويضحكون من قلوبهم لتعليقاته . ولكن كل هذا انتهى وحل محله الشك المتبادل من الجانبين ، وسوء الظن ، والتوجس . ولقد سمعت « عبد الناصر » يشكو من ثلاثة التصقوا بمحمد نجيب و(تخنوا ودنه) - أى زادوا ثقته بنفسه . واعتداده بها - وهم : سليمان حافظ - الذى كان وزيراً للداخلية ونائبا لرئيس مجلس الوزراء - ومحمود الديب - وهو لواء فى الشرطة يمت إلى الرئيس محمد نجيب بصلة قرابة أو صداقة ، وانطون عساف - وهو صحفى مصرى من أصل لبنانى . وسليمان حافظ برىء مما نسب اليه ، فقد كان يعمل طوال الوقت على أساس أن الرئيس محمد نجيب من جهة ، وجمال عبد الناصر من جهة أخرى ، جماعة واحدة . تختلف فيما بينها فى التفصيلات ، ولكن تتحد فى الأهداف . وقد تحدثت معه عند ظهور أول بوادر الانشقاق . فقال : « وأنى لنا أن نعرف أن العسكريين كانوا جبهتين ، وكل الدلائل تؤكد انهم كقبضة اليد ؟! » ..

ولقد عجبت اذ سمعت أن انطون عساف ، قد اصبح شخصية سياسية ذات خطر ، فقد زاملته في معتقل الزيتون خلال الحرب العالمية الثانية ، ضمن مجموعة من اللبنانيين المتمصرين ذوى الميول النازية . ولم نكن نأخذه ولا نأخذ كلامه مأخذ الجد في تلك الفترة . ويروى الرئيس نجيب كيف وقع اعتقاله في كتابه (كلمتى للتاريخ) فيقول : ان اليوزباشى (النقيب) كمال رفعت ، ومعه اليوزباشى داوود عويس ، طرقا باب داره بعد منتصف الليل وأدخلاه في سيارة ، مضت به وبهما إلى مبنى سلاح المدفعية بالملاظة . حيث ترك إلى ظهر اليوم التالى . ثم جاءت سيارة (جيب) . وبها اليوزباشى (حسن التهامى) ومعه خمسة من الضباط . ودارت به السيارة فى الصحراء دورة ثم عاد إلى منزله .

وفى مساء اليوم التالى ٢٧ من فبراير سنة ١٩٥٤ ، اصدر مجلس قيادة الثورة ، بيانا جاء فيه : « انه حفاظا على وحدة الأمة ، يعلن مجلس قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهورية . وقد وافق سيادته على ذلك » .

★ ★ ★

وفى ذات يوم .. كنت اتحدث مع « عبد الناصر » عن بعض اجداث الماضى ، فقال : « لقد اقترح اعضاء مجلس قيادة الثورة فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٥٤ اعتقال (نجيب) ، لكننى عارضت ذلك بشدة . وقلت لهم إن (نجيب) يمثل للناس الان معانى احسن مما تمثل نحن لهم ، فهو رمز عودة الحياة النيابية ، واطلاق سراح المعتقلين ، وترك الحكم للمدنيين ، واستئناف الأحزاب القديمة نشاطها . أما نحن .. فاننا نمثل القيود والحكم العسكرى . فلا بد من فترة تهدأ فيها العاصفة ، ويظهر للناس أننا نمثل قيما جديدة أعلى وأسمى من قيم العهد الذى جئنا نزيله . ولكنهم لم يأخذوا برأى . فكان ماكان . ولما رأيت وجوب اعتقال نجيب فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ لأنه فقد كل ركائزه ، ولأن وجوده فى قصر عابدين داع إلى البلبلة لكثرة ما يردده لزوارة - ولا سيما من السودانيين - من شكاوى وانتقادات ، فهو ازعاج لا مبرر له ، وان كان لا يزيد على أن يكون ازعاجا . وقد كان باقى اعضاء مجلس قيادة الثورة ، أو أكثرهم ، يعتبرون ان اخراج نجيب من رئاسة الجمهورية ، واعتقاله ، سيجدد الاهتمام به ، وقد يدفع بعض الساخطين هنا أو هناك إلى الاقدام على عمل محدود ولكنه طائش ، ويكلفنا بعض الجهد بغير داع .. وتغلبت نظريتى ، وتم عزله ، بأقل الجهد من جهة ، وبلا أى أثر يذكر من جهة أخرى » .

• لواء .. من اللواء ؟!

ولقد أصبح الضباط الشبان ، منذ وقع الشقاق بينهم وبين الرئيس نجيب ، شديدي الحساسية لكل ما يتصل بنجيب ، ولم يعودوا يطبقون سماع حتى مجرد اسمه . وقد حدث ونحن نتناقش في احد اجتماعات المؤتمر المشترك الذى يضم الوزراء العسكريين والمدنيين أن قلت عبارة لا أذكرها إلا بالضبط ، ولكننى اذكر أننى استخدمت كلمة (لواء) وأنا أقول : « ان كل حركة تحتاج إلى وعاء يضم أفكارها ، ويحتوى على رجالها ، ولا بد لها من (لواء) يرمز لها ويشير إليها » . فانتبه « عبد الناصر » قائلاً : « لواء ؟ من اللواء ؟ .. » .

فقلت له : « لا اعنى (لواء) فى الجيش ، انما اعنى علما ، راية ، رمزا . » فقال ، وقد استراح : « اه مفهوم .. » .

ثم حدث أن اجتمع نفس المؤتمر المشترك فى مقر مجلس الأمة ، ولم يكن من المنتظر حضور « نجيب » اليه ، لأن « عبد الناصر » ، كان لا يزال يشغل منصب رئيس الوزراء الذى تولاه فى فترة الخلاف مع « نجيب » واستقالته من منصب « رئيس الجمهورية » . فقال « عبد الناصر » ، بينا الوجوم والتجهم يعلوان وجهه : « هل نقتله لكم ونستريح ؟ » ولم يكذب هذه العبارة ، حتى دخل « نجيب » ، وأعلن أنه قد سامح كل الذين اعتدوا عليه ، وانه غفر جميع الأعمال التى وقعت فى حقه .

ثم انعقد مجلس الوزراء فى مقره المعتاد بشارع مجلس الأمة برئاسة محمد نجيب . وكان قد اتفق على اعداد بيان يتلوه « صلاح سالم » من الاذاعة اعتذاراً عما صدر فى حق « نجيب » خلال فترة الخلاف . وكان « صلاح » قد أطلق لسانه فى « محمد نجيب » بعبارات شديدة الألفاظ ، فصعدت إلى مكتبى بنفسي المبني ، وكان يعلو قاعة المجلس ، وقضيت فترة اكتب فيها كلاماً أحاول فيه ألا أمس أحداً ، ولا أجرح احداً ، ولا أنكأ جرحاً . وبعد طول الجهد ، كتبت بضعة اسطر ، قرأتها على عجل فلم أفهم منها - وأنا كاتبها - شيئاً ذا معنى ، فلما استبطأونى ، هبطت بالورقة وتلوتها على المجتمعين . ولقرط دهشتى ، وجدت الجميع معجبين بها ، راضين عنها ، وقد هنأنى بعضهم . وشكرنى كل من « صلاح سالم » .. و« نجيب » عليها .

ولقد استمعت إلى تلك الكلمة وهى تذاع ، فلم أزد فهمها لها ، ولكنها حققت غرضها . وفى السياسة .. ليس مطلوباً دائماً أن نقول أشياء تفهم ، بل يقصد فى بعض الأحيان ، أن يقال أشياء (تسد الخانة) .

وقد أقام (عبد الحكيم عامر) بعد ذلك حفلة كبرى بنادى الضباط بالزمالك ابتهاجاً بالوفاق المرجو ، وكان أكثر المشتركين فى الحفلة يشعرون فى أعماقهم بأن الحفلة يظللها شعور بالكآبة والأحاساس بالزيف .

ثم أقام أحد الوزراء المدنيين حفلة أخرى ، وفيها ، حدثنا الدكتور عبد الرزاق السنهورى انه وضع مشروع قانون ، لحسم ما قد يجد من منازعات واختلافات بين الرئيس نجيب من جهة ، والضباط السبان - وعلى رأسهم « عبد الناصر » - من جهة أخرى ، وقد كان تكوين هذه اللجنة من ستة أعضاء : واثنين يقترحهما رئيس الجمهورية - أى « نجيب » - اثنين يقترحهما مجلس القيادة ، وواحد تختاره الجمعية العمومية لمحكمة النقض ، وواحد تختاره الجمعية العمومية لمجلس الدولة . فقلت لأستاذى وأستاذ القانونيين - الدكتور السنهورى : « إن القانون لا يحترم فى دنيا السياسة ، كما لا يحترم فى دنيا الحرب ، والاتفاق الذى تقترحه أشبه شئاً بلجنة تحكم تقترح بين الأرض والزلازل ، أو بينها وبين العواصف ، أو كمن يدخل فى حلبة صراع بين رجلين بين أسنان كل منهما سكين قاطع يود أن يبتز به رأس خصمه .. وصاحب القانون ينلو عليهما من نصوص قانونه ما طاب له ، ولا أحد يلتفت إليه ، وقد تصيبه من سكين أحدهما ضربة تقضى عليه » .

فاحمر وجه أستاذى ، وسكت ، وطوى الورقة .

★ ★ ★

وفى هذه الفترة العصبية وصل المرحوم الملك سعود ، وكنت قد سافرت إلى مكة لمصاحبتة على رأس بعثة الشرف ، فى أولى زيارات ملك سعودى للحكومة الثورية . وكان الملك عبد العزيز آل سعود قد توفى منذ بضعة أشهر . وقد شاءت الظروف أن يكون له دور فى أزمة الحكم بمصر . وفى ابان الأزمة ، قضت الظروف أن يسافر الملك إلى الأسكندرية ، وكان البرنامج الموضوع لهذه الرحلة ، أن يكون رئيس الجمهورية

في صحبته ، في حين أن القواعد المرعية ، تقضى بأن رئيس الدولة يستقبل الضيف ويودعه . ويدع صحبته في باقي التنقلات لرئيس الوفد المرافق ، إلا التنقلات ذات الدلالة السياسية ، كحضور جلسة للبرلمان ، أو حضور مناورة عسكرية . ولذلك فلم يكن ثمة ما يدعو الرئيس نجيب لمصاحبة الملك ، والبلد يعلى ، والأحداث تتزاحم . ولكنه سافر في قطار الصباح ، وكانت الصحف قد نشرت حديثاً معزواً إلى الرئيس نجيب مع (مصطفى النحاس باشا) ، أظهرت فيه الرئيس في ثوب المتلطف للنحاس ، والمتبرئ من أعمال الثورة .. وأن ميوله مع الأحزاب القديمة .. وقد بدا على الرئيس نجيب انشغال البال بأثر هذا الحديث في نفوس الناس ، وخشى أن يتهم بأنه ضد قرارات الثورة لاصلاح أسس السياسة في مصر ، وتطهيرها من الفساد . وقد سألتني : « أعلن في خطبة أنه لا يود عودة الأحزاب القديمة والفاصلة ، بل عودة أحزاب جلهدة صالحة ؟ » . فقلت صادقاً : « لا تقلق على الأمر كلية . فالأحداث وصلت إلى درجة لم تعد التصريحات والتصريحات المضادة تلعب فيها شأنًا ذا قيمة . لقد انتقل الصراع من ميدان الرأي العام إلى ثكنات الجيش » .

ولما وصلنا إلى الأسكندرية ، واتجه موكبنا إلى « ألى قير » على الكورنيش ، استأذن نجيب من الملك ، تركه عند ناد للضباط على البحر ، ودعيت على عجل لأن أجلس إلى يسار الملك . ولما عدنا في المساء لم يكن الرئيس معنا . فقد عاد وحده بطائرة . وتناولنا العشاء في « هليوبوليس بالاس » بدعوة من تاجر سعودى ، لعل اسمه « البطيشى » .

ولقد ادهشنى أن الملك - بعد يوم شاق كثير التنقلات ، ملئ بالمفاجآت - كان صافى المزاج ، يروى بعض الطرائف ، ويضحك عليها .

وبعد منتصف الليل - في نحو الساعة الواحدة صباحاً ، ذهبنا إلى قصر الطاهرة ، فاستأذنت من الملك في أن استريح قليلاً .. واخذت مقعداً وجلست في شرفة مظلة على حديقة القصر ، التي بدت فيها أشجارها الطويلة الأنيقة ، وكأنها اشباح تبعث في قلوبنا الخوف والفرع . فقد ترامت إلينا أخبار بواذر صراع عسكرى قد يغرق البلد كلها في بحر من الدماء . وفجأة لحت الرئيس نجيب يقطع البهو في الدور الأول مسرعاً ، بخطى لست أدرى لماذا بعثت في نفسى شعوراً بالقلق ، فقد خيل إلى أنها في تعاقبها وسرعتها ، كأنها تروى نبأ كل ما يجرى وما سيجرى .

وجاء « عبد الناصر » - وعلمت فيما بعد أن « عبد الحكيم عامر » كان معه ، ولكننى لم ألحظ دخوله مع جمال - ثم جاء « السنهورى » فشعرت بعدم ارتياح لمشاركته المباشرة والصريحة فى شئون السياسة .. الأمر الذى قد لا يتفق تماما مع مركزه على رأس أعلى محاكم الدولة الادارية .

وانفض الاجتماع على مصالحة جديدة .

ومضيت إلى بيتى ، وقلبى مثقل بالهم .. وفى الصباح ودعنا الملك فى المطار ، وكان كل من معى فى الوفد المرافق لى والمصاحب للملك ، يلح على أن نصحب الملك فى العودة . ولكن أهل الفتوى فى دنيا التشريعات ، قالوا ان الملك ليس عائدا لوطنه .. بل إلى الكويت . ومن هنا .. فلا يجوز للوفد المصرى أن يرافقه ، لأنه بعمله هذا ، انما يفرض ضيافته على دولة لم تستضفه ، وربما لا تود أن تستضيفه .

وسلمت على الملك مودعا ، وتوجهت إلى مكتبى ، لكننى قبل أن اصل اليه ، علمت أن الرئيس نجيب أغمى عليه ، وسمعت تعليقا على إغماء الرئيس ، باعتباره احدى حيل الرئيس لاستدرا العطف عليه . واجتمعنا فى نفس اليوم - أو فى اليوم التالى لست أذكر جيدا - فى بيت « محمد نجيب » الصغير فى حلمية الزيتون ، على مائدة بسيطة ، أشبه شئ بمائدة فى بيت موظف متوسط . وقد سبق أن سمعت تعليقا من « عبد الناصر » على بيت نجيب المتواضع ، وكان « عبد الناصر » يعتبر هذا الأسراف فى التواضع ، مبالغة لا معنى لها ، وقد أحسست من هذا التعليق ، أنه يعتبر هذا التقشف لونا من « التهريج » .. أو « التظاهر » . فقلت له : « الحق أننا فى أشد الحاجة إلى هذا (التهريج) .. لو سلمنا ، جدلا ، انه كذلك » . فهز « عبد الناصر » كتفيه .. ولم يعقب ..

وفيمنا نحن نتناول الغداء .. وصلت انباء ذلك الاضراب المحكم الذى اعلنه اتحاد عمال النقل ، والذى شل كل حركة فى البلد ، واتعب الناس ، وعطل مصالحهم . فصدرت من السيد وزير العدل - المرحوم أحمد حسنى - عبارة ، وجهها إلى المرحوم « جمال سالم » ، قائلا : « الناس تعبت من الاضراب .. ويحسن أن ترفعوه » . فصرخ جمال سالم : « ومالنا نحن والاضراب .. الاضراب اضراب العمال .. كل شئ ينسب الينا ويلصق فيما ؟! » .

ثم جاءت انباء زحف مظاهرة إلى دار مجلس الدولة ، وأن المتظاهرين أحاطوا بالدار ويمنعون من فيها من الخروج وعلى رأسهم رئيس المجلس « عبد الرزاق السنهورى » ، فاقترحت أن يذهب في الحال عضو من أعضاء مجلس القيادة يكون معروفا للجماهير ليفض المظاهرة بسلام ، واقترحت أن يندب « صلاح سالم » لهذه المهمة التي قبلها بارتياح . وقد سمعنا - بعد ان غادر صلاح سالم المنزل - أن المظاهرة يقودها ضابط مخبرات يدعى « حسين عرفة » ، وأن السبب في هذه المظاهرة ، وفي اتجاه المتظاهرين إلى مجلس الدولة ، هو نبأ نشر في جريدة الأخبار بأن الجمعية العمومية لمجلس الدولة انعقدت للتظمر في الشؤون العامة ، وتسربت إلى الناس اشاعة أن المجلس سيصدر قرارات تؤيد عودة الحياة النيابية ، ورجوع الضباط إلى ثكناتهم .

ولقد كذب كثيرون ممن كتبوا عن هذه الواقعة ، فيما بعد ، هذه الاشاعة ، وقالوا ان مصدر هذه الاشاعة هو مجلس قيادة الثورة ، ليتخذ منها ذريعة لضرب السنهورى ، والاعتداء على مجلس الدولة كصورة من صور التأديب للقضاء والقضاء ، والمؤسسات التي قد تقف في وجه الثورة .

وقد أورد الرئيس نجيب في كتابه (كلمتى للتاريخ) : « أن مجلس الدولة انعقد فعلا ، واصدر قرارا بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ و ٢٥ مارس » ، وقال بالحرف الواحد : « وقد اعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرزاق السنهورى وعلى باقى الأعضاء بالضرب الشديد ، ومزقوا القرار الذى اتخذ .. » .

وبهذا الحادث مضى عهد حافل من عهود الثورة .

الفصل الثالث

في ذائفة
ولطائف
في مجلس الوزراء

في السابغ من سبتمبر ١٩٥٢ .. بعد أن لقيني « سليمان حافظ » على مقربة من مبنى إدارة قضايا الحكومة . وبعد أن علمت منه أن تشكيل وزارة جديدة سيتم ظهر هذا اليوم ، وأنتى مدعو للاشتراك فيها ، وأنه اعتذر عن أن يرأسها ، بعد أن رشحته ، في الخامس من سبتمبر ١٩٥٢ لهذه الرئاسة للضباط الشبان الذين قاموا بالثورة ، وبعد أن قبلوا هذا الترشيح ، وفأخوه فيه فاعتذر عن قبوله ، ورشح بدلا منه الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، صديقه .. وزميله ، منذ كانا تلميذين في مدرسة رأس التين الثانوية - ثم انتهى الأمر ، في صباح يوم ٧ سبتمبر في سنة ١٩٥٢ ، بأن تقرر أن يتولى اللواء محمد نجيب رئاسة الوزارة . فذهبت إلى مبنى قيادة الثورة في كوبرى القبة بعد أن انتهت عملية الترشيح ، والاعتذار ، والقبول . وانتقلت الوزارة الجديدة إلى سراى عابدين لتجرى مراسم التشكيل من اعداد الوثائق ، واداء اليمين . وقد تم ذلك في المساء المتأخر . فذهبنا إلى سراى عابدين في عربتى الصغرة ، « الهيلمان » وأنا مهك القوى ، شاعر بالتعب .. وبالسأم .. وبشئ من الضيق . وقد كنت مندهشا ، غاية الاندهاش ، من هذه الحالة التى شملتني وكان من الطبيعى أن أكون سعيدا مبتهجا .. سواء اذا نظرت إلى الأمر من جانب شخصى ، أو من جانب عام .

فمن الجانب الشخصى .. ها أنا أدعى إلى الاشتراك في الوزارة .. والوصول إلى منصب الوزارة في مصر ، وفي العالم كله ، في القديم والحديث هو مرتبة من مراتب النجاح للشخص ، وهى خطوة نحو تحقيق اهداف هذا الشخص العامة - اذا كان صاحب مبادئ . واهدافه الذاتية - اذا كان طامعا في الجاه ، مؤملا في أن يجنى من وراء منصب الوزارة ، المال ، والنفوذ ، لنفسه ولذويه .. ولأنصاره .. ولمن يحب !.

★ ★ ★

على أن الوزارة التى دعيت للاشتراك فيها ، هى أولى الوزارات التى يمكن أن تحول الثورة التى قامت في مصر - قبل أقل من شهرين من تأليها - من آمال ، وأحلام ، إلى حقائق ، وواقع . فهى ليست مجرد وزارة . وإنما هى « نقلة » في تاريخ بلدى ، لن تلبث أن تكون « نقلة » في تاريخ العرب ، وربما خطوة في تاريخ الإنسانية كلها .. باعتبار أن العالم مترابط ، وأن ما يحدث في جانب منه .. لا يلبث أن يترك آثاره ، وصداه ، في جوانب الدنيا الأخرى

مهما نأت عنه . هذا كله .. في ملاحظة أنى لم أكن مجرد سياسى يدعى للاشتراك في وزارة ذات مهام شاقة بل إن الظروف اكرمتني وجعلت لى دورا في تأليف هذه الوزارة .. وفي اختيار اشخاصها ، وفي توجيه الأمور المتعلقة بها ، والمتفرعة عنها .

فلماذا ، اذن ، هذا الشعور بالانقباض وخيبة الأمل ، والملل ؟.

ولعل مساومات الصباح جعلت نظرتى للأمور ، متسمة بالشاؤم . فها نحن أولاء في أعقاب ثورة ضخمة . ولكننا ، مع ذلك ، حينما نتكلم في تأليف وزارة تبدو المطامع الشخصية والحزبية .. حينما ندعو الناس للوزارة ، لا نجد مظهرا للمبادئ ، وحينما نتهيا لتشكيل حكومة وطنية ، نرانا مضطرين إلى جمع عدد من الناس من هنا وهناك .. دون أن تربطهم علاقة من رأى ، ولا صلة من جهاد سابق ، بل دون أن يجلس بعضهم إلى بعض ولو لمدة نصف ساعة ، يتساءلون : « ماذا سيفعلون » . ثم يجيبون على هذا السؤال .. ولو بكلمتين .

إن بعض الوزراء في هذه الوزارة ، لم يكن يعرف أسماء بقية أعضائها !! بل لعله لم يسمع بها من قبل . وبعضهم لو قيل له - قبل دخوله الوزارة بنصف ساعة - أنه سيشتغل بالسياسة ، لاستلقى على قفاه من الضحك !! ومنهم من لو قيل له أنه سيشارك - مع بعض الذين زاملهم في الوزارة - في رحلة راحة واستجمام ، لرفض أن يسير معهم في طريق . وقد كان من الوزراء من دخل هذه الوزارة ، لأن صديقا ذا نفوذ رشحه لها .. كل هذه المعاني جالت في خاطرى .. ربما بوضوح أقل ، ولكنها لا بد وأن تكون قد عبرت إلى وجدانى فألقت فيه غير قليل من القتامة .

★ ★ ★

دخلنا سراى عابدين ، بملابسنا العادية . وكنت ، على وجه خاص . لم أغبر نياي منذ الصباح ، ولم استرح ولو لبضعة دقائق . وتناولت طعاما خفيفا عند الظهيرة ، ولم أحصل على نصيب من النوم بعد الظهر - كعادتى - يعيننى على مواصلة النشاط حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، كما حدث ، ومن هنا ، فأننى حينما دعيت إلى « حلف اليمين » تصورت أن لو أن الملك المعزول « فاروق » استطاع أن يخترق الحجب . وأن يرانا - ويرانى أنا بصفة خاصة - في « سترة بيضاء » تننى قماشها وترهل ، لطول ما جلست وسرت بها نحو خمس عشرة ساعة كاملة .. دون انقطاع ، لفجع . اذ أصبح « القصر الملكى المقدس »

يستقبل وزراء في ثياب كئيبة . وهو الذى لم ير سوى وزراء فى ملابس (الرديحوت) والنساء فى أجمل ثياب السهرة . بل لعل خدام القصر ، فى هذه اللحظة ، كانوا أكثر أناقة منا . وأحق منا بالوزارة .. اذا قيس الأمر بالثياب ، وبالمظهر !!.

★ ★ ★

انتشر زملائى الوزراء فى قاعات القصر ، يتجاذبون أطراف الحديث .. وتركوا أكتب خطاب تأليف الوزارة إلى « مجلس الوصاية » الذى كان مكونا من أحد الأمراء - سمو الأمير محمد عبد المنعم - ومن أحد كبار الساسة فى العهد السابق للثورة - الدكتور محمد بهى الدين بركات (باشا) الأستاذ الأسبق بكلية الحقوق ، ثم رئيس مجلس النواب ، ورئيس ديوان المحاسبة ، وواحد من أغنى أغنياء مصر - وآخر ضابط سابق بالجيش ، لم يبلغ فى سلم رتبة أكثر من رتبة العقيد (القائمقام) - وهو السيد محمد رشاد مهنا - وقد كان هناك إلى جانب خطاب تأليف الوزارة المعبر عن سياستها ، وثائق أخرى تعد ، وتجهز ، صيرت على إعدادها ، ثم أدينا اليمين ، وتلقينا التهاني وانصرفت إلى بيتى وقد أوشك النهار على الطلوع ، بينما رأسى يكاد ينفجر من التعب الجسماني ، والجوع ، والتوتر العصبي ، وعدم الرضا .. وعشنا حاولت النوم فى تلك الليلة حتى كاد الفجر أن يشرق . فغفوت على أريكة ساعة أو بعض ساعة ، استقبلت بعدها يوما .. بل أياما مشحونة بالحركة . وبالكلام وبالأحاديث ، والمقابلات ، وبالرجاءات . وبالانتقادات .. الخ .

★ ★ ★

واخيرا .. انعقد مجلس الوزراء برئاسة اللواء محمد نجيب ..

وقد كانت جلسات مجلس الوزراء فى أول الأمر ، هادئة .. ليس فيها ما يستحق أن يذكر . فلأمناقشات حادة ، ولا خلافات عنيفة . وقد أضفى عليها الرئيس محمد نجيب غير قليل من طيبته ، وإنسانيته ، ولطفه ، ولا زلت أذكره « وغلبيته » إما فى فمه .. وإما بين يديه يحشوه بالدخان وهو يتكلم ثم يتصرف بعد قليل من بداية الجلسة ، وعصاه وعدد كبير من الكتب ، والصحف والمجلات تحت إبطه . وقد كان من حظى أن أجلس على الطرف

الآخر من طاوله الاجتماعات في المجلس . اذ أنى زميل لى كان يعمل فى سراى عابدين ، قبل الثورة .. واستمر فيه بعدها - أنى إلا أن يضعنى فى ذيل الوزارة . فقبلت دون مراجعة .. لأن التقدم ، والتأخر « البروتوكول » لم يشغلنى ولو للحظة . وكان من نصيبى أن أحدد للسادة الوزراء الراغبين فى الكلام ، دورهم فى الكلام . ولما كنت قائما بأعمال (الإعلام) ، لأن « الاذاعة » اسندت الى ، فقد كان من واجبى أن ألخص ما يجرى فى المجلس من مداولات ، وأن أذيع ما انتهى اليه من قرارات .

وعلى الرغم من هدوء جلسات مجلس الوزراء ، إلا انها كانت طويلة طولا لم يعهده مجلس وزراء ، لا فى مصر ، ولا فى غيرها !! فقد كانت تبدأ الساعة العاشرة صباحا ، أو الحادية عشرة ، وتستمر حتى ما بعد منتصف الليل . وقد عبرت إحدى الصور الكاريكاتورية عن هذه الظاهرة الجديدة . فصورت أحد الوزراء صاعدا درجات سلم منزله ، وفى يده حذاءه حتى لا يوقظ زوجته فتعرف فى أية ساعة متأخرة عاد إلى بيته .. كأنه كان فى سهرة محرمة !!.

وقد ترتب على هذه الجلسات الطويلة أن عددا من الوزراء كان يستغرق فى النوم أثناءها !! وكان المرحوم اسماعيل القبانى وزير المعارف (التربية والتعليم) لا ينام فقط .. وإنما يسمع له « شخير » عال .. وهذا لا يغض فى أنه كان عالما فاضلا ، ومواطننا شجاعا .. يدافع عن رأيه وكرامته بلا هوادة .. وقد كان الرئيس يحتاج فى بعض الأحيان إلى إيقاف الوزراء من نومهم ، ليأخذ آراءهم فى المسائل المعروضة .. ولهذا أصبح من فكاهات المجلس المتداولة ، عبارة قتلها مرة ، وهى : « الموافق من حضراتكم يصحى .. » بدلا من « الموافق يرفع يده » !! لم يكن السهر مقصورا على جلسات مجلس الوزراء ، وإنما شمل لجانه الفرعية .. وفى إحدى اللجان - وكانت برئاسة المرحوم جمال سالم - سهرنا حتى الصباح تماما لمناقشة قانون المرور ! ولكن مندوبى الصحف الذين ناموا على مقاعد مبنى مجلس الوزراء ، كانوا يظنون أن هذه اللجنة تبحث مسألة من أخطر مسائل الدولة . فلما خرجنا لنستقل السيارات إلى منازلنا ، كان منظر هؤلاء الصحفيين ، شبه بصرى ميدان قتال .. فتمهم من انكفأ على وجهه على منصدة إلى جواره . ومنهم من تمدد على ظهره . ومنهم من افترش أرض المجلس ، وراح فى نوم عميق وهادى !! ولما وصلت إلى ميدان « العتبة الخضراء » العريق .. وقد طار النوم من عيني من فرط الاجهاد العصبى ، رأيت فى السماء

نورا ساطعا يكتب بحروف في لون بين الأزرق والأخضر .. كلمة « يارب » ! فخيّل الى أننى أحلم ، أو أن سهر الليل أتعب أعصابى فجعلنى اتخيّل مالا وجود له ، فهتفت مخاطبا سائق السيارة : « يا حجاج عبد العزيز : ألا ترى ؟ » . فقال الرجل بهدوء : « خير » .. قلت : « ألا ترى أن السماء قد اضاءت بلفظ الجلالة .. إنها ظاهرة لها دلالتها » . فضحك الرجل - وكان قد اعتاد أن يمر من هذا الميدان كثيرا في مثل هذه الساعة ، في طريقه إلى بيته - فقال : « هذا اعلان بنور الكهرباء ، عن محل رجل يهودى اسمه ديارب » .. فضحكت من نفسى طويلا .

وفى هذه الليلة الطويلة .. كان يتخلل مناقشاتنا بعض الدعايات وتبادل الفكاهات . وقد قال لى المرحوم جمال سالم ، فى مرة من هذه المرات التى كنا نضحك فيها ، ان ما يقوله أحد الأعضاء فى التعليق على مادة من مواد القانون الذى كنا نناقشه يذكره « بقصة البربرى » . فلما سألته : « وما هى هذه القصة ؟ » . قال : « سأرويها لك بعد أن تنتهى من مناقشة هذه المادة » .

وطالت المناقشة حتى استنفدت ساعة وبعض ساعة . فلما فرغنا منها ، استنجزت « جمال سالم » وعده ، وطالبته بأن يحكى لى « قصة البربرى » التى وعدنى بها ، فقال متسائلا : « أى بربرى ؟! ما هم البرابرة كثير !! . وكان هذا الرد كفيلا بأن ننفجر فى الضحك وأن نكف عن العمل بعد ذلك ، اذ ثبت من سؤالى .. ومن جوابه ، اننا لم نعد صالحين للاستمرار فى العمل .

★ ★ ★

وقد كانت هذه السهرات سببا فى اشاعة أن « وزراء الثورة » متقشفون .. وذلك للملابسة غير مقصودة . فقد حان موعد الغداء يوما ، فاقترح أحد الوزراء أن نطلب بعض (الطعمية) والجبنة ، والخيار ، (وساندوتشات الفول المدمس) . من قبيل التغيير من جهة ، وتيسيرا على موظفى مجلس الوزراء الذين كلفناهم بإحضار الطعام ، من جهة أخرى !! فالتقشف لم يكن مقصودا ، ولا هو مر بخاطر أحد . فلما سئم الوزراء من الطعام الواحد ، وطلبوا أنواع اللحوم المشوية ، كانت تعليقات الناس : « إن الوزراء الذين بدأوا بالطعمية والفول المدمس - خداعا للجماهير ، واستجلابا لحسن ظنها - كشفوا عن حقيقتهم ، وأكلوا الفاخر من اللحوم ، والفاكهة ، والفطائر ! .

ولم يخل الحال في مجلس الوزراء من مصادمات صغيرة ، منحت الجلسات مذاقا حاميا . من ذلك : أن المرحوم الدكتور عباس عمار ، عاتب زميله اسماعيل القباني لأنه لم يرق أحد أقاربه الأقربين - وكان من كبار موظفي وزارة المعارف - إلى وظيفة وكيل وزارة . وكان الظن أن المرحوم القباني سيرد على هذا العتاب الهادئ بأحد الأعذار التقليدية التي يرد بها الناس ، عادة ، في مثل هذه المواقف . ولكن الوزراء فوجئوا بالأستاذ القباني يرد على زميله قائلا : « اننى لم أرق قريبك لأنه منافق .. » ووجه الدكتور عباس - رحمه الله - واستمر القباني يقول بهدوء :

« إن الناس تظن أنني محسوب على الدكتور طه حسين وأن له أفضالا على ، وهذا غير صحيح » .. ثم قال القباني : « ولما كنت أعرف أن قريبك مدين ، فعلا ، للدكتور طه حسين ، ولأنه يعلم أن بينى وبين الدكتور طه خلافا في رأى ، فقد ظن أن تراه من الولاء لطله حسين سيكسبه عطفي ، فدعاني هذا الموقف إلى الاشتزاز . وقلت له : « لماذا تقول لى هذا .. أنا أعلم أن للدكتور طه أفضالا عليك ، ولا داعى لإنكارها .. فإن هذا لن يقربك الى .. ولن ترقى في عهدى » .

وقد كان هذا القول تهديدا في مناقشة الوزراء . وفعلا لم ينل هذا الموظف الكبير خيرا في عهد « القباني » ، وإن كان قد عوض عن ذلك في العهود التالية حتى وصل إلى منصب الوزير !!



ومن هذه المواقف الحادة ، أن منصبا كبيرا ذا خطر خلا من شاغله . ودار البحث في مجلس الوزراء حول الأشخاص الذين يصلحون لشغله ، فرشح لذلك اثنان كانا - بطريق الصدفة المحضة - من الأصهار الأقربين إلى أحد الوزراء . بل كان أحدهما والد زوجته مباشرة . بينما كان الثانى ابن عمها ، فإذا بهذا الوزير يعترض على الترشيح ، ولا يكتفى بالاعتراض . وإنما يسوق لاعتراضه اسبابا ، فوالد زوجته - في رأيه - لا يصلح (لأنه دساس) !! وقالها - بالصعيدية - « مقلبجى » - بالجيم المعطشة - أما الثانى .. فلا يصلح لأنه (ساقط المروءة) . وقد بلغ من سقوط مروءته ، انه تحاشى زيارة عمه ، لما علم أنه محل سخط إحدى الوزارات الحزبية قبل الثورة . بل كان يتحاشى أن يتبادل معه التحية

في الطريق « !! .

والغريب أن هذا الكلام كله نقل إلى الرجلين ، فجاء أحدهما يسألني عن صحة ما دار في المجلس بشأنه . فقلت له : « ألا تعرف يا سيدى أن افشاء مداولات المجلس جريمة ؟ » فقال : « سأرفع دعوى تعويض على الوزير الذى سبني وسأق بك إلى المحكمة لتشهد ، لأى أعلم أنك لا تكذب » . فقلت له : « إن القانون - يحميني من أداء اليمين ، ومن الإفشاء بما دار في جلسات مجلس الوزراء » .. فقال وهو مرور : « وتقولون ثورة ؟ » ! .

★ ★ ★

لقد كان قلبى معه . وكنت شديد الإعجاب به ، عظيم الرغبة في أن يشغل ذلك المنصب الذى كان يليق به . ولكن الوزراء تأثروا ، غاية التأثير ، بشهادة زميلهم من دوى قرياه ، وعدوا ذلك دليلا على أننا فعلا نعيش عهدا ثوريا .. اذ قال أحدهم ، ونحن منصرون .. وكأنه يعرف الحقيقة : « لا يليق أن تنقل الخصومات العائلية وأحقادها ، إلى مجلس الوزراء » !! .

★ ★ ★

وحدث ذات ليلة ، أن دار الحديث في مجلس الوزراء في شأن شغل منصب (شيخ الأزهر) . فرشح أحدهم « فضيلة الشيخ الخضر حسين » لشغل هذا المنصب ، وكان « الشيخ الخضر » رجلا فاضلا ، وعالما واسع العلم ، ترك اثرا أدبية ، وفقهية ، ودروسا في الأخلاق الإسلامية ترفعه إلى مصاف الأئمة الصالحين ، والدعاة المرشدين . ولكن الرجل كان يعانى ، منذ صباه ، شللا يظهره أكبر من سنه ، ويبدى عجزه عن الحركة والكلام . ولكن ذلك المظهر لم يكن يمثل الواقع في كثير أو قليل . فقد كان الرجل حاضر الذهن ، شجاعا قادرا على أن يقرأ ، ويكتب ، ويدرس .

وقد رأى مجلس الوزراء أن يوفد ثلاثة من الوزراء إلى بيت « الشيخ الخضر » ، ليروا ما اذا كان في حالة صحية تسمح له بتولى هذا المنصب الجليل . وكنت واحدا من هؤلاء الثلاثة . وقد خرجنا من مبنى مجلس الوزراء سيرا على الأقدام إلى منزل فضيلة « الشيخ

الخير » ، عليه رحمة الله ، وتعقب الصحفيون خطانا ، ونشروا لنا صورة كتبوا تحتها :
« ثلاثة من الوزراء يخرجون من المجلس .. بحثا عن شيخ للأزهر » !.

والشيخ الخير تونسى الأصل ، وقد حكمت عليه محاكم الاحتلال الفرنسى فى تونس بالموت . فلجأ إلى بعض البلاد العربية . ثم القى عصا التسيار بمصر . وبارش فيها نشاطا تربويا ، وتثقيفيا ، ولرشاديا عظيم النفع . فكثرت مريدوه ، وكانت له آثار قلمية على أعلى ما يكون التأليف الإسلامى .. فكرا ، وحسن أسلوب ، وبساطة عبارة ، وصدق لهجة . ولم أعرف من شيوخ الأزهر الذين عملت معهم ، أثناء إشرافى على شئون الأزهر - بوصفى وزيرا للدولة - أو بعد تلك الفترة ، رجلا يحمل استقالته فى جيبه ، وكأنه المؤمن الذى لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وقد حمل كفته معه ، كما رأيت « الشيخ الخير » .. ولم يسمح الرجل لنفسه أن يساير الحكومة ، ولا أن يردد كلامها ، ولا أن يخاصم خصومها . ولكن مظهره جنى عليه .. فحرم البلاد منه ، ومن عمله وفضله .

★ ★ ★

وقد كان مرد أكثر ما يقع من حدة فى المناقشة داخل مجلس الوزراء ، إلى أسلوب المرحومين الأخوين « جمال سالم » و« صلاح سالم » الحاد ، والصراخ . وقد وهب الله كليهما قدرة خاصة على البيان ، والمناقشة ، والجدل والسخرية مما يقوله مناظروهم ان لم يعجبهم ، وقد كان (صلاح سالم) - إن طال عمره ، واتسعت له الفرصة - مهيا لأن يكون خطيبا متقنا لفنون القول . أما المرحوم (جمال سالم) .. فكان محدثا بارعا ، يلتقط بسرعة المعلومات التى تلقى إليه فى مختلف الأمور .

وقد حدث أن وقع بينى وبين المرحوم « جمال سالم » أكثر من تصادم فى مجلس الوزراء .. ولعل مما ساعد على وقوع هذه المصادمات ، أننى ورثت « الأخوين سالم » فى وزارتي المواصلات والإرشاد القومى . وقد كانت مصادفة عجيبة . فقد وليت وزارة المواصلات من « جمال سالم » ، رحمه الله ، ثم عاد هو فتولاها بعدى . وكذلك جاء المرحوم « صلاح سالم » ، بعدى فى وزارة الإرشاد ، ثم عدت فتوليتها بعده !!.

ولما دب الخلاف بين الرئيس محمد نجيب والضباط الشبان - وعلى رأسهم المرحوم جمال عبد الناصر - استحال مجلس الوزراء إلى حلبة صراخ عنيفة . وكان الصراخ يتسرب

من قاعة الاجتماعات إلى الخارج ، فيسمعه الصحفيون وموظفو المجلس .. من ذلك الصراح أن الرئيس نجيب ابدي يوما رأيا معينيا في أمر من الأمور فاعترض عليه « جمال سالم » . فحسمها الرئيس نجيب ، وقال : « هذا أمر متفق عليه بيني وبين جمال عبد الناصر » . فانتفض « جمال سالم » وصاح صارخا في وجهه : « هي عزبة أبوكم أنتم الاثنين ؟! طيب ما دمتم متفقين ما تسيبوننا نروح بيوتنا .. هال الله .. هال الله بأس اتفقنا .. أنتم فاهيم ان احنا دلاديل .. » وتصاعد هياج « جمال سالم » .. واحتتمى الرئيس نجيب بغليونونه .. وبصمته .. ينفث الدخان من أولهما ، ويقيه الثاني من كلمة ، أو إشارة ، تزيد الهياج انقادا .

★ ★ ★

وذات يوم .. زار الرئيس نجيب وحدة من وحدات الجيش . وتحدث هناك عن ضيقه باجراءات الكبت التي تعاني منها البلاد . وقال : « انه يؤمن بوجود اطلاق الحريات . وبلغ أمر ذلك لحديث زملاءه الضباط . فلما وصل الرئيس نجيب إلى قاعة مجلس الوزراء ، وقبل أن يجلس .. وقف جمال سالم وصاح في وجهه : « أهلا وسهلا » « بميرابو » .. ازيك « ياسي ميرابو » .. حرية .. حرية ايه اللي انت عايزها ؟.. » .

وأسرع « صلاح سالم » فانضم إلى أخيه في الهجوم على « نجيب » .. ولم يتوقف صياح الأخوين إلا بعد وقت غير قليل !!

وكان الدكتور محمود فوزي ، في جميع هذه الجلسات الصاخبة ، والهادئة معا ، صامتا لا يتكلم .. ولا يبدي رأيه في شيء .. ولا يتحدث حتى زملاءه الجالسين إلى جانبيه !! وفي ذات ليلة ، نظر جمال سالم إلى الدكتور فوزي وهو غارق في صمته سابح في أفكاره .. وقال له : « يا بختك يا دكتور فوزي بأعصابك .. ولا انت هنا .. ما تدنيش شوية من أعصابك دى وتأخذ نص عمرى » !! .

وكان للرئيس جمال ، رحمه الله عبارات تقليدية يكررها في المجلس ، ويضحك عليها ، كما كانت له تقاليد يحافظ عليها .. وأول هذه التقاليد أن يأتي متأخرا عن موعد افتتاح الجلسة ساعة ونصف ساعة ، أو ساعة على الأقل . وذات يوم - وكان عبد الناصر قد أعلن أن هناك اجتماعا في اليوم التالى في الساعة السادسة - سألة كمال الدين حسين : « ستة ياريس

يعنى ستة .. والا سبعة ؟ » . فضحك « عبد الناصر » و قال : « لا يكامل . ستة يعنى ثمانية » . وضحك بطريقته الخاصة .

وكان من « عباراته التقليدية » أن يسأل المرحوم الأستاذ أحمد حسنى وزير العدل كلما عرض على المجلس قانون : « وأين الخطاب المسجل المصحوب بعلم الوصول ؟ » . فقد لاحظ رحمه الله ، أن كل قوانين وزارة العدل فيها نص فى مادة ما من مواد هذه القوانين يلزم المواطنين بإرسال إخطار « بخطاب مسجل مصحوب بعلم وصول » . فإذا خلا قانون من هذا النص ، دأب الرئيس جمال وزير العدل قائلا : « جرى ايه فى الدنيا .. هذا قانون بلا (علم وصول) ، هل يستقيم !؟ » .

وكان يطلق على الموظف الصغير الذى يملك أن يعطل أى أمر صادر من سلطة أعلى ، بوسائله البيروقراطية ، اسم : « عبد السميع افندى » .. وكان جميع ضباط الثورة . قد حفظوا هذا الاسم ، وجرى على ألسنتهم . فأصبح « عبد السميع افندى » نظير (المصرى افندى) فى الصور الكاريكاتورية فى صحف مصر ، ولكنه رمز على الموظف المصرى الصغير البارع فى التعطيل ، والإرجاء ، والتسويق .

وكان - رحمه الله - يروى ، أحيانا ، بعض فكاهات غير مضحكة ، ثم يكون هو أول من يضحك عليها . من ذلك ما قاله من أن مؤتمراً عقد للنظر فى النحل ودراسته ، فقدم الانجليز بحثا فى طبائع النحل ، وقدم الفرنسيون بحثا فى الحياة الجنسية للنحل ، وقدم الألمان بحثا فى تحليل عسل النحل ومركباته ، أما المصريون فقد صاحوا : « النحل ياهوه » ! .

وقد عاتبته يوما على هذه الفكاهات التى يروجها ضد المصريين خصومهم .. مع أن المصريين القدماء ، كتبوا عن النحل ، وعسله ، وفوائده ، منذ آلاف السنين . فقال : « يا سلام على الحزب الوطنى ، مش مخلى الناس تضحك وحيخلميم يقولوا بحق : النحل ياهوه » .

* * *

وعندما كنا نناقش دستور ١٩٥٦ ، دأبته مرتين ، مداعبة استدعاها الحديث ، فرفض رفضا باتا أن يضحك على كليهما ، لأن الأولى فيها تمس . ولأنه لم ينتبه إلى موضع الفكاهة فى الثانية .. فضايقة ذلك ! .

وقد كانت مناسبة المداعبة الأولى ، نصا واردا في دستور ١٩٥٦ ، يقول: « إن وفاة رئيس الجمهورية تثبت بأغلبية أصوات مجلس الأمة » . فعارضت في النص على أساس « أن الوفاة واقعة مادية لا تثبت بأصوات النواب ، وإنما الذي يثبت هو اعلان خلو منصب الرئيس فقد يكون الرئيس مخطوفا أو مأسورا » .. وطال الجدل في هذه النقطة بيني وبينه ، فقلت له : « على كل حال أنا موافق ، لأنه اذا لم (يصوت) النواب عند وفاة رئيس الجمهورية ، فمتى يصوتون ؟! » . فزم الرئيس شفتيه مستاء ، وقال : « طيب يا سى فتحي » ..!

وفي المناسبة الثانية - في جلسة أخرى - احضر الرئيس معه الدستور « الصينى » واثني عليه ، فقلت له : « ولكنه سهل الكسر » . فغابت عنه النكتة وقال : « سهل الكسر .. لماذا ؟ » .

فقلت له : « لأنه صينى » . فعقد ما بين حاجبيه ، وفكر قليلا .. فلما ادرك النكتة ، اشاح بوجهه .. وأبى أن يضحك !.

الفصل الرابع

عبد الناصر
وقت ناقة
السويس

فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ ، وفى ميدان المنشية بالأسكندرية ، أعلن جمال عبد الناصر ، فى اجتماع شعبى ضخم ، أمثلاً به الميدان الفسيح المتراعى بألوف المصريين ومئات الأجانب . « أنه أم قناة السويس » . وكان هذا الاعلان زلزالا حقيقيا فى عالم السياسة الكبرى الذى يديره ويشرف عليه ، ويستأثر باصدار القرارات فيه ، ونقضها ، جماعة تحيط بها حالات الرصانة ، والأهمية ، والعظمة ، من أمثال : « تشرشل » و « ايدن » و « ايزنهاور » . فلقد كانت قناة السويس - منذ ولدت - « لعبة الكبار جدا » .. كانت لعبة بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وبروسيا ، والنمسا ، وتركيا ، فما الذى حدث حتى يجبرؤ شاب لم يكمل الأربعين من عمره ، ورئيس دولة لم يخرج آخر جندى من جنود الاحتلال البريطانى من أرضها إلا منذ أقل من شهرين - وبالضبط يوم ١٨ يونية ١٩٥٦ - ما الذى حدث حقا حتى يجبرؤ هذا الشاب ، على أن يطاءً بقدمه هذا الحرم المقدس ، ويقول انه انتزع من أيدي أكبر القوات فى الدنيا هذا المرفق الحيوى الذى ولد وسط الأزمات ، وعاش مصدرا للأزمات الدولية ، وتضخم واغتنى ، وعظم أثره أيضا بالأزمات الدولية !!؟ .

وصل النبأ إلى رئيس وزراء بريطانيا ، مستر إيدن ، بينما كان يحتفى « بعجوز السياسة العربية - البريطانية » - نورى السعيد - فكاد فنجان القهوة يسقط من يده ، وانفض الحفل فى وجوم . وذهب كل من المضيف والضيوف إلى حال سبيله فى هم شديد ، كأنهم قد فقلوا جميعا الإياء والأبناء ، والأخوة والأخوات ، والثروة والجاه !! .

وبعد أن ذهب الروح عن ساسة أوربا ، خيل اليهم أن انتزاع القناة من أيديهم ، وبقرار لم يسمعوا بمثله من قبل ، ومن شاب لم يطل عهده بالمرشح الدولى ، سيكون « لعبة » من أمتع لعب السياسة التى باشروها فى تاريخ حياتهم الطويل . قالوا - بعضهم لبعض - « إن هذا الشاب يعبت ، وقد آن الأوان للتخلص منه ، وراحة العالم من عبئه الذى لن ينتهى » !! حاولوا أن يستعيدوا قناة السويس بكل طريقة متاحة لهم . بالتهديد ، وبالوعيد ، فلم ينجحوا .. بالمؤتمرات الدولية .. ففشلوا . بالمظاهرات البحرية ، فلم ينضم اليهم فى تديراتهم أحد . وعلى ذلك لم يبق أمامهم إلا الحرب !! .

ولم يحل وقار بريطانيا وفرنسا ، وكونهما دولتين شابت رأسهما فى تدبير أمور السياسة .. دون أن تعلن الحرب على مصر . ويأمرها ، ويأمر إسرائيل فى الوقت نفسه ، بأن تبتعد

جيوش كل منهما عشرة كيلو مترات عن قناة السويس !!.

والعجيب أن « جمال عبد الناصر » ، لم يفرغ من كل هذا ، ولم يصدق أن بريطانيا وفرنسا يمكن أن تشتركا معا في حرب ضده ، وأن الخطر الوحيد الذى يعتبر احتماله قويا ، هو أن تشن اسرائيل الحرب على مصر . وكان يعتقد أن مصر كفاء لها . ولا خوف من حرب معها . ولم يقل « جمال عبد الناصر » هذا الكلام بلسانه .. بل قاله بفعله ..

كان مجلس جامعة الدول العربية منعقدا في القاهرة ، وأزمة قناة السويس في بدايتها . وأقام « جمال عبد الناصر » حفلة عشاء لوفود الدول العربية في هذا الاجتماع .. واختار « استراحة الهرم » التى كان الملك السابق فاروق قد أقامها لنفسه على مقربة من « الأهرام » و« أبى الهول » .. وبعد العشاء .. جلس الأعضاء يطلون من ربوة الأهرام العالية على القاهرة ، وأنوار شوارعها ومسارحها تتلألأ ، وتنظم عقودا باهرة . وهت نساء الصحراء الرقيقة الباردة فأحالت الجلسة حلقة سمر لطيفة .. ولكنها لم تطل ، اذ كان أعضاء الوفود حريصين على أن يستمتعوا بليلال القاهرة لحسابهم ، وعلى مزاجهم وبقي « عبد الناصر » ، مع عدد من وزرائه يسمر .. ويضحك .. ويداعب .. وكان معاونوه ، يترددون عليه ، ويهمسون في أذنه بأشياء ، فيستمع جيدا للحظات ، ويعقد حاجبيه « كعادته » ، ثوانى .. ثم يعود إلى مرجه .. وأخيرا لاحظ أن الوزراء يودون أن ينصرفوا ، فقال : « يبدو أن الجلسة طالت علينا .. اتفضلوا .. فسيذهب كل منكم إلى بيته ، أما أنا فسأذهب وحدى إلى مجلس قيادة الثورة في الجزيرة .. فعائلى في الأسكندرية ويبنى يملؤه النقاشون والمبيضون » ..

وذهب كل منا إلى داره وهو لا يدري أن « عبد الناصر » قد تلقى ، هذه الليلة بالذات ، أخطر الأنباء .. وأكثرها أزعاجا ..

● الأسطول البريطانى .. يتقدم !!

من ذلك .. نبأ تقدم الأسطول البريطانى إلى ميناء الأسكندرية « على شكل مروحة » . وكان معاونو « عبد الناصر » يبدون دهشة ممزوجة باحتجاج على أنه يتلقى هذه الأنباء بأعصاب باردة ، وبمزاج حسن ، وأنه لا يود أن يفض هذه الجلسة (غير المهمة) ، ليتلقى تفاصيل هذه الأنباء ، ويدرسها ويمحصها ، ويصدر فيها قرارا .. لقد أعلن « عبد الناصر »

(هذا السر) بعد ذلك بشهور ، عندما انتهت أزمة القناة كلها . وبدأت الحملة السياسية التي أعقبتها . وقد اذاع عبد الناصر (هذا السر) . ليبن للعالم ، كيف أنه استبعد تماما ، ونهايا . أن تهبط بريطانيا وفرنسا إلى مستوى هذا العبث الصبياني وأن يشركا معهما إسرائيل في مؤامرة حقيرة ، لم يجروا - حتى اليوم - على الاعتراف بأنهم اشتركوا في تديرها !! .

ولكن حدث بعد ذلك ، ما بدد اطمئنان « عبد الناصر » ، وبدله بالسكينة جزعا . فقد أقدمت بريطانيا وفرنسا على غزو مصر دون أن يقيما للأمم المتحدة ولا للرأى العام العالمى ، أى وزن !! ولم يقفا عند حد التهديد بانزال جيوشهما على أرض مصر . بل ذهبا إلى أبعد من ذلك ، فأنزلا هذه الجيوش بالفعل .. ثم اتضح أن للدولتين العظيمتين خطة كاملة للاستيلاء على القناة ومدنها ، وأن هذه الخطة درست تماما إلى حد أن الحليفتين طبعتا أوراق « بنكنوت » مصرية مزيفة ، بطبيعة الحال ، لتوزيعها في بور سعيد والأسماعيلية والسويس ، وما حول هذه المدن - لا ليشتروا البضائع والسلع ومواد الطعام فقط ، بل ليشتروا أيضا الذمم والرضاء السياسى !! هكذا توهم البريطانيون والفرنسيون . فهم لا يعرفون ، للأسف ، أخلاق العرب والشرقيين .. اذا وجدت على رأسهم قيادة تقودهم إلى ميادين شرف حقيقية .

● .. وفاروق جاهز !!

بل إن الخطة كانت أوسع من ذلك بكثير .. فقد دخل في تفاصيلها أن يستعد « فاروق » لتنقله بارجة انجليزية إلى مصر ، أو على الأقل هذا ما أذيع بعد ذلك .

وخيل « لعبد الناصر » أن كل أحلامه قد طارت في الهواء . وإن جهاد ست سنوات في سبيل اقامة نظام وطنى جديد قد تهاوى وتبخر .. ولكنه بقى يؤمل .. فقد أرسل إلى السفير الأمريكى وإلى السفير الروسى ، يسأل كلا منهما : ماذا سيكون موقف بلديهما من هذا الغزو ؟! هل سيكون مجرد « الفرجة » .. والاكتفاء بالاعلان من الاحتجاج ، والاشتمزاز ، والرفض ؟!

وذهب السفير الأمريكى بوعد أنه سيتصل بحكومته ، ثم يعود . ولكنه لم يعد لا بخير ولا بشر ..

أما السفير الروسى فقد كان أكثر صراحة .. اذ قال : « إن وقوفنا مع مصر معناه دخول الاتحاد السوفيتى فى حرب عالمية ثالثة . ولا أحسب أن الاتحاد السوفيتى مستعد ، الآن لدخول مثل هذه الحرب . والقرار فيما أفضيت به إلى .. الآن ، لا تصدره إلا الزعامة السوفيتية فى أعلى درجاتها والزعامة السوفيتية بطيئة فى مثل هذه الأمور ، غاية البطء ، لأنها عادة تدرس كل التفاصيل . والتفاصيل ، فى مثل هذه المواقف ، معقدة ، وكثيرة ، وتأتى من مصادر مختلفة ، وقد تتناقض هذه المصادر بعضها مع بعض !! . وترك « عبد الناصر » وحده .. !

● قبل أن تتأزم الأمور ..

ولكن حدث ، قبل أن تتأزم الأمور ، أن افتتحت شركة مصر للطيران خطا جويا جديدا بين القاهرة وروما .. ووجهت الدعوة إلى الوزراء ليشتركوا فى افتتاح هذا الخط فى اليوم المحدد . وقالت الدعوة « انه ان لم يتيسر للوزير المشاركة فى يوم الافتتاح ، فالدعوة مفتوحة وكانت « مصلحة السياحة » - انذاك تنبغنى بوصفى وزيرا للارشاد القومى فبدا لى أن سفرى إلى روما ، فى تلك الفترة ، هو عمل سياسى جيد .. فالمناسبة التى أسافر فيها هى مناسبة حقيقية وغير مفتعلة ، وهى مناسبة معلومة لجميع أطراف السياسة العالمية إذا اهتمت بها هذه الاطراف - وسيكون فى وسعى أن اتصل بدوائر السياسة فى روما تحت ستار « أنى وزير فنون وسياحة » وبالفعل ذهبت إلى « عبد الناصر » ، بعد جلسة من جلسات مجلس الوزراء وقلت له : « اننى سأسافر إلى روما بقصد الوقوف على جلبة الموقف الدولى وروما مكان جيد للاستطلاع .. فقد كانت ميالة إلينا - نسبيا - فى مسألة القناة ، وهى غير مشاركة فى وقائع الحرب ضدنا ، وبهذا نفتح مكانا هاما للاتصالات .

انصت « عبد الناصر » إلى هذا الكلام ، ولاح على وجهه أنه قد سره أنى فكرت فى هذا ، وتناولنا بعض التفاصيل إلى أن ودعنى متحمسا . وتمنى لى التوفيق . والأمر الذى قد يحسن أن اذكره ، أننى لم لاحظ عليه انشغال بال ، ولا توقعا لشر . ولذلك كانت حماسته مصدرها سروره باهتمامى بالتطورات وموقف مصر عموما . وليس احساسه بضرورة مثل هذه الرحلة أو بالحاجة إلى القيام بأى استطلاع كان .

وسافرت إلى روما ، وأعلنت - حسب الخطة الموضوعه - أننى اتى لإجراء العديد من

الاتصالات الثقافية ، والفنية ، ولتنشيط الحركة السياحية بين مصر وإيطاليا والوقوف على وسائل الدعاية السياحية في إيطاليا التي يبلغ الدخل السياحي فيها رقما هائلا .

وتلقت وكالات الأنباء هذا التصريح ، واذاعته في أربعة أركان المعمورة وكأنها تقول : « مفهوم .. أنت آت لغرض . ولكنك تعلن عن غيره » !.

وفي اليوم التالى لوصولى - تلقت نبأين . أحدهما « فكاهى » ، والثانى يرى مدى اتساع الفرص ، وتعددها أمام الساسة الذين يريدون أن يعملوا في الساحة الدولية ، ويخرجوا من دورهم إلى العالم الفسيح .

أما النبأ الفكاهى .. فخلاصته أن « الملك السابق فاروق » بلغه نبأ وصولى إلى روما .. كان « فاروق » قد عاش أيامه الأخيرة في مصر ، وليس لديه إلا هم واحد ، هو أننى « سأقتله » !! . وقد بلغ من شدة إيمانه بهذا الوهم أنه صرح به لرئيس وزرائه (نجيب الهلالي باشا) عند قيام (نجيب باشا) بأداء اليمين الدستورية بمناسبة تأليف إيجر وزارة قبل قيام الثورة ، اذ كان من شروط (نجيب باشا الهلالي) أن يفرج عنى - وكنت معتقلا - تنفيذاً لحكم مجلس الدولة : فقال الملك وهو يستقبل رئيس وزرائه : « تفرج عن فتحى رضوان .. بس اياك ما يموتكش - والعهدة في هذه الحكاية ، على (فريد زعلوك باشا) . أحد وزراء نجيب الهلالي - الذى رواها لى بنفسه ..

المهم أن « فاروق » بلغه أننى وصلت روما - فخیل اليه أنه ليس لخيئى إلى هذا البلد إلا هدف واحد فقط . هو أن أشرف على تنفيذ حكم الموت فيه . ففر من روما . ومعه حراسه الشراكسة .. فقلت يومها : « ما أكثر ما في الحبس من مظلومين » !!

أما الأمر الثانى : فهو أن « جنرالا » سابقا في جيش إيطاليا ، اسمه الجنرال « كوستا » طلب - عن طريق السفارة المصرية في روما - أن يقابلنى ، فحددت له موعدا في فندق « المتروبول » الذى كنت أقيم فيه . وقد أفضى إلى هذا « الجنرال » الذى تبين أنه فاشستى عريق ، ومتحمس ، بأن لديه معلومات تؤكد أن بريطانيا وفرنسا تعدان العدة لحملة عسكرية ضخمة ضد مصر .. وأن بريطانيا ، بالذات انتهزت فرصة تأميم مصر لقناة السويس ، وقررت أن تستعيد جميع الأراضى التى فقدتها في الشرق العربى بسبب السياسة

الأمريكية ، وعلى وجه التدقيق بسبب سياسة « دالاس » التى يقرها « ايزنهاور » ويباركها ولما كان « الفاشيست الطليان » لا يعرفون لهم ، انذاك ، أى سنة ١٩٥٦ - عدوا ، وأنهم لم يعرفوا لهم ، فى الماضى أيضا ، عدوا إلا بريطانيا ، فإنهم يودون أن يبلغوا مصر فى شخصى ، أنهم مستعدون أن يغاربوا معها ، وأنهم قادرون على أن يضعوا فى خدمتها « كتيبة كاملة » مجهزة بالأسلحة الحديثة والجيدة ، ومدربة أحسن تدريب ، ولن يكون هذا إلا مجرد بداية .. وأن الحرب اذا طالت . فستجد مصر مثل هؤلاء المتطوعين من فرنسا والمانيا وغيرهما ..

وراح الجنرال الايطالى يدلل على أن الحرب واقعة لا محالة ، وأنه مستعد لأن يوافينى بالكثير من الأدلة والتقارير .. وشكرته على حماسه .. ولم أرد أن أذهب معه فى الحديث إلى أبعد من هذا المدى ، اذ كانت تعوزنى الأجهزة التى تستطيع أن تطلعنى على اتصالات هذا « الجنرال الفاشيستي » ودوافعه ..

ولما تقابلت مع أعضاء السفارة المصرية ، ودار الحديث حول توقعاتهم - كانوا جميعا متفائلين ، ما عدا المستشار العسكرى « محمد شكرى » الذى أصبح ، فيما بعد ، سفيرا لمصر فى كندا ، فقد قال لى ، قاطعا وجازما : « إن بريطانيا تحضر للحرب لا محالة ، فإن ما تنفقه فى تحريك قطع أسطولها ، ليس بالقليل ، والدول لا تنفق الملايين على مظاهرات بحرية .. فهذه - بالقطع - استعدادات للحرب ، وليست مظاهرات للتهديد » .

وعدت من روما .. بعد ما سمعته من هذا وذاك ، ومما قرأته ، ومن الاتصالات الأخرى السريعة ، وقد تعجب أن منها ما كان مع مجرد أمين لمتحف فى الفاتيكان ، الذى انحنى حينما رأى أن رباط حذائى قد فك ، وأننى كدت أتعثر فيه ، وقال - وهو منحني وبصوت خافت جدا : « سيدى الوزير .. استعلوا ، الحرب قادمة لا محالة .. » ثم اعتدل .. وبسط قامته ، وقدم لى بطاقة ، وقال فى أدب جم : « اكسلانس .. اذا كان لا يزال لديكم وقت فى روما وترغبون فى زيارة أخرى للفاتيكان ، فهذا هو رقم تليفونى ويمكن لسكرتيركم أن يتصل لى ، فسأكون سعيدا اذا استطعت أن أقدم لكم خدمة » .

وفهمت الإشارة جيدا .. ولكن عجبت أن يكون هذا كلام موظف فى الفاتيكان .. أليكون « فاشستيا » هو أيضا ؟!

وعدت إلى القاهرة ...

وسمعت وأنا لا أزال في المطار بشيئين : فقد أخبرني أمين الوزارة أن الوزير السابق « صلاح سالم » كتب في « جريدة الشعب » التي كان يرأسها ، مقالا قال فيه : « أين ذهب وزير الارشاد القومي في هذه الأزمة المستحكمة .. لعله ذهب إلى روما ليصلح بين (جينا لولو برجيدا) وبين (صوفيا لورين) ! » .

ولم أغضب لهذه الاشارة الجارحة . بل لقد سرني حقيقة أن أرى شيئا من الحيوية قد دب في الصحافة . ولكن الذي أغضبني ، حقا ، أنني علمت ، في اليوم التالي ، من أحد زملائي وأصدقائي الوزراء ، أن « عبد الناصر » جاء إلى جلسة مجلس الوزراء التالية مباشرة لسفري . وسأل : « أين وزير الارشاد القومي ؟ » .

وما كدت أسمع هذا الكلام . حتى فار الدم في رأسي . وذهبت اليه فورا في مكتبه ، وقلت له :

- هل قرأت مقالة صلاح سالم عني ؟

فقال ، بعد أن سرح لحظة :

- عرفت بها قبل نشرها ..

وأضاف :

- بل قبل كتابتها ..

قلت له :

- ذلك يعنى أن سيادتكم أوحيت له بها ..

- لا ..

ولم أنتظر أن يكمل تعليقه ، فقلت له :

- ياسيادة الرئيس .. لقد سافرت إلى روما بعد أن استأذنتك ، وبعد أن اتفقنا على الغرض من هذا السفر . فقال :

- ولكن المدهش أنك أعلنت عندما وصلت إلى روما أنك قادم إليها لأمر فنية !..
فقلت له بصوت عال :

- وهذا ، بالضبط ، ما كنا اتفقنا عليه ..

وأعدت عليه ، وبالحرف الواحد ، ما كنت قد قلته له قبل سفرى .. فلاذ بالصمت . ثم
استعان بسيجارة ، وراح يشد الأنفاس منها بشدة كعادته .. ثم أخذ يهز ساقه - وكانت هذه
علامة من علامات عصبيته ..

وبعد فترة صمت بيننا - قلت له :

- المهم .. فلننس ، الآن ، فتحي رضوان ، ونتحدث فيما هو أهم من هذا بكثير ..
فأدار رأسه نحوى ببطء شديد ، وقال :

- خير ..

فقلت له :

- اننى بت الآن ، أميل كثيرا إلى الاقتناع بأن الحرب قادمة حتما .

فنظر إلى نظرة طويلة صامتة ، ثم لوى شفتيه ، وقال :

- جائز ..

ثم سارت الأمور فى تعاقبها وتواليها مندفعة .. ومحمومة ..

الفصل الخامس

غاندي يمنع
عبد الناصر
من السفر إلى لندن

كانت أولى برقيات التأيد التي تلقتها قيادة الثورة في صباح يوم الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ ، هي البرقية التي أرسلها المرحوم الدكتور رشوان فهمي ، استاذ طب العيون بجامعة الأسكندرية ، فرأى « جمال عبد الناصر » أن من حق هذه الجامعة ، بسبب هذه البرقية ، أن يخصص لها يوم ٢٦ من يوليو من كل عام ، ليكون يوم الجامعيين ، ويوم الأسكندرية ، ويوم عزل الملك فاروق في وقت واحد . واستقر هذا التقليد ، فلم يأت يوم ٢٦ يوليو في أية سنة ، إلا وقصد قائد الثورة مدينة الأسكندرية ، والقى فيها خطابا سياسيا في المساء ، بعد أن يكون قد زار جامعة الأسكندرية في الصباح .

ولم يحدث ، في يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٦ ، أى خروج على هذا التقليد . فقد توافد الوزراء على مدينة الأسكندرية في انتظار خطاب المساء التقليدى .. وكانت الحكومة في طريقها إلى الاشتراكية ، فقد أغلقت البورصة التي كانت تمارس أعمالها في مبنى قديم وعريق بأكبر ميادين أكبر موانئ مصر ، وأعنى به ، « ميدان المنشية » الذى يطل عليه تمثال « محمد على .. مؤسس الأسرة المالكة » التي انتهى وجودها في يونيو سنة ١٩٥٣ .. بعد عام من النزاع المملوء بالريب والشكوك .

ولكن الوزراء تلقوا ، على غير العادة . دعوة لأن يذهبوا إلى منزل جمال عبد الناصر في رمل الأسكندرية ليخرجوا معه إلى ميدان المنشية حيث يلقي خطابه من شرفة مبنى البورصة التي أغلقت ابوابها وفضت أعمالها . وتصور الوزراء أن الدعوة يتفق ظاهرها مع باطنها .. أو أنها لا باطن لها .. فالطبيعى أن يجتمع الوزراء مع رئيسهم ورئيس الجمهورية .. وأن يذهبوا جميعا في موكب واحد . فإذا كان ذلك لم يحدث في الماضى ، فلا بأس من أن يدخل على أسلوب الاحتفال بيوم ٢٦ من يوليو شيء من التغيير . ولم يكن للرئيس عبد الناصر في الأسكندرية بيت لقضاء فصل الصيف فيه ، لذلك استأجر قصرا في حى الرمل . وقد شاءت الصدفة أن يكون هذا القصر هو نفس القصر الذى كان يشغله الرئيس إبراهيم عبد الهادى ، أحد رؤساء الوزارات قبل الثورة ورئيس الهيئة السعدية في الوقت نفسه ، واحد كبار الساسة الذين حاكمتهم الثورة وقضت عليهم احدى محاكمها بالموت ، ثم عادت فخففت الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم أطلق سراحه بعد أن اختفى الساسة القدامى من ميدان الحياة العامة اختفاء كليا مؤثرين السلامة والعافية ، وكأنهم ادركوا أن الدنيا تغيرت فعلا ، وأنه لم يعد لهم في هذه الرواية السياسية الجديدة التي تختلف

في الشكل والتفاصيل عن روايات العهد الملكي .. دور يلعبونه . ولم يدر بخلد احد من الوزراء ، انهم سيسمعون نبأ يعد من اخطر انباء القرن العشرين كله ، لأنه يتصل بأخطر شريان مائى ، وأهم طريق للتجارة الدولية ، ألا وهو « قناة السويس » .

وتجمع الوزراء .. وكل منهم في حالة عادية ، فلم يكن في الجو الداخلي ، ولا الخارجي ، ما يدعو إلى الانقباض أو التوجس . وجاء « جمال عبد الناصر » ليأخذ مكانا في البهو الطويل الضيق الذى انعقد فيه اجتماع الوزراء غير الرسمى . وبدأ يتكلم ، فاستمع اليه الوزراء وغيرهم من الضباط وكبار الموظفين الذين تقضى عليهم وظائفهم أن يشهدوا هذا الاجتماع .. ولكنه ما كاد يكمل جملتين من حديثه إلا وأدرك الوزراء أن هذا الاجتماع الذى بدا عاديا وبريئا .. انما هو اجتماع له ما بعده .. أما ماذا يكون بعده ؟ فأمر لا يعلمه إلا الله . فقد أعلن « عبد الناصر » للوزراء أنه اعد وثائق تأميم قناة السويس ، وانه سيعلمها بعد خطبته . وقال ان « دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة قد بالغ في الاساءة إلى مصر ، حينما أعلن رفض تمويل مشروع السد العالى ، مقرونا باعلان سوء حالة الاقتصاد المصرى وعجزه عن النهوض بهذا المشروع .

ولا يخفى اننى ادنى شك في أن الوزراء وجميع الذين كانوا في ذلك البهو ، قد شملتهم سعادة غامرة ، عندما سمعوا هذا الاعلان الخطير . فقد كانت « قناة السويس » بماضيتها الحافل بالماسى ، وكانت شركتها القائمة على أرض مصر والمستغلة لمياهها « قرحة ملتبهة » في جسم مصر ، يشعر كل مصرى لها بالألم والعار ، ولا أظن أن احدهم استطاع أن يتخيل أن هذا التأميم سيحجر ما جره على مصر ، وعلى الثورة كلها ، من اعلان حرب دولية ضد مصر ، وإنزال الأساطيل البريطانية والفرنسية العتيدة جيوشها على أرضنا في بور سعيد ، ثم زحفها في طريقها إلى القاهرة ، متأخرة في ذلك مع اسرائيل ، وكأنها ند لهما ، في القوة والمكانة ، ودون أن يشعر قادة الدولتين الكبيرتين بالحنجل !!

● هل تشعرون بالذعر ؟!

ولكن الغريب أن « جمال عبد الناصر » ترك جميع الحاضرين من وزراء ، وغيرهم ، واتجه بوجهه نحوى وسأل : « هل شعر احدكم بالذعر .. هل شعرت يافتحى بالذعر ؟ » ..

وصعد الدم إلى رأسى . فقد شعرت بهانة بالغة ولا مبرر لها من هذا التساؤل ،

أو السؤال . فعلى كنت الوحيد بين الحاضرين الذى كتب عن تأميم قناة السويس قبل الثورة . ونشرت في صحيفة « اللواء الجديد » عنوانا بعرض الصفحة : « تأليف لجنة وطنية لدراسة تأميم قناة السويس » على أنى كنت قد فعلت شيئا اخر بوصفى وزيرا للإرشاد القومى ، ومشرفا على الاذاعة .. فقلت للرئيس جمال : « ولماذا أنا الذى أشعر بالذعر ؟ .. » . لقد اذعنا طوال الشهر الحالى ، سلسلة اذاعية بعنوان (اسماعيل المفتش) ذكرنا فيها المصريين بمأساة بيع ١٧٦ الف سهم من أسهم قناة السويس كانت تملكها مصر ، وقد باعها الخديوى اسماعيل بمبلغ أربعة ملايين جنيه لحكومة بريطانيا ، استدانها « اللورد دزرائيلى » من يهودى مثله هو « اللورد روتشيلد » ، دون استئذان مجلس الوزراء .

فقال عبد الناصر : « سيقولون ، فيما بعد ، انك كنت تمهد لقرار التأميم » فقلت : وأنا لا ازال اشعر بحدة الغضب : « لقد اصدرنا كتيباً بعنوان : - أضواء على قناة السويس - نقدنا فيه ، بشدة ، ما تروجه دوائر الغرب من أن مساهمة مصر في حفر ، واعداد ، وتنفيذ مشروع قناة السويس كان بالأيدي العاملة الرخيصة فقط ، واثبتنا أنه كان في اوراق وملفات حكومة مصر دراسة كاملة من الناحيتين الهندسية والطبوغرافية لمشروع حفر قناة السويس تمت في عهد محمد على ، وساهم فيه المهندسون والمساحون المصريون مساهمة علمية ذات شأن » .

فسرح « عبد الناصر » بخاطره ، وقال : « وأين هذه الدراسة ؟ » فأجبت : « عندنا في مصر ، وقد عرضناها للبيع وراجت كثيرا » . فقال : « حسنا ، ارسل لى واحدة منها فقد نحتاج إليها في المستقبل .. » ثم نظر إلى الآخرين ، وقال : « هل لدى احدكم تعليق أو سؤال ؟ .. » . فقلت : « عندى أنا » .. وقبل ان يرد « عبد الناصر » قلت له : « أنا فاهم من كلام سيادتكم الان ، انك تنوى أن تقول انك أتمت قناة السويس ردا على كلام (دالاس) واهانتة لنا ، واعتدائه على سمعة اقتصادنا » .. فتجهم « عبد الناصر » وقال مندهشا : « اذن .. ماذا تريدنى أن اقول ؟ » . فقلت مندفعاً : « قل كل شيء دون أن تربط تأميم القناة بسحب الغرب تمويله لمشروع السد العالى » .

لكن عبد الناصر ضاق بهذا الكلام ، وقال : « غريبة .. وماذا في هذا ؟ » . فقلت له : « إن ربط الأمرين معا - وان كانا في الواقع متصلين - له معنيان ، وكلاهما سيء .. فاعلاننا بأننا أنمنا قناة السويس لأن دول الغرب سحبت تمويلها للسد العالى ، فيه اضعاف

لحقنا في التأميم ، فقناة السويس مرفق مصرى ، وشركة قناة السويس هى شركة مصرية ، وخاضعة للقانون المصرى ، وعلى ذلك ، فحقنا في تأميم الشركة ، واخضاع المرفق للإدارة المصرية المباشرة ، إنما هو من حقوقنا المطلقة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن تصريحنا بأننا نؤمم قناة السويس ردا على امريكا وانجلترا وفرنسا .. معناه أننا نتخذ من (قناة السويس) التى تستخدم الملاحة ، والتجارة الدولية ، وسيلة لعقاب وتأديب الدول التى تختلف معها . وهذا سيبيح لدول الأعداء أن يتخذوا من هذا (الاعلان) مادة للتشهير بنا ، وتخويف العالم من ادارتنا لقناة السويس التى تتأثر بنوازعنا ، وربما بنزواتنا القومية » .

وإلى هنا كان صبر « عبد الناصر » قد نفذ . وخيل اليه اننى اريد أن أملى عليه اتجاهها معينا .. فقام وهو يلوح بذراعيه مسرعا تجاه دورة المياه وهو يقول : « أنا أعرف ماذا سأقول .. سأغسل وجهى أولا » .

وخرج « عبد الناصر » مبتهجا ، واثقا من نفسه ، سعيدا بأنه سيطلع على العالم بما سيهزه ، وبما سيجعل اسمه على كل لسان .. فى الشرق .. وفى الغرب .. على السواء .

* * *

والغريب فى الأمر ، انه قبل هذا اليوم بأيام قليلة ، كنت قد أعددت مذكرة لعرضها على مجلس الوزراء ، ولم يكن لى أى فضل فى التفكير فى اعداد هذه المذكرة . فقد حدث أن المرحوم المهندس طراف على ، وزير المواصلات السابق ، ومندوب مصر لدى شركة قناة السويس أو ممثلها فى اللجنة الهندسية التابعة لمجلس ادارة الشركة ، مر على فى مكتبى فى وزارة المواصلات ومعه احدى الصحف البريطانية ، وفيها نبأ منقول عن جريدة « هندوستان تايمز » الهندية - وهى صحيفة ذات نفوذ كبير فى الهند لاتصالها بأكبر دوائر المال فى بريطانيا والولايات المتحدة - وقد تضمن هذا النبأ أن شركة قناة السويس ، قد فرغت من اعداد عدد من المشروعات التى تهدف إلى توسيع القناة وتعميقها ، وتزويدها بجهاز جديد للإشارات الكهربائية ، إلى جانب مشروعات لمساكن للعمال فى الشركة والموظفين . وقال لى المرحوم المهندس « طراف على » : « إن اقدام شركة القناة على هذه المشروعات الضخمة والمكلفة ، قاطع الدلالة على أن الشركة تطمنن إلى أن امتيازها لن ينتهى فى سنة ١٩٦٨ .. أى بعد ١٢ سنة فقط » ..

وبالفعل ، اعددت مذكرة بهذا المعنى ، واوشكت أن اطلب من سكرتارية مجلس الوزراء توزيعها على الوزراء للتداول فيها . ثم عدلت المذكرة ، ثم عدلت ، نهائيا ، عن تقديمها .. ذلك لأننى استصوبت ألا يكون لتفكيرنا - نحن - فى مستقبل القناة أى اثر فى أوراقنا . حتى لانتبه الشركة ، ودوائر الاستعمار المؤيدة لها ، لما نعدده من مشروعات مضادة ، واثرت أن احدث « عبد الناصر » وحده فى هذا الشأن ، فحدثته وسلمت له الصحيفة التى سلمنى اياها المرحوم المهندس « طراف على » . ولكن « عبد الناصر » استمع إلى الأمر بغير اكتراث ، وتسلم الصحيفة بقدر كبير من اللامبالاة ، ولولا الحياء الذى كان صفة من ابرز صفاته . لما مد لى يده ليأخذها . أكان هذا تمثيلا ، امعانا فى التكميم واخفاء نواياه ؟ أم أن الأمور لم تكن قد اتضحت فى ذهنه ، بعد ، فكان الكلام فى « قناة السويس » لا يبعث على النشاط ، ولا الاهتمام ؟!

● قبلة .. شديدة الانفجار !

وصلنا إلى شرفة مبنى البورصة السابق ، ووقف جمال عبد الناصر يتكلم بأسلوبه الذى تميز به خلال ثمانى عشرة سنة ، والذى كان مزيجا من « العريية الفصحى » ، فى مطلع الخطبة . وفى الفقرات الافتتاحية لاجزاء الخطاب ، وفصوله الرئيسية ، ثم بعد ذلك « العامية المطلقة » ، مع ميل إلى التكرار والاطالة . ولكن الجماهير ، لا فى مصر وحدها ، بل فى بلاد العرب كلها شرقا وغربا ، احبت هذا الاسلوب . لم يكن فى وسع أى عربى ، حتى رعاة الأبل فى قلب الصحراء ، أن يعرف أن « عبد الناصر » يخطب ، ثم يمنع نفسه من أن يدير مؤشر « الترانزستور » .. إلى اذاعة مصر .. ليسمع وينتشى ، وان لم يفهم احيانا بعض الذى يسمع .

وجلس فى الصف الذى يلى « عبد الناصر » ، اجيل النظر فى الميدان الفسيح - ميدان المنشية - وقد امتلأ حتى حوافيه بالناس ، صفوفوا صفوفوا ، وهبت نسيمات من البحر العريق ، بحر الحضارات ، والثقافات ، والرسالات .. بحر العرب ، والروم ، والرومان ، والعثمانيين ، والأتراك .. واخيرا ، « الأنجلو سكسون » ، و« الفرنجة » .. ولم يكن هذا البحر يبعد عن الميدان إلا امتارا . وأخذت اتأمل هذه الجموع الحاشدة ، التى لا تدرى شيئا عن المفاجأة المذهلة التى يحبثها لهم « عبد الناصر » ، والتى سيلقى بها بين صفوفهم وكأنها

قنبلة شديدة الانفجار .

وراح عبد الناصر يروى مواقف دول الغرب من مشروع السد العالى ، وما قاله له (اوجين بلاك) مدير البنك الدولى . وقال انه كان يرى فى (اوجين بلاك) صورة (فردناند دليسبس) . الذى احتال على (سعيد باشا) - والى مصر - حتى استصدر منه « فرمان » أو مرسوم امتياز فتح قناة السويس سنة ١٨٥٤ ، مع ما فيه من شروط مجحفة بمصر . وأوجه الشبه بين (اوجين بلاك) و(دليسبس) ليست قوية إلا من حيث أن كلا منهما يمثل الغرب الطامع فى أموالنا ، وثرواتنا ، ومركزنا الدولى ، فى حرصه على اخضاعنا لنفوذه ، واذعاننا لأوامره ، وكراهيته لاستقلالنا وازدهارنا ونمونا .

وكرر « عبد الناصر » اسم (بلاك) فى تلك الخطبة التاريخية حقاً ، ولما كان (بلاك) بالانجليزية ، معناه (أسود) بالعربية ، فإن بديهة « أم كلثوم » - فيما يسمية المصريون (القفش) - أى اصطلياد اللمحات الطائفة ، هدتها إلى القول ان : « عبد الناصر خللى ليلة امريكا بلاك فى بلاك » أى أنه خللى ليلتهم سوداء !! .

واخيراً .. وصل عبد الناصر إلى النقطة التى أعلن عندها القرار الجمهورى بتأميم قناة السويس ، وما كاد نقرأ اللفظ الأول من عنوان القرار الجمهورى ، حتى اصابت الناس هزة عنيفة .. لا فى الميدان وحده ، بل فى كل بيت من بيوت مصر ، بل فى كل بيت من بيوت العالم العربى .. بل فى الشوارع ، والأزقة ، وفى السيارات المنطلقة بأقصى سرعة ، فى كل حذب وصوب ، وطريق ودرب ، ومعهم اجهزة الاستماع .. لقد رأيت الناس دفعة واحدة ، وبلا سابق اتفاق ، يقفزون فى الهواء ، ويرتفعون عن الأرض صدقا .

ومضى زميل الصبا .. المرحوم المهندس محمود يونس .. مضى ومعه عدد من اعوانه المهندسين والضباط إلى مباني ومكاتب وورش ومخازن شركة قناة السويس العالمية ، ليضع عليها الأختام ، وليجعلها أمانة ووديعة لدى عدد من الحراس المصريين من رجال الجيش والشرطة ، وكانت الصدمة التى عانى منها مديرو الشركة الفرنسيون الذين عاشوا حياتهم فى مصر - دولة فى قلب الدولة - يأمررون وينهون ، ولا راد لأمرهم ، ولا معقب على نهيم - كانت الصدمة التى عانوا منها يومذاك ، صدمة للنظام الاستعمارى كله ، وللغرب المتأله ، والمتغطرس ، والمتعالى ..

ودارت حرب الاذاعات ، والمقاتلات ، والتصريحات ، إلى جانب حرب المقاطعة والحصار الاقتصادي ، وحرب الأعصاب التي كانت الاساطيل والجيش ، أداتها .. ولم يجد خصوم مصر شيئا يروجونه ضدها ، وضد نظام الحكم فيها .. إلا أن « عبد الناصر » لم يؤم القناة إلا لأنه أحس « بطلعة موجهة » إلى كبريائه ، حينما سحب « دالاس » تمويل مشروع السد العالي .. مبرا ذلك بأن المشروع أكبر من طاقة وقدرة مصر المالية ، لأنها مفلسة تقريبا .. ومعنى ذلك أن ادارة مرفق قناة السويس ، عملية خاضعة ، لمزاج « عبد الناصر » ، أو أى رئيس يخلفه فى مصر . ومعنى هذا أيضا ، أن بقاء قناة السويس فى يد المصريين خطر على مصالح العالم المشروعة التي لا خلاف عليها .. واتخذوا من تصريحات « عبد الناصر » يوم ٢٦ يوليو دليلا وسندا .

ولعل « عبد الناصر » تذكر ، فى ضوء حرب الاذاعات هذه ، ماكنت قد قلته له ..

• قصة الذئب .. والحمل !

ولكنى لا أتصور أن الموقف كان سيتغير كثيرا ، لو أن « عبد الناصر » لم يجعل التأميم عقابا لدالاس والغرب على موقفه من مشروع السد العالي .. « فقصة الذئب والحمل » ، كانت ، وستبقى ، الوصف التودجى لعلاقة الأقوياء والضعفاء .. اذ ليس المهم مرور الاتهام ، فالاتهام يقع أولا .. ثم يبحث له عن مبرر !!.

ولكن .. احتاج « عبد الناصر » ، عندما احتدمت المعركة السياسية ، إلى أن يستشير مجلس وزرائه فى واقعة محددة ، هى : هل يسافر إلى لندن ليعرض على الرأى العالمى موقف مصر من قناة السويس وحرصها على سلامة ، واستقرار ، واستمرار الملاحة العالمية وازدهارها .. وكان ذلك فى إبان الدعوة التي اعلنتها بريطانيا ، والتي كانت الغاية منها طرح تصرف مصر على الدول التي وقعت على معاهدة حياد قناة السويس ١٨٨٨ - وكان عبد الناصر تواقا إلى أن يسافر إلى لندن ، حيث « بؤرة التأمير السياسى » ضد مصر ، وحيث عاصمة الدعاية السياسية لقضية انتزاع قناة السويس من مصر ، وكان عبد الناصر شاعرا بثقة بالنفس عظيمة ، أوحى اليه بأنه سيكون قادرا ، اذا ما وصل إلى لندن ، وحوله هالة الشهرة العالمية والضجيج الذى صاحبه منذ خمس سنوات ، أن ينتزع شخصية صورة (هتلر) الحديث ، التي الصقت به ، من اذهان البريطانى العادى ، الذى سوف يراه انسانا بسيطا ، تهمة

مصلحة بلده ، ولكن دون أن يدمر مصالح الآخرين ، ويعمل على رخاء مواطنيه ، دون أن يلقي بالعالم في اتون الحرب ، وبذلك يكسب تأييد الرأي العام البريطاني أولاً .. فتأييد الرأي العام العالمي ثانياً ، وينزع الفئيل من القنبلة التي أعدها باحكام « انطوان ايدن » رئيس وزراء بريطانيا ، ودهاة السياسة العالمية الذين هم ، في الأغلب الأعم ، يهود ذوو أنياب زرقاء ، يحسنون الدس ، والوقية ، والتأمر الدول .. ومن هنا ، كان السؤال المطروح على مجلس الوزراء هو : « هل يسافر عبد الناصر إلى لندن أم لا يسافر ؟ » .

وتكلم كثيرون ، ولكن بدون أن يكون كلامهم حاسماً ، فقد احس الوزراء أن « عبد الناصر » تواق لأن يسافر ، واثق من نتائج سفره ، وفرح بهذه الجولة التي اتاحها له تطور الأحداث ليحرب سحره على مستوى عالمي ، وكان هذا الاحساس وحده كافياً لأن يتحفظ المتكلمون .

• .. وتكلم الدكتور فوزى !!

وتكلم الدكتور محمود فوزى ، وعلى النقيض مما يقوله عنه خصومه ، ويروجونه بكل وسيلة ، بأنه رجل يؤثر السلامة ، ويفر من مواقف المسئولية ، ويخفي رأيه ارضاء لصاحب السلطة ، مستعملاً أسلوباً (لوليا) في التعبير عن الرأي - على النقيض من هذه الصورة الثابتة .. كان محمود فوزى يومذاك ، حاسماً .. فقد أعلن ، وبلا تحفظ ، أنه ضد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن .

وحمدت الله على هذا القول القاطع ، ثم اتجه « عبد الناصر » الى - وكانت العلاقات بيننا يشوبها فتور لسبب نسيتته تماماً - وقال بأسلوب خال من الود : « ورأى الأستاذ فتحي ؟ » ولم أكن في حاجة إلى أكثر من هذه الدعوة المتحفظة لاندفع قائلاً : « يأبى الله ورسوله .. » .

وعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه وقال : « ماذا تعنى ؟ » فأجبت : « المسلمون يقولون هذا القول عن كل ما هو حرام » .. فقال ، وقد تحسن مزاجه قليلاً : « يعنى السفر إلى لندن حرام ؟ » .. قلت : « بالتأكيد » .. واضفت : « لقد عشنا ندير امورنا في لندن ، ونقرض علينا المعاهدات و(الفرمانات) منها ، أو من باريس ، أو من استانبول .. إن

المعاهدة التي حددت مركز مصر الدولي ، والتي أبرمت بعد حروب محمد علي مع تركيا ، اسمها معاهدة (ترييا) لأنها عقدت في ضاحية في استانبول بهذا الاسم .. فإذا كان موضوع قناة السويس لا بد أن يناقش هذه الأيام ، فليناقش في مؤتمر تدعو اليه مصر ، ويعقد في القاهرة ، وتحدد له حكومة مصر جدول الأعمال .. إن مجرد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن ، هو نصف الطريق إلى الاعتراف بشرعية موقف بريطانيا وفرنسا غير الشرعى ، ولن ينقذنا هذا السفر من شيء .. فهو ان اعتبر ملاينة منا وملاطفة ، اغراهم بالعدوان ، وإن اعتبر تحرشا ونخاشنة ، اعلنوا أن مصر تتحدى العالم .. » .

• ولم يسافر عبد الناصر

وزام « عبد الناصر » ورفع الجلسة .

ولكنه لم يسافر .. وليس ذلك لأنه اقتنع بما قلته أنا ، أو بما قاله غيرى .. فقد أخبرنى « صلاح سالم » بأن الذى ثنى عزم « عبد الناصر » عن السفر هو ما قاله له السفير الهنذى ، من أن « غاندى » حينما سافر إلى لندن سنة ١٩٣٧ - وكانت الكتب التى كتبها الانجليز ، والأمريكان ، والألمان ، والفرنسيون ، عنه وترجمت إلى الانجليزية ، قد بلغت المقات .. وكانت الصورة التى رسمتها له تلك الكتب قد اظهرته بأنه التجسيد الحديث للسيد المسيح .. ومع ذلك فان جرائد ومجلات الدوائر الاستعمارية نجحت فى أن تجعل منه « بهلوانا » .. وبدلا من أن يبدو للجمهور البريطانى سياسيا ، متقشفا ، زاهدا .. سلاحه المحبة ، والدعوة إلى الاخاء الانسانى ، اتخذت هذه الصحف من عريه مادة للسخرية به ، وترويج الدعايات عنه ، وسرد الوقائع غير الحقيقية والملفقة . وضاع سحر « غاندى » غير المنكور ، وانطفأت اضاء شهرته الساطعة .. وعاد مهزوما ، مغلوبا على أمره !! .

★ ★ ★

ولقد اشفق « عبد الناصر » من أن يصل إلى هذه النتيجة ، وقد نيه إلى الفارق العظيم بين قدرة « غاندى » فى استعمال الانجليزية .. حديثا ، وكتابة ، وخطابة ، وبين قدرته هو فى هذا المجال .

ولكن .. الحمد لله ، فإن « عبد الناصر » لم يسافر .

• عاصفة .. من ناحية السودان !

وللمرة الثالثة .. عرض مجلس الوزراء موضوعا سياسيا . ولكن .. على غير ارادة « عبد الناصر » ، فقد كان المجلس مجتمعاً في قصر القبة ، وكان من بين الوزراء نائب وزير لشئون السودان هو المرحوم عبد الفتاح حسن (احد الضباط الذين تعاونوا في موضوع السودان مع مجلس القيادة) .. وفي خلال انعقاد المجلس ، تبادل « عبد الناصر » مع المرحوم عبد الفتاح حسن بعض العبارات بصوت منخفض ، اذ لم تكن الغاية اشراك المجلس في الموضوع . ولكن هذا « الهمس الجانبي » طال بعض الشيء ، مما احوج طرفيه إلى رفع الصوت قليلا ، قليلا ، حتى أصبح من الممكن أن يسمعه سائر الأعضاء ولا سيما الذين كانوا قريبين من موضع الرئيس في الجلسة ، وكنت من هؤلاء ، ففهمت أن الأمر يتناول موقعا صغيرا على البحر الأحمر على الحدود المصرية - السودانية .. لا ادري اذا كان اسمه (رأس علم) أو (غلبة) - ولكنه ، على كل حال ، في هذا الموضوع . وفهمت أن السودانيين يعتقدون أن هذا الموقع سوداني ، وأن الجانب المصرى يعارضهم في هذا الاعتقاد ، وأن الأمور تأزمت بين الطرفين حتى كاد الموقف يشتد ، فقد ارسلت حكومة السودان قوة عسكرية . وكان رأى « عبد الناصر » أن يتشدّد المصريون مع السودانيين ، وأن يقابلوا القوة العسكرية السودانية بقوة تفوقها . فقلت - متداخلا في الحديث بغير دعوة من أحد : « المفهوم أن في السودان انتخابات ، والانتخابات بطبيعتها موسم للمزايدات ، والهلب الموقف على الحدود المصرية السودانية الجنوبية في هذه الفترة ، سيدعو جميع الأحزاب إلى التسابق في اظهار التمسك بهذا الموقع ، وستكون حماسة الأحزاب الموالية لمصر ، اشد من حماسة الأحزاب المعادية ، لأن نقطة ضعف الأحزاب الموالية أنهم يجاملون مصر على حساب السودان ، ولهذا ، فأنا اقترح أن نهدي الأمور على الحدود ما استطعنا ، ما دامت القوة السودانية لم نصل إلى الموقع المتنازع عليه ، فيبقى الأمر على حاله حتى تنتهى الانتخابات ، ونحل المشكلة بالتفاهم » . فرد على : « عبد الناصر » قائلا : « بل العكس هو الصحيح ، فإن الأحزاب الان تحشى جميعا أن تفضينا حتى لا تتدخل في الانتخابات ضدها .. وهذه الخشية ستجعلنا اقدر على الظفر بما نطلب .. » وعدت اشرح وجهة نظري بتفصيل أكبر .. واستمر الأخذ والرد فترة ، ثم انتهت المناقشة إلى أن صدرت اوامر « عبد الناصر » للمرحوم عبد الفتاح حسن ، بأن يتناول الموضوع بحزم .

وفي اليوم التالي ، علمت أن القوة المصرية التي أمرت بالتقدم ، وجدت نفسها أمام قوة سودانية ضخمة ، وأن الإصرار من جانب مصر ، لم يكن له إلا نتيجة واحدة هو أن يقوم بين مصر والسودان نزاع مسلح ، أى حرب - مهما تكن صغيرة - إلا أن احدا لم يكن يدري عاقبتها ، لو أن نارها اندلعت .

وتراجعت مصر .. وسط صراخ ، وتهديد من جميع الأحزاب السودانية وفي مقدمتها الأحزاب الاتحادية الموالية لمصر والمحبة لها .

ولما اعلنت هذه النتيجة لعبد الناصر ، اكتفى بقوله : (هارد لك) ولكن النتيجة ، في جملتها ، كانت سارة ، فقد ضبط « عبد الناصر » نفسه ، وكبح جماح غضبه .. ومرت العاصفة بسلام .

الفصل السادس

غاب أخطر
قرار في تاريخ
ثورة ٢٣ يوليو

مضت الأيام .. « جمال عبد الناصر » شديد الاطمئنان إلى أنه من المستحيلات أن تدخل بريطانيا في حرب ضدنا ، فقد كان يرى أن (مقامها) !! يمنعها من أن تخوض في قتال مع مصر ، كما أن حنكة رجالها ، وتمرسهم بشئون السياسة ، سيحول بينهم وبين أن يتورطوا في حماقة كحماقة غزو مصر ، في وقت تغير فيه الرأي العام العالمي ، ونشأت فيه الأمم المتحدة ، واشتد عود الاتحاد السوفيتي ، خصم الغرب العنيد ، والمتربص لأخطاء هذا الغرب .. للتنديد والتشهير بها ، وللإفادة والكسب منها .

ولكن الحرب ، مع ذلك ، وقعت .. وكانت بريطانيا - التي تأمرت ، بليل ، وبلا أدنى حياء ، مع فرنسا وإسرائيل - هي « قائدة حرب السويس » !.

وادلهمت الأمور ، وساد الظلام ، وأطبقت جحافل على « جمال عبد الناصر » حتى أحس بالحاجة إلى عون الأطباء ، وقد سمعت - نقلا عن المرحوم الدكتور أنور المفتي - أنه قال : « لقد انهار ايدن ، فاعملوا أقصى ما في وسعكم لكيلا أنهار مثله » كما سمعت - نقلا عن الدكتور أنور المفتي أيضا - أن من بين المواضع التي كان يشكو « عبد الناصر » ، رحمه الله ، منها أثناء هذه الأزمة : ألما في عنقه من الخلف ، وألما على جانبي الفم ، فعمل له الطبيب سر الألمين بأن العنق فيه « عصب الانتباه والتحفز » ، وأنه - لفرط انتباهه ، وتيقظه ، وترقبه في تلك الأيام العصيبة - أحس بهذا الألم الذي ظهر عندما ضعف الجسم وقلت مقاومته . أما الألم الذي كان يحس به في الموضعين الواقعين على جانبي الفم ، فقد نشأ من دوام الابتسام ، أو التظاهر به . فلما اعتكف « جمال » خلال الأزمة ، واسترخت عضلات الفم - كان لابد لهذا الألم من أن يظهر .

ساد اليأس كل ما حول « عبد الناصر » . فقد اضطر أن ينقل أسرته وأولاده إلى إحدى « الفيلات » التي كانت مملوكة لأحد أمراء البيت المالكة ، بعيدا عن مصر الجديدة . وقد سمعته يقول لـ زكريا محيي الدين : « الناس تود أن تخرج من القاهرة ، فسهلوا لهم سبل الخروج » .

في هذه الأثناء كانت مصر ، بصفة عامة ، هادئة .. غير منزوعة ، وغير متطيرة .. ولم يفكر أحد في الانقضااض على الحكومة . بل لم أسمع ألفاظ شائعة فيها ، كتلك الشماتة التي أعلنت عن نفسها ، وبشدة .. وصراحة .. بل وبضراوة ، في أعقاب حرب ٦٧ .. وقد أمطرت هذه الشماتة سيلاً عارماً من النكات المصرية الذائعة الصيت التي لا تدع محرماً ،

ولا محترما .. ولا صاحب مكانة ، أو قداسة ، إلا وتعبث به ، وتصوره كما يخلو لها في خيالها .
نزولا على مبدأ « القافية تعذر » .. وهو مبدأ شعبي معروف .

وعلى الرغم من أن عبد الناصر كان متأسكا .. إلا أن هذا التماسك كان يكلفه الكثير مما يصعب على أحد غيره احتاله ، ومما أحوج به ، في النهاية إلى دواء الطبيب ونصائحه . وقد ذهب ، عليه رحمة الله ، إلى الجامع الأزهر ليخطب هناك ، فكان - كعادته - هادئا ، لا يبدر منه قول ، ولا إشارة ، تنبئ عما في داخله من احتراق وتوتر .. وارتجل - على طريقتة الخاصة - خطبة تجمع بين العامية والعربية الفصحى ، كانت نبرته أعلى ، وحماسته أشد ، وكانت نظرات عينيه يتطاير منها لمن يدقق - شرر الغضب ، والضيق والقلق .

وقد استطاع « عبد الناصر » ، في تلك الخطبة ، أن يقول لجمهور المصلين ، ولجماهير مصر . والعالم العربي . والعالم كله ، إن ما ضربته طائرات بريطانيا وفرنسا على أرض المطارات المصرية ، إنما هو طائرات هيكلية .. قال ذلك ، وهو يعلم أنه لم يبق ، في مطارات مصر كلها ، عشر طائرات تستطيع أن تخلق في سماء القاهرة - دح عنك سماء سيناء - ولا شك أن تصرحيا كهذا ، لا بد وأن يكلف قائله جهدا عصبيا خارقا للطبيعة .

.. كان طبيعيا أن نفكر في المصير الذي توشك مصر أن تؤول إليه ، فهناك جماعات من المصريين ، تختلف نزعاتهم وميولهم وأهواؤهم .. منهم من كان يؤمل في أن يعود إليه ما فقدته من مال ومكانة ، ودور بارز في توجيه الأمور .. ولكنه يؤثر الحذر ، والالتئام ، لأن مصر - مهما كانت الأمور - تواجه أعداء خارجيين . وكلهم أعداء تقليديون لها . وقد عاشت مصر عصرها تكبرهم ، وتندد بهم ، وتهتف بسقوطهم وتهجر بعداوتهم .. ومن هنا ، لم يبد على هذه الجماعة ، قط ، أنهم ينتوون الحركة ، أو أنهم يفكرون في انتهاز الفرصة .

ولكن .. كان هناك فريق آخر ، رأى أن مصر مهددة بالخراب ، وبالرجوع إلى الوراء خطوات وخطوات .. فقد تدخل جيوش بريطانيا وفرنسا ، وربما جيوش إسرائيل ، القاهرة وربما فكر هؤلاء المعتدون أن يعيدوا النظام القديم . وربما تركوا للفتنة المجال لكي تنطلق فتعيث في مصر فسادا ، ليكون تأديب مصر على أيدي المصريين أنفسهم ، فإن وقع خراب ،

ونهب، وسلب .. كانت أيدي الإنجليز والفرنسيين، وحتى اليهود .. بريئة منه !!.

هذه الجماعة - تداولت ، في هدوء وخلوص نية ، وانتهت إلى أن أفضل الحلول لهذه الأزمة أن ينزل عبد الناصر عن الحكم ، ومعه زملاؤه أعضاء مجلس قيادة الثورة ، واعوانهم واتباعهم ، وأن ينادى بالرئيس السابق محمد نجيب رئيساً مؤقتاً للجمهورية ، ليدخل مع الغزاة في مفاوضة الغاية منها : ألا يدخل الغزاة القاهرة ، وألا يتقدموا في زحفهم . وأن يضمن لجمال عبد الناصر و اخوانه معاملة محترمة ، وخروجاً آمناً من مصر ، هم وزوجاتهم وعائلاتهم ، ومن يرغب في اللحاق بهم ، ثم احترام ماتم من اجراءات الثورة واصلاحاتها .. وفي مقدمتها النظام الجمهوري .. والإصلاح الزراعي .

ولم تجد هذه الجماعة التي لم أعلم ، حتى اليوم ، ممن كانت تتكون - مجرد كسل في السؤال - رجلاً منحتهم السماء شجاعة قلب الأسود ، سوى سليمان حافظ - نائب رئيس الوزراء في حكومة الرئيس محمد نجيب . ووزير الداخلية ووكيل مجلس الدولة من قبل - ولست استبعد ، إلا أن أنه كان من بين أعضاء هذه الجماعة الدكتور عبد الرزاق السنهوري ، القانوني العربي الأشهر ، ورئيس مجلس الدولة في أوائل عهد الثورة ، والدكتور بهي الدين بركات الذي كان رئيساً لمجلس النواب ولديوان المحاسبة في العهد الملكي .

توكل سليمان حافظ - كعادته - على الله ، وطلب موعداً من مكتب عبد الناصر ، ليأخذ رأيه في هذه المحاولة ، ولكن عبد الناصر رفض أن يحدد له موعداً لأنه - أي عبد الناصر - لم يكن يملك - في تلك الظروف - من الوقت ، ولا من الأعصاب ، ما يسمح له بأن يلقي رجلاً كسليمان حافظ .. هادئ الأعصاب إلى حد البرود ، بطيء الكلام نوعاً ، عميق التحليل للأمور والألفاظ . ولم يكن عبد الناصر ليتصور أن وراء سليمان حافظ شيئاً ذا بال يخرج منه الأزمة .. فأحاله إلى زميله عبد اللطيف البغدادي ..

وذهب سليمان حافظ إلى البغدادي بنفس الهدوء الذي ذهب به إلى الملك فاروق ظهر يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ ، حاملاً له وثيقة النزول عن العرش .. ولا شك أن ذهاب سليمان حافظ إلى قصر رأس التين في ذلك اليوم ، وهو يتنعل حذاء أبيض ، وبنطلونا رمادياً ، وجاكته من التيل الأبيض ، ويتأبط وثيقة نزول الملك عن العرش ، كان أشبه شيء بطفل

وديع يدخل برجليه إلى عرين الأسد ، ليعبث بشواربه ، أو يشده من ذيله .

فقد كان قصر رأس التين هو قصر الملك .. كان في كل ثنية ، وحنية من ثساياه ، وحنياه ، جندي مسلح من الحرس الملكي ، أو موظف من الخاصة الملكية ، يمكن أن يدفعه حقله على الثورة ، وولاؤه للملك ، إلى القضاء على سليمان حافظ بضربة واحدة ، وبأى وسيلة كانت .. وما من راء . ولا سميع ، ولا شاهد .

بنفس هذا الهدوء .. ذهب سليمان حافظ إلى عبد اللطيف البغدادى ، ورشف فنجان القهوة الذى قدم له ، وأخذ يدخن سيجارته المصرية الرفيعة والمتواضعة ووضع ساقه النحيفة ، فوق ساق ، وقال بطريقته : « أيوه .. يا أخ عبد اللطيف .. علوزك تسمع كلامى لايجره ، وتفهم أنى حثت من أجل المصلحة العامة .. مصلحة البلد كلها ومصلحتكم أيضا .. » .

واستمع البغدادى لاقتراح سليمان حافظ حتى نهايته . ثم قال له فى حدة : « لولا أنك فى بيتى لطردتك » .

ولم يرد سليمان حافظ أن يشعر بالأهانة ، ولم يغضب لها ، ولم يفقد حلمه ، وإنما أعاد الكلام بنفس الهدوء ، وكرر العرض ، ثم خرج ، لا تطرف له عين ولا يهتز فيه عصب .

إن الحكم الوطنى الخالص على هذا التصرف - من جانب رجل عاش حياته وعقيدة الحزب الوطنى تملأ قلبه ، وتملك عليه زمام نفسه - لا بد وأن يكون حكما قاسيا - وإن كانت بواعث سليمان هى انقى ، وأظهر البواعث - فقد كان ، ولا شك ، مشفقاً على بلاده من عواقب هذه الغزوة الثنارية الصليبية . ولكن الحزب الوطنى يؤمن بأن حظ الوطن ، دائما ، أن يكون مستعدا للملاقاة الشدائد ، وأهوال الصراع مع العدو .. فإن فى ذلك - اخر الأمر - النجاة ، وإن بدت خطوة مخوفة بالمخاطر ، وبعيدة عن الحكمة .. وايقضا عن المرونة السياسية .

وخطأ اقتراح سليمان حافظ كائن فى أنه - أولا- يعزل قائد المعركة ، واران حربيه .. بينما المعركة لا تزال دائرة ، ثم انه - ثانيا - يحقق للأعداء - على قذارة مؤامراتهم ، ونذالة عدوانهم - غرضا من أهم أغراض الغزوة ، وهو اسقاط عبد الناصر .. تأديبا له ، ولجميع

ولقد كان من حق عبد الناصر ، بلا شك ، أن يقبض على سليمان حافظ وعلى من أوفدوه . وكان من حقه ، بلا شك ، أن يحاكمهم محاكمة سريعة بتهمة الدعوة إلى الهزيمة . ولكن عبد الناصر ، في تلك الفترة ، كان أضعف من أن يقدم على شيء من هذا .. ولعل أعظم ما أضعفه ، أنه كان يرى الخطر محققا به من كل جانب وربما جال في خاطره أنه قد يحتاج ، غدا إلى مثل هذه الوساطة المرفوضة الآن .

زال الخطر .. وتدخلت الولايات المتحدة ، في الأمم المتحدة ، لتضع حداً للغزو الانجليزى - الفرنسى - الاسرائيلى .. وذهب ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة ، بنفسه ، إلى مقر الجمعية العمومية ليدفع الحملة البريطانية - الفرنسية - الاسرائيلية بأقبح النعوت .. وتعلمت لندن وباريس .. ولكنهما أدركتا أن زعيمة الغرب تعمل في نهاية الأمر ، لصالح الغرب - رغم المنافسات داخل المعسكر الغربى - وأن هذه الحماقة ، يجب أن تنتهى على وجه أو آخر ، وأنه اذا ترك الباب مفتوحا في هذه الأزمة . فإن أول من سيدخل من هذا الباب المفتوح هو الاتحاد السوفيتى . واطمأن عبد الناصر على مكانه رئيسا مصر ، وزعيما لشعبها .. وعندئذ تذكر أن سليمان حافظ جاء ، في هذه المحنة ، يعرض ذلك العرض الذى يمكن أن يتلخص في كلمتين : عبد الناصر يذهب .

والقى القبض على سليمان حافظ . وزج به في المعتقل ، بينما أنا عضو في الوزارة لا أدرى من ذلك قليلا ولا كثيرا .

حتى كان مساء أحد الأيام ، ورن التليفون في منزلى ، وكانت المتكلمة ، سيدة قالت انها شقيقة سليمان حافظ .. فتبادر إلى ذهنى على الفور خاطر غاية في السوء . فقد اشفت أن يكون سليمان حافظ قد فارق دنيانا ، اذ لم يحدث أن كلمتنى شقيقة سليمان من قبل .. واستتعت إليها ، وعلمت أنها عاتبة على ، لأن سليمان حافظ في المعتقل .. بينما أنا في الوزارة . واحسست بألم ، وباهانة معا : صحيح - يعلم الله - أنتى لم أكن أعلم .. ولكن عدم علمى ، هو شئ في مثل سوء علمى و سكوتى .. فأقسمت لها بأن عهدى بهذا

الذى تقوله ، هو اللحظة التى تخاطبني فيها . وقلت لها : « اطمئني يا سيدتى سليمان حافظ سيفرج عنه بعد غد على الأكثر .. وإلا فستريننى خارج الوزارة » .

وانتويت أن يكون شاغلي الوحيد فى اليوم التالى ، هو العمل للافراج عن سليمان حافظ .. ولكننا دعينا للذهاب من منازلنا إلى مطار القاهرة لاستقبال ضيفا ما . وذهبت إلى المطار ، وأنا أكاد أكلم نفسى فى الطريق بصوت عال : « كيف حدث هذا ؟ .. أوصلت الأمور إلى هذا الحد .. وكيف ؟ » .

وهكذا .. إلى أن وصلت إلى المطار ، وهناك بحثت عن زكريا محيى الدين ، فلما وجدته ، اسرعت إليه متجهما .. فقال : « خير .. ؟ » قلت : « لم يبق خير .. » فضحك زكريا وقال متسائلا : « ليه .. ؟ .. ليه .. ؟ » فقلت له : « سليمان حافظ معتقل منذ مدة .. » فقال - بهدوء التقليدى - : « إيه .. ألم تكن تعرف ؟ .. » قلت : « وكيف أعرف ؟ .. أما كان الواجب أن نخطر على الأقل باعتقال رجل كسليمان حافظ ، كان وزيرا للدخلية مثلك ، ونائب رئيس الوزراء ، واقترن اسمه بسقوط الملك » ..

عندئذ - روى زكريا محيى الدين ما حدث من سليمان حافظ .. وكانت هذه الرواية أول ما صافح أذنى فى هذا الصدد .

والحق صعقت . ورحت ، كمن يهذى ، أردد : « سليمان فعل هذا .. فعل هذا بالضبط .. لكن سليمان لا يؤمن بهذه الأساليب » .

وأفقت من الصدمة ، وتماكنت جأشى ، وقلت لزكريا ، فى عبارات غاية فى الإيجاز . « لو أنكم قبضتم على سليمان حافظ وأطلقتم عليه ، وعلى من معه النار فى ميدان من ميادين القاهرة ، لبكيت عليه طول حياتي .. ولكن لما لمتكم أبدا .. فمصر كانت فى حرب ، ومثل هذه الدعوة من رجل مثله ، استمزام مرفوض ، وخطر على معنوية الشعب والجيش معا . أما وقد مرت الأزمة . وخرج الأعداء ، وزالت مبررات القرار الاستثنائي ، فإن اعتقال سليمان حافظ يصبح شيئا من قبيل النكابة ، أو الثأر السياسى ، الذى لا يجوز من رجال مثلكم مع رجل مثله . لاتخرجنى يا أخ زكريا وأطلق سراح سليمان حافظ » .

وكان زكريا محيى الدين كعمهدى به .. منطقيا ، وحسن التدبير ، فما لبث أن أفرج

عن سليمان حافظ .

وفي المساء ، اتصلت بشقيقته لأطمئنها ، وكم كانت فرحتي اذ قالت لي : « سليمان في منزله » .

ومضت أيام .. وأيام ، التقيت بعدها بسليمان حافظ وقلت له : « بلغني أنك كنت عاتبا على اذ قصرت في حقك » .. فقال : « ابدأ .. من قال ذلك » قلت : « شقيقتك » .. فقال بهدوئه الساخر : « ليس لي أخت » .. فهتفت : « كيف ؟. كيف وهي التي اخبرتني باعتقالك ، ولامتني على تقصيري » .

فقال : « هي انتحلت هذه القراة لتكلمك » .. فقلت : « على كل حال .. لقد عملت عملا مشكورا » .

ولابد لي هنا من أن أذكر ملاحظتين تتعلقان بخديتي ذاك مع زكريا محيي الدين :

● الأولى : أن زكريا أراد أن يدلل على أن سليمان حافظ رجل حقود فقال : « تصور يا فتحي أنه يكتب إلى مدير المعتقل السيد مدير المعتقل أرجو أن ترسلوا لي وزير الداخلية .. يعني أنه يسمى مدير المعتقل - وهو ضابط صغير - سيدا ، ويجردني أنا من هذا اللقب » .. فقلت له : « هذا من حقه . فمدير المعتقل موظف يؤدي واجبه ، وهو لم يعتقله .. أما أنت فرميل سابق له .. ثم أنت المسئول عن اعتقاله » .. فضحك زكريا .. وقال : « نهايته .. سليمان لا يخطيء أبدا » .

● أما الملاحظة الثانية : فهي عبارة قالها وزير شهد حديثي مع زكريا ودفاعي عن سليمان وقولي له : « إن ما يقطع بحسن نية سليمان ، وبوطنيته أنه جاء اليكم .. اليكم أنتم ، وأبدى الاقتراح في حجرة مغلقة .. فهو لم يقف على قارعة الطريق ، أو في ناد ليشرح اقتراحه .. هذه ليست مؤامرة مع أحد » .. فإذا الوزير المدني - ولاتنس أنه كان زميل سليمان حافظ في مدرسة الحقوق منذ أربعين سنة سابقة على هذا الحديث - يقول « سليمان حافظ لا يقدم على مؤامرة ، وانما يحرض غيره .. ويختفي » .. فصرخت في وجهه - رحمه الله - أهذا دفاع .. أم تأييد للاتهام !!!.

ولا تزال في جعبة أحداث تلك الفترة ، حادثة طريفة لم اسمع بها من قبل ولم يسمع بها

على ما أظن أحد ، وقد وصلت إلى علمي في الصيف الأسبق فقط ، حينما استند الحديث ،
 واتسعت دائرته ، حول موت المشير عبد الحكيم عامر .. وهل مات مقتولا .. أم منتحرا ..
 وهل مات بالسم أم بغيره .. وذكر ، فيما ذكر ، اسم صلاح نصر وسمومه .. فهذه المناسبة
 تحدث عبد اللطيف البغدادي إلى الأخ الدكتور نور الدين طراف فقال : « عندما تبين أن
 الانجليز والفرنسيين ، في خريف سنة ١٩٥٦ ، مصممون على الزحف إلى القاهرة ، وأن
 الجيش لم يعد في مقدوره رد عاديهم عن العاصمة ، وأن الوساطات الدولية وقرارات الأمم
 المتحدة لم تعد . وبدأ المستقبل مظلماً شديداً الحلوكة .. فقد صلاح سالم انتحر قطره
 من معنوياته وتماسكه ، واقترح أن يتناول أعضاء مجلس قيادة الثورة سما زعافاً سريع المفعول
 لكيلا يقعوا في يد الانجليز والفرنسيين والأسرائيليين ، فيتخذوا منهم فرائس للانتقام
 والتشفي ، وينتهزها أعداء الثورة - من كل صنف ونوع - فرصة لثأروا لأنفسهم من أولاد
 وبنات وذوى قرى عبد الناصر وأخوانه . ووافق الحاضرون جميعاً ، على هذا الاقتراح .. ولم
 يحل دون تنفيذه إلا غياب البغدادي الذي لم يكن حضر ذلك الاجتماع .. فأرسلوا إلى صلاح
 نصر ليجهز السم المطلوب وإلى عبد اللطيف البغدادي ليبدى رأيه في الاقتراح .. وفي حلال
 البحث في الأمرين معا .. جاءت الأنباء من نيويورك .. بما لا يدع مجالاً لمثل هذا اليأس
 القاتل ..

الفصل السابع

يوم وقعتنا
ميثاق الوحدة
مع سوريا

كان ذلك في اليوم الحادى والثلاثين من يناير سنة ١٩٥٨ . وعلى الرغم من أن اخر شهر يناير ، أول شهر فبراير ، في القاهرة ، يعتبر من شهور البرد ، إلا أن ذلك اليوم كان مشمساً ، ودافئاً ، كأنه من أيام الخريف الجميل في مصر ، الذى يعادل أيام الربيع في أوروبا . وكان اجتماع مندوبى الدولتين والشعبين : مصر وسوريا .. في قصر القبة ، في ضاحية غير بعيدة عن قلب العاصمة ، وتوافد المندوبون إلى حديقة القصر الجميلة ، وهى الحديقة التى أنشأها الخديو اسماعيل منذ قرن أو يزيد . وقد وقفت في شرفة الدور الأول من أدوار القصر ، انظر إلى المندوبين السوريين يتقدمون نحو القصر في خطى بطيئة ، وليس على وجوههم أى أنفعال ، فلاهم في فرح ولا هم في حزن ، ولا هم في توجس .. كأنهم مستسلمون لقدر غير واضح . وقد بدأ لى من خطى « صبرى العسلى » - بصفة خاصة - أنه لا يجد فيما يجرى .. أو فيما يعد ، ما يدعو إلى الأبتهاج والنشاط ، وأنه لو استطاع أن يمنع وقوع هذا الذى يجرى .. لما تأخر !!.

أما الجانب المصرى .. فقد كان في حال اخر . كان القلق ، وانشغال البال ، والحيرة ، هى المشاعر السائدة . وفي حجرة من حجرات القصر سمعت « على صبرى » يقول لآخر : « لقد وضعونا في مأزق » .. فقد قال السوريون انه إن لم تتم الوحدة ، سقطت سوريا في يد الشيوعيين .

ولعل من طرائف التاريخ أن الذى كان يقول ذلك ، هو الضابط الذى قيل فيما بعد ، انه السياسى الذى وقع عليه اختيار الاتحاد السوفيتى ليقود السفينة المصرية - أى سفينة سياسة مصر !! أما أنا .. فقد كان لى أزمة خاصة لى ، فقد ترددت في أن ألبى الدعوة إلى « اجتماع القبة » لسبب لا يمت بصلة إلى موضوع الاجتماع ، أى إلى موضوع الوحدة المصرية السورية ولا لأى أمر يخر يتصل بالرجال الذين اجتمعوا في هذا المكان .. سواء كانوا من الفريق المصرى أو من الفريق السورى ، بل لأمر آخر وقع بالصدفة في اليوم السابق لهذا الاجتماع . ولذلك ، لقد بادرت « عبد الناصر » حينما سألتى : « ما رأيك في موضوع الوحدة؟ » قائلاً :

- رأى أنه ما كان يجب على أن أحضر اليوم .

فهم « عبد الناصر » أن هذا الرد معناه أنى معترض على الوحدة إلى حد النفور من مجرد

الاجتماع المخصص لتوقيع مراسمتها . ولكنى أضفت قائلا :

- كيف يمكن أن ألبى الدعوة لهذا الاجتماع ، وهو مقصور على الوزراء وأنا لم أعد وزيرا ؟.

فعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه ، وهو يكاد يقول لى « إن المناسبة تسمح بالمزاح » .
ولكنى لم أدع له فرصة للاستفسار . فقلت له :

- لقد أصدرت أمس قرارا جمهوريا بعزلى .

واسترسلت فى الكلام :

- تذكر سيادتكم أننى اقترحت إدخال تعديل على « قانون المؤسسات العامة » لأن القانون القائم يضمن « للمؤسسات العامة » استقلالاً تاماً عن الوزير ، وهذا الاستقلال هو ركن من أركان نظام هذه المؤسسات خارج مصر ، ولكن الأوضاع الدستورية فى مصر لا تسمح بهذا الاستقلال ، لأن الوزير هو المسئول عن تسيير وزارته ، فإذا حللنا هذه الوزارة إلى مؤسسات ، وجعلنا كل مؤسسة دولة قائمة بذاتها ، لا يملك الوزير عليها سلطاناً ، كانت مسئولية الوزراء عبثاً لا معنى له ، وانعدمت وسيلة مراقبة ومساءلة هذه المؤسسات .. ولذلك فأنا أريد أن أضيق نطاق تدخل الوزير فى توجيه أعمال المؤسسات بتقرير حقه فى الاعتراض المحدد المكتوب على قرار يعينه يصدره مجلس إدارة المؤسسة .. فإن تمسك المجلس - ممثلاً فى ثلثى أعضائه - بالقرار محل الاعتراض ، تحمل الوزير المسئولية ، وأصبح واضحاً أن قراره كان محل معارضة من المجلس . وهذا يجعل الوزير حذراً فى الإصرار على رأيه ، ويبقى المسئولية الوزارية فى حدودها .. واذكر أن هذا النظر من جانبى كان يحمل موافقة من سيادتكم ، ومن مجلس الوزراء ، ومن لجان مجلس الأمة المختصة . وقد أرسلنا التعديل بقرار جمهورى منك إلى المجلس ، وتحدد لنظره جلسة . إلا أننى فوجئت بالأمس وأنا فى المجلس ، بأن قراراً جمهورياً آخر صدر منك بسحب القرار الجمهورى الأول الذى وافق على التعديل الذى اقترحته . لم أسمع بهذا القرار يا سيادة الرئيس ، ولم يخطرئى به أحد . ولم أعرف ما الذى دعا إليه .. ومعنى ذلك أن سياستى ، أو تصرفاتى ، ليست محل موافقتك ورضاك ، وأننى حصلت - بطريقة ما - على هذه الموافقة .

وهنا نفد صبر الرئيس جمال . وكان مهموماً ، مشتت البال ، وقلقا فى هذه المناسبة ..

مناسبة الوحدة التي فاجأته على غير توقع ، وأربكته ، وغيّرت مساره .. فقاطعتى بشيء من الحدة :

- ألم توافق أنت على سحب تعديلك ؟. ألم يكن القرار الجمهورى الثانى محل مناقشة بينك وبين « فهمى » ؟.

فأجبت متسائلا :

- فهمى .. وما شأن فهمى ؟ (« فهمى » هذا هو المرحوم محمد فهمى السيد ، زوج بنت شقيقة السيدة الفاضلة حرم الرئيس عبد الناصر - وكان فى ذلك الحين ، مستشارا بمجلس الدولة . وكان قد أصبح « ممثل الرئيس » فى مجال القانون والقانونيين . وكان كل ما يتم من تعيين للقضاة والمستشارين وتعديل فى القوانين واصدار لها - من عمله) . ولما كان قانون المؤسسات العامة من وضعه ، فقد اعتبر أن اجراء تعديل فيه ، من غير موافقته .. أو على الأقل استئذانه ، اعتداء على اختصاصاته وسلطاته ولذا ، فإنه حينما علم بالتعديل الذى أدخلته على ذلك القانون ، ذهب إلى الرئيس جمال وأفهمه أن هذا التعديل يعنى هدمًا للمؤسسات العامة من أساسها .. فقال له الرئيس جمال : لا تصدع رأسى .. اذهب إلى فتحى رضوان وناقش الأمر معه ، وما تنتهيان إليه إعمالا به ، وسأصدر من القرارات ما ينفذ ما تتفقان عليه .

لقد كان الواجب على (فهمى السيد) أن يأتى إلى . ولكنه خشى أن يصارحنى بما قام به من وراء ظهرى . وكان يعلم أنه لن يستطيع أن يصمد فى الجدل معى فى هذه القضية . ولهذا ، ذهب إلى المرحوم أحمد حسنى ، وزير العدل - وقتئذ - واستعاده على ، وحصل منه على موافقة على رأيه . ثم ذهب إلى الرئيس جمال وقال له : « لقد اتفقنا »!

وظن الرئيس جمال ، عليه رحمة الله ، أن (اتفقنا) هذه تتصرف إلى ، وإلى « فهمى » .. فلما أطلعته ، ونحن فى قصر القبة على الحقيقة ، وفهم أن صهره لم يفتأحنى فى هذا الموضوع اطلاقا ، نسى موضوع الوحدة ، ونسى القلق الذى كان يساوره ، وجرى ناحية عبد اللطيف البغدادى ، وكان ، إنذاك رئيسا لمجلس الأمة ، وسأله :

- ألا يمكن سحب القرار الجمهورى الخاص بقانون المؤسسات والمتضمن العدول

عن تنقيح هذا القانون ؟.

فقال له « بغدادى » :

- لقد نفذ السهم .. فالمجلس وافق على السحب فى جلسة أمس كما أخبرك فتحى رضوان .

وعاد إلى الرئيس جمال كاسف البال ، حزينا ، كأن موضوع الوحدة قد فشل ، وتهاوى قطعاً على الأرض . وأمسك ييدى ، (ولعبد الناصر ، فى فترات الصفاء النفسى ، عادة الأمساك بيد أصحابه ، أو ضيوفه ، أو من يود مجاملتهم) وعندها يحس من أمسك « عبد الناصر » ييده بأن « تياراً » من العطف ، والود ، والمحبة قد سرى إلى يده هو - أمسك « عبد الناصر » ييدى بهذه الطريقة الودود. المؤثرة ، وقال :

- أرجوك إنس هذا ، فأنا اليوم فى حاجة إلى صفاء عقلك .. وأقسم لك أن « فهمى » افهمنى أنه اتصل بك ، وتحدث اليك طويلا ، وحصل على موافقتك وماذا أفعل .. وهذا هو حال الناس ؟!..

وجذبني « عبد الناصر » ، نحو قاعة الاجتماع . وكان قد أرسل يدعو « فهمى السيد » ، الذى جاء وقد علا وجهه اخضرار ، وبهتت شفتاه ، فبادره عبد الناصر :

- ألم تقل لى أنك تفاهمت مع السيد فتحى رضوان ::

وقبل أن ينطق « فهمى » - رحمه الله - أشار عبد الناصر اليه بأصبع مرتعشة من شدة الغضب قائلا : « اذهب .. ثم التفت الى ، وقد زالت من فوق وجهه علام الغضب وقال :
- المهم الان ما هو رأيك فى الوحدة ؟.

فقلت له على الفور :

- الوحدة ، فى ذاتها ، ليست محلاً لاعتراضى .. ولا يمكن أن تكون محلاً لاعتراضى ، وإنما الاعتراض قائم على ملاساتها ، هل الظروف فى سوريا مواتية ؟.. هل الظروف فى المجال العربى تسمح ؟.. هل الظروف فى مصر تأذن ؟.

فالتفت الى ، رحمه الله ، بكل وجهه ، وقال :

- وما رأيك أنت .. هل هذه الظروف كلها تسمح ؟.

فقلت :

- النظرة العجلى لا تكفى مطلقا . وهذه الخطوات الضخمة لا تتم إلا بتمهيد طويل ، فقاطعتنى :

- لو سبق هذه الخطوة تمهيد ، لما تمت فى جيلنا .. وأنا معك فى كل ما تقول . ولكن .. هذا هو قدرنا . فلقد رفض السوريون رفضا باتا أى تأجيل ورفضوا منحنا فرصة نتنفس فيها ، نفكر .. وقد قبلت .. وقلت ، هى خطوة قررها الله لنا فلنتوكل .. وليكن ما يكون .

وهنا بدت على وجهه علامة قلق خفيفة جعلتنى أشفق عليه ، وقد كان بودى ، لو استطعت ، أن أضمه إلى صدرى وأعانقه طويلا ، وأن أقبل جبهته ، فقد قدرت مقدار ما يعانیه فى هذه اللحظة . وأردت أن أسرى عنه ، فقلت :

- إن ما يحدث لك الان ، لم يحدث من قبل لرجل آخر فى التاريخ .. ربما حدث شيء مشابه « لبرنادوت » .. فشررد بذهنه وقال :

- من يكون برنادوت ؟.

قلت :

- إنه رأس الأسرة المالكة السويدية ، وقد كان ضابطا مثلك .. وكان طويلا كطولك ، وقد اجتاحت السويد إلى ملك ، فأرسلوا بعثة إلى فرنسا للبحث عن ملك ، فوقع اختيار البعثة على (جنرال) من جنرالات نابليون ، كان طويل القامة ، حسن تقاطيع الوجه ، وكان رجلا من القلائل الذين كانوا يعارضون نابليون ولا يخافون منه . وذهب الجنرال برنادوت ليتوج ملكا على بلد لم يسبق له أن زارها ، ولم تكن معلوماته فى الجغرافيا ، بصفة عامة ، جيدة ، فكان ما يعلمه عن السويد أقل من القليل .

وضحك عبد الناصر ضحكة صادقة ، وقال :

- تبدو خالى البال ، مستعدا . أن تقص القصص . المهم ما رأيك فى الوحدة ؟.

فاسترسلت في الحديث .

– أنت غدا ستكون رئيس دولة سوريا . وأنت لم تضع قدمك فيها ، ولا تعرف الكثير عنها .. ولم تفكر ، من جانبك ، في هذه الخطوة ، اذن – هي ارادة الله ، كما قلت ، فلتتوكل عليه .

وترك رحمه الله يدي قليلا ، ووضعها على كتفي ، وقال :

– اذن أنت لست قلقا ؟ ..

فأجبته :

– مواجهة الجديد تستدعي القلق ، وتدعو إلى التردد . ولكن بعد المواجهة ، يبدأ الإنسان . اسمع ياسيادة الرئيس ، بجانب الوحدة ، المصريون زراعيون ، في دمهم ما يدعو إلى الاستقرار ، والمحافضة ، وكراهية الحركة .. والسوريون تجار .. ميالون للحركة ، قليلو الاستقرار ، ففعل هذه المواجهة ، تنقل إلى المصريين بعض خصائص السوريين .. في أول الأمر سيشكو التجار المصريون من شدة منافسة التجار السوريين . ولكن ستحصل المزاجية ، وسيصعب علينا أن نعرف من المصري ومن السوري . فالتجار السوريون أمثال « الشوريجي » .. و« حلاوة » .. و« الحلبي » .. و« الحلبوني » تزوجوا من مصريات واصبحوا هم أنفسهم مصريين يقولون عن أهل سوريا : « هؤلاء الشوام » ! ..

فضحك « عبد الناصر » وبدا أن نفسه « انبسطت » وأن قلقه خف ، وقال لي :

– صلاح البيطار قال لي : يا سيادة الرئيس الإنسان عند نزول البيسين (حوض السباحة) يخاف من الماء ، فإذا قفز اليه زالت صدمة المجازفة فقلت له : يا أخ صلاح ، أنا خائف ألا يكون في حوض السباحة ماء أصلا .

وجذبنى ، رحمه الله ، واتجه إلى قاعة الاجتماعات . وهو أحسن حالا ، وأكثر استبشارا ، وجلس على رأس المائدة ، وكان أول ما قاله ، موجها الحديث إلى الرئيس شكرى القوتلى رئيس جمهورية سوريا آنذاك : « الناس في مصر يقولون أن التجار السوريين سيغزون البلاد » .. فقال الرئيس شكرى القوتلى : « لقد خلصتم من اليوناني ، والطليلاني .. وسيطلع لكم السوري » .. وضحك الجميع .

ثم دار الكلام ، بعد ذلك حول « الوزارة المركزية » . و « الوزارة المحلية » أو « الأقليمية » ، فأقترحت في هذا الصدد أمرا ، وذكرت في أثناء عرضه نظام « البريديوم » في الاتحاد السوفيتي ، فإذا بجمال عبد الناصر يتصدى لي ، ويفند رأيي ويقول : « فتنحي رضوان عايز (يخمن) . المسألة دى فيها (خم) .. » ولفظ (يخمن) هو لفظ دارج لم يستعمل في مصر إلا حديثا ، ومعناه « يستغفل » .

ولست أذكر ، الان ، تفاصيل اقتراحى ، ولا حتى جوهره .. ولكن الذى أذكره أنى يومها لم أرد بما قلت إستغفالا لأحد .. ولا أحسبني تجاوزت الصواب .

انتهى البحث في الجلسة الموسعة التى ضمت أعضاء الجانبين المصرى والسورى والرئيس عبد الناصر والقوتلى إلى تأليف لجنة لصياغة بيان الوحدة . وقد شكلت اللجنة من « على صبرى » .. ومنى .. ممثلين للمصريين ومن « عفيف البزرى » .. و « صلاح البيطار » ممثلين للسوريين ، واتفقنا على أن نجتمع فى المساء لنضع البيان .

ولقد كانت كتابة بيان ، من عشرين سطرا ، أو ثلاثين ، عملا شاقا ، حتى لقد كاد الفجر يطلع علينا ، ونحن ما نزال نضع كلمة ونحذفها ، ونقرأ سطرا ثم نلغيه . وشعر « على صبرى » بالسأم ، ثم بالتعب .. فقام وقال « افعل معهم ما شئت . فأنا موافق ، سلفا ، على ما ستوافقون عليه » .

وبعد قليل شعر العضوان السوريان بالتعب فقاما ، وتركالى مهمة اعداد البيان ، على أن نقرأه فى الغد صباحا قبل الاجتماع الشامل عند الظهيرة .

كان الاتفاق ، قبل انفضاض اجتماعنا ، ان نلتقى فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى . ولما كانت الثامنة ، وجدتنى لم أحظ فى الليلة السابقة إلا بنحو ثلاث ساعات من النوم ، وأحبست بأن رأسى تدور ، فتمهلث قليلا ، وحاولت أن أنبه نفسى بحمام ساخن وبعض الاسترخاء ، ثم وصلت إلى قصر القبة فى الساعة التاسعة وفى جيبي مشروع البيان ، وأنا ساخط عليه لأنى لم أشعر بالحرية وأنا اكتبه لكثرة ما سبق بالأمس فى اللجنة الرباعية ، من جانب السوريين ، من تحفظات . وكم كانت دهشتى أنى لم أجد أحدا منهم .. مع أنى كنت أصعد درجات سلم الدور الأول فى قصر القبة ، وأنا أكاد انكفىء على وجهى ، خوفا

من أن يطول انتظار باقى الأعضاء لى . وقد بقيت وحدى اثناىب واطمئى ، حتى جاوزت الساعة العاشرة فاجتمعت اللجنة الثلاثية - لا الرباعية - لأن « على صبرى » لم يحضر .. حتى كان الاجتماع الموسع .

ولقد حدث أثناء انعقاد اللجنة الثلاثية ، وكان معنا بعض الموظفين المصرين فى رئاسة مجلس الوزراء ، وفى وزارة الخارجية ، أن دفع باب الحجرة التى كنا نجتمع فيها برفق ، وظهر من خلف الباب الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرية . فلما رأنا أغلق الباب بسرعة ، وكأنه أتى أمرا إذا (مستنكرا) !! .

كانت هذه الحركة من جانب الدكتور محمود فوزى كافية لأن تثير « عفيف البزرى » - وكان ، على ما أذكر ، قائد الجيش ووزير حرية سوريا - فقد صرخ : « كيف .. كيف سيدى ! وزير الخارجية المصرية يتخرج من أن يدخل علينا وأن يسألنا إلى ما وصلنا ، ويمنعنا بعض توجيهاته ، أليس ذوبان بلده فى كيان أكبر عملا من أخص خصائص الخارجية . ما يبصر هذا » .

فرد عليه « البيطار » : « ولكن الدكتور فوزى يعلم أن المجتمعين شكلوا لجنة رباعية لوضع البيان ، فلا يجوز له أن يقمحم نفسه على هذه اللجنة » .. فأنار هذا الرد ، « البزرى » أكثر مما أثاره تصرف الدكتور فوزى ، وعلا صوته وقال : « لجنة .. لجنة .. لجنة سيدى ما فى اللجنة سر على عضو فى الاجتماع الأكبر ، ولا عليه ، وهو وزير الخارجية . تأليف اللجنة هو إجراء عملى فقط .. ولكن هذه الخطأ ، خطة البعد عن مواطن المسئولية ، وإثارة العافية والصمت ، هى عيوب فى كبار رجالنا الفنين ، وهذا ما أغضبنى » .

★ ★ ★

كان ذلك داعيا لأن نترك البيان لفترة غير قصيرة لمناقشة شخصية الدكتور فوزى ، وقد انضم إلينا فى الحديث الموظفون الفنيون الذين كانوا معنا فى الحجرة وقد بدأوا الحديث أول الأمر على استحياء ، ثم لما اطمأنوا إلى أن أحدا لم يمنعهم .. أفاضوا فى الحديث عن أسلوب الدكتور فوزى وخطته . وذكروا أنه ترك وزارة الخارجية للسيد حسين ذو الفقار - وكيلها - وأنه تقريبا لا يأتى إلى مكتبه ، وأن سكرتيره الخاص نقل فى إحدى حركات

التنقلات دون أن يعرف الدكتور فوزى !! فضلا عن أن يستأذن في ذلك ، وأن السفير حسين غالب رشدى - وكان سفيرا لمصر في اسبانيا - خرج ذات يوم من لدى وزير الخارجية ، الدكتور فوزى ، بعد أن سمع منه ثناء جما على عمله ، ووعدا بأنه سينقل ، في الحركة القادمة ، إلى مكان أفضل من أسبانيا فإذا به يفاجأ بأنه فصل من السلك السياسى كله !!.

وقال آخر : « إن هذا شأن كبار الدبلوماسيين .. فإن (تاليران) عمل مع الثورة الفرنسية .. ومع نابليون ومع ملكية البوربون بعد سقوط نابليون » . وهنا صاح صائح من السوريين قائلا : « تاليران كان قادرا على الاحتفاظ بمركزه لدهائه ، ومرونته ، وتكيفه . ولكنه كان شخصية فعالة تبدى رأيا ولا تصمت وتكافح وتداول وتناور » . وبالف أأدهم فى الحملة على الدكتور فوزى فقال : « أنه يأبى أن يحمل ساعة فى يده أو جيبه لكى لا يسأله أأدهم كم الساعة ، فيضطر إلى الأجابة » !!.

وذكر ثان أنه سمع من أأد أعضاء مجلس قيادة الثورة أنه لا يذكر أنه سمع صوت الدكتور فوزى ، ولذلك فهو لا يعرفه .

وقال ثالث : « من الغرائب أن الكثيرين يحملون على سياسة عبد الناصر الخارجية ، ويسمونأها بالحماقة والإندفاع وعدم التخطيط والسطحية .. ومع ذلك ، يتحدثون ، فى نفس الوقت ، عن كفاءة وعبقرية الدكتور فوزى وزير الخارجية ، وهو إما أن يكون واضع هذه السياسة الخارجية . فيتحمل وزرها .. وإما أن يكون لا رأى له فى سياسة بلاده الخارجية فينتفى - أساسا - القول بكفاءته وبراعته والمعيته » .

ووجد الأعضاء صعوبة فى العودة إلى أصل الموضوع .

★ ★ ★

ولما انعقد الاجتماع الكبير - تلوت البيان . فاقترح الرئيس القوتلى أن نضمه معنى أن الوحدة السورية المصرية ليست سوى بداية ، وأنها مفتوحة لمن عداها من الدول العربية إلى الأنضمام لها فى وحدة أو اتحاد . فضممنا هذا المعنى إلى البيان .. ولقد هزتنى كثيرا تحية

الرئيس القوتلى لى .. اذ قال ، قبل أن أتلو البيان : « نحن عارفون بقدرتك على الافاضة .
وقد كتفناك .. وأنت لا تحب القيود » .
وانفض الاجتماع ، وتبادلنا التهاني ..
ثم .. كان ما كان .

الفصل الثامن

عبد الناصر
واختيار
الرجاء

ليس أشق على أى رئيس دولة ، من اختيار رجاله الذين يعملون معه ، وينفذون أوامره ، ويقترحون عليه الأفكار والمشروعات ، وينصحونه .. أو ينقدون قراراته عند الاقتضاء . فإذا وفق الرئيس إلى اختيار الرجل الصالح والمناسب ، فإن « بطانة » الرئيس المقربة اليه ، والمحبة إلى قلبه ، قد لا تقبل هذا الرجل ، لأنها ترى فيه ما يهدد امتيازاتها ، ويشاركها في حب الرئيس ، فتفعل المستحيل لتتمتع تعيينه . وإذا صمد الرئيس للمؤامرات حوله ، وعين الرجل الصالح الذى اختاره ، فقد تطارده « البطانة » بعد ذلك ، وتضع في طريقة العراقيل والعقبات ، حتى يفر من وجهها نجاة بنفسه . وإذا صمد في وجهها ، رأى نفسه ، اخر الأمر ، غير قادر على أن يعمل شيئا . وقد يرى « الرجل الصالح » أن خير وسيلة لبقائه هى أن « يفسد » . وأن يخضع لأوامر البطانة والحاشية ذات النفوذ !! ثم يكشف الرئيس أن الرجل الذى ظنه « صالحا ومناسبا » .. لا هو « صالح » .. ولا « مناسب » ! و« الصلاح » كلمة مطاطة ، وغير متفق على معنى محدد لها . فالرجل الصالح كأستاذ في الجامعة .. قد لا يصلح لعمل سياسى . والصالح في رئاسة مؤسسة كبرى .. قد لا ينجح في إدارة وزارة صغيرة ، فكثير من قادة المعارك ، وعبارة الحروب ، فشلوا في إدارة الدول .. والحديث طويل .

في السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٢ - تقررر أقالة الرئيس « على ماهر » من رئاسة الوزارة التى أسندت اليه يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ ، والثورة لا تزال في يومها الأول ، وقد كنت أنا صاحب اقتراح هذه الأقالة . فقد كانت عقلية على ماهر « عقلية ملكية » .. وكان الرجل - بكل مكوناته وخلفياته - أبعد الناس عن أن يمثل ثورة شابة خلعت الملك الذى قام هو نفسه بالاسراع في اجراءات اجلاسه على العرش !.. وكان الذين حول « على ماهر » - ومنهم بعض وزرائه - ممن لا يرقون كثيرا عن مستوى الشبهات . ولم يتمتع العديد منهم بالكفاءة التى ترشحهم لتولى مناصب الوزراء في حكومة كان عليها أن تنهى الملكية ، وأن تدخل في صراع سياسى واجتماعى ، ضد جميع أفكار ، ومبادئ ، وتقاليد المجتمع القديم الذى كان « على ماهر » واحدا من صانعيه ، وواحدا من كبار ممثليه !!.

استجاب أعضاء مجلس قيادة الثورة لاقتراحى ، وتأثروا به ، وأوفدوا اثنين من أعضاء المجلس هما : « أنور السادات » .. و« جمال سالم » إلى « الرئيس على ماهر » فطلبوا اليه أن يستقيل .. فاستقال .

وكنست قد أقترحت على مجلس قيادة الثورة ، أن يسندوا رئاسة الوزارة إلى قانونى كبير هو « سليمان حافظ » .. وكان يشغل ، آنذاك ، منصب وكيل مجلس الدولة - وهو الهيئة القضائية المختصة بمراجعة تشريعات الدولة ، وبالحكم فى القضايا المرفوعة ضدها . وقد كان « سليمان حافظ » - بحكم منصبه هذا - يعمل مستشارا خاصا لرئيس الوزراء .. أيا كان اسم هذا الرئيس .. وبهذه الصفة ، اتيح له أن يشارك فى المداولات الخاصة باجراءات عزل الملك فاروق ، واعداد وثيقة نزوله عن العرش . وقد اشرت فى موضع سابق من هذا الكتاب ، إلى المجازفة العظيمة التى أقدم عليها حينما تأبط مظروفا - ظهر يوم السبت الموافق ٢٦ من يوليو ١٩٥٢ - وذهب إلى « قصر رأس التين » ليقابل « ملك البلاد » .. ولم يكن فى هذا المظروف سوى وثيقة تنازل هذا الملك ذاته الذى كان يعكم مصر حتى تلك اللحظة ، دون أن يجرؤ رجل من رجالها الكبار أن يراجع بصراحة .. ولو بكلمة !.

ذهب « سليمان حافظ » إلى « قصر رأس التين » . وكان الملك فاروق قد لجأ إليه فارا من « قصر المنتزه » الذى كان الجيش قد حاصره . وكان « قصر رأس التين » متصلا بالبحر .. وله ميناء خاص به ، ييسر لمن يكون فى القصر أن يستقل زورقا أو طرادا وينطلق فى البحر الواسع . ولم يكن الصراع بين الملك والضباط الشبان الذين تاروا ضده قد حسم . ولم تكن القوى الدولية التى اعادت أن تتصرف فى شئون مصر ، وتتصارع حول الاستتار بالسلطان فيها ، قد أعلنت ، بصراحة ، ماذا تريد لمصر . ومن هنا كان دخول « سليمان حافظ » إلى الملك فى قصره .. وحوله حرسه المدجج بالسلاح ، والحاشية التى تحب الملك - بمثابة الدخول إلى « عرين الأسد » حقيقة لا مجازا . ولكنه رجل لا يعرف الخوف ، اشترك فى العمل السرى ضد الاحتلال البريطانى .. وحلق فوق رأسه الأتهام فى قضية مقتل « السردار » البريطانى التى أتهم فيها « أحمد ماهر » .. و« النقراشى » .. وكاد يعلق فى حبل المشنقة ، لولا أن الله قيض له طرفا أنجاء من هذا المصير . وهو رجل هادىء لا يغضب .. وإذا تكلم فى مسائل القانون ، راح يفتت المشاكل تفتيتا .. بمنطق بارد وصارم ، وواضح وضوحا عجيبا كأن فى رأسه ، وعلى لسانه ، مصباحا كاشفا .. يطارد الغامض .. ويبسط الصعب !.

- وكان ترشيحي لسليمان حافظ ليتولى رئاسة الوزارة ، قائما على ثلاثة عناصر تؤهله لهذا

المنصب الخطير في تلك الحقبة التي لم تشهد مصر مثلها ، منذ أقبل الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٩ .

● أولها : وطنيته .. واشتغاله بالمسائل العامة . وتضحياته ، وشجاعته فليس هو رجل قضاء لا يتجاوز اهتمامه ، وممارسته ، ودرايته نص القانون وملفات القضايا .

● وثانيا : مكابذته لمشكلات الحكم من خلال فتاواه للحكومة فيما يصادفها من أزمات وما تقترحه من تشريعات .

● وثالثا : نزاهته .. وزهده في المال ، وفي الجاه ، وفي السلطان .. وبساطة حياته ، وتحرره من التقاليد التي تحكم امثاله ..

ولم أدخل في حسابى ، وأنا ارشحه ، أن هذا الزهد سيغلبه ! وأنه سيفر من رئاسة الحكومة - وهو أمر لا يتصور وقوعه في تلك الفترة من مصرى سواه - اذ لم يكن في مصر من لا يرى نفسه صالحا لرئاسة الوزارة .. وحتى لتولى عرش البلاد مهما كانت كفايته قليلة .. ومكانته ضئيلة!!

كان سليمان حافظ قد قدم ، في يومين متتالين .. وفي أقل من شهر وبعض شهر ، دليل على أنه رجل قد لا يضارعه أحد من مواطنيه .

● الأول : حينما حصل من الملك على توقيعه بالنزول عن العرش ، وكأنه يطلب من هذا توقيعه الملك على صك بعشرة جنهات ..

● والثانى : حينما جاءت اليه الرئاسة منقادة في عهد جديد ، ومع شبان ما يزالون في ريعان عمرهم .. ومهما قيل في وطنيتهم ، وشجاعتهم ، فإن خبرة الحكم كانت تنقصهم .. فأبأها .

واتفق على أن يعقد مجلس القيادة اجتماعا للنظر في تشكيل الوزارة الجديدة . والعجيب أننا التقينا - سليمان حافظ وأنا - على غير موعد في مبنى ادارة قضايا الحكومة . فقد رأيت يسير في دهليز من دهليزها في بذلته البسيطة المكونة من بنطلون رمادى وسترة من التيل بيضاء اللون .. ويتنعل حذاء أبيض بنعل من الكاوتشوك المعروف في مصر باسم « الكريب » ..

وكأنه لا يت بصلة إلى الرجل الذى كان ، بالامس ، يلعب دورا من أكبر أدوار تاريخ مصر الحديث ، ألا وهم إنزال آخر ملك من ملوك مصر من فوق عرشه ، فى أعرق ملكية استمرت ستة آلاف سنة متصلة . لم تنقطع يوما واحدا ! وحياتي سليمان حافظ .. ثم قال :

- « أخذ باقتراحك .. فوزارة على ماهر أقبلت ، وعرضوا على الوزارة فاعتذرت عنها » . فصرخت : « لماذا تعتذر ؟! إن الوزارة هذه المرة ليست تشريفا .. إنما هى مجازفة بالحياة ، واستهداف لمخاطر أكثر من الموت ، وعبء ينوء تحته أقوى الرجال » .. فقال ، وكأنه لا يسمع : « الوزارة بعد عزل الملك ، أصبحت فى حاجة إلى شخصية أكبر منى . أنا لا أحد يعرفنى فى مصر ، ولا خارجها . وشهرة الحاكم ، فى ظرف ما ، عنصر من عناصر أهليته للحكم .. المهم أننا سنجتمع ظهر اليوم بمجلس قيادة الثورة بكوبرى القبة ، وأنت مدعو للمشاركة » .

★ ★ ★

وفى الساعة الثانية عشرة ، أو بعدها بقليل ، كنت فى مجلس قيادة الثورة . هذا المبنى المكون من دورين فى شارع الخليفة المأمون ، والذى اعتدت أن أمر به فى سيارتى الصغيرة (هيلمان) فى اليوم الواحد أربع مرات : اثنتين فى الصباح .. وأثنتين فى المساء .. دون أن التفت إليه ، ودون أن أعرف ماذا فيه .

وكنت قد دخلت هذا المبنى ، قبل ذلك اليوم ، ثلاث مرات . مرة فى يوم الجمعة السابق على هذا الأجتماع . ومرة فى يوم السبت . ثم مرة فى يوم الأحد .. وفى اليوم الأول تقابلت ، لأول مرة ، مع ضابط شاب فى رتبة صاغ (رائد) . ولم يكن هذا الشاب سوى عضو مجلس قيادة الثورة (المرحوم عبد الحكيم عامر) .. وفى المرة الثانية .. وفى المساء .. قابلت (المرحوم قائد الجناح جمال سالم) .. وفى المرة الثالثة التقيت بمجلس القيادة مجتمعاً .. باستثناء اثنين هما الرئيس محمد نجيب الذى لم يكن قد ضم بعد لهذا المجلس والمرحوم جمال سالم الذى كان يرفض الاتصال بالمبدئين ، أو الاستماع إلى ما يقولون !!.

وفى هذا اليوم ، كان يجرى أول تشكيل وزارى من نوعه .. فقد عانت مصر ، منذ احتلالها الانجليز سنة ١٨٨٢ . وكانت لعبة الوزارة والوزراء وتشكيل الوزارات وإقالتها ،

مقصورة على الملك وعدد من رجال قصره ، يكون أبرزهم أحيانا رئيس ديوانه ، وأحيانا ناظر خاصته ، وأحيانا وكيل ديوانه أو كبير أمنائه .. واستمر الحال يتدهور حتى أصبح (أحد خدمه) الذين يعينونه على ارتداء ثيابه وخلعها ، هو صاحب الكلمة الأولى في إقامة الوزارات وخلعها أيضا .. أما خارج القصر .. فقد اقتضت أسماء الوزراء على نحو ثلاثين اسما من جميع الأحزاب ، يتناوبون الجلوس على مقاعد الوزارة ، ويسقطون منها ، ويعودون اليها ، وكأنهم أحجار (الدومينو) ، تتغير أماكنها من رقعة اللعب ، ولكنها هي لا تتغير أبدا .

وفي ذلك اليوم .. كان يشغل بالحكومة وبنائها ، ضباط صغار لا يزيد عمر أكبرهم عن الثانية والثلاثين ، اذ ولدوا جميعا ، بين سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩ . ولم يكن في وسع أحدهم ، قبل الثورة ، أن يخاطب وكيل وزارة ، أو أمينا عاما فيها ، إلا وهو مشدود القامة ، محيا تحية عسكرية .

وكان الوزراء الذين يدعون للحكم ، جددا ، شبانا صغارا ، في أولى درجات السلم السياسي .. وموظفين قرييين من أعلى السلك الإداري . ولكنهم بعيدون ، كل البعد ، عن السياسة ، والوزارة ، والحكم .

★ ★ ★

دخلت القاعة التي كان يشغلها رئيس مجلس قيادة الثورة ، لارى فيها مشهدا عجيبا . أناس مدعوون للوزارة ، وعلى وجوههم من علامات الخوف والفرع ، ما لم يعل وجه مصرى دعى للوزارة من قبل .

فقد تصوروا أنهم مقبوض عليهم . اذ أن الدعوة التي وصلتهم لم تبين لهم لماذا دعوا إلى « مجلس قيادة الثورة الخفيف » . وبعضهم أدرك أنه مرشح لتولى منصة الحكم . ولكنه أشفق من هذه الدعوة ، فالملك لم يكن قد غادر البلاد إلا منذ أقل من شهرين . وأمور السياسة لا تستقر على حال . وقد يعود الملك إلى مصر ، نيعتبر من توا . أمور الحكم ، استجابة لدعوة الثورة .. متمردا ، وخائنا . وقد يساق إلى المشنقة .. بوصفه ثائرا ، وخارجا على مليكه . وفي أحسن الظروف قد يودع السجن . وإن هو خرج منه .. فنصيبه

التشرد والجوع . ثم .. من يضمن أن الاعتذار عن دخول الوزارة ، لن يفسر بأنه رفض للتعاون مع الثورة ؟ . وقد تستقر هذه الثورة أو يطول عمرها . فيكون هذا الرفض مخاصمة لها تعرضه للمكارة والتضييق !! .

ولقد رأيت أحد المرشحين متجها إلى القاعة ومن خلفه ضابط من الشرطة العسكرية .. « المرشح المسكين » يتلفت حوله ، وكأنه يطلب الغوث والنجدة ولما رآني - وكان يعرفني - هتف بأسمى ، واندفع نحوي .. ولولا الحياء لالتقى بنفسه على صدرى !! . ولكن المرشحين الذين سبق لهم أن شاركوا في الحكم ، قبل الثورة ، دخلوا القاعة هادئين ، وعلى وجههم قرار ظاهر مقروء :

(نحن لن نشترك في هذه الوزارة .. لاننا لا نتفق مع مبادئها .. وفي مقدمتها : الإصلاح الزراعي ، وتناول الأمور بروح ثورية تقلب عاليها سافلها) .. وكان في مقدمة أصحاب هذا القرار : محمود محمد محمود . والمهندس حامد سليمان . ومريت غالي .. وإبراهيم بيومي مذكور . وكان من المعتذرين صاحب شخصية غريبة لا تعرف بواطنها ولا تطمئن إلى مفاجأتها .. ذلك هو « الباشا » حفنى محمود - شقيق صاحب المقام الرفيع محمد محمود (باشا) رئيس حزب الأحرار الدستوريين - حزب الارستقراطية المصرية ، وقد انتهى به الأمر إلى أن يكون نصيرا للسلام ، وصديقا للشيوعيين ويساريا ، بعد أن عاش حياته يدبر المقلب المضحكة في أصدقائه واعدائه على السواء . ولو دخل (الباشا) .. حفنى محمود الوزارة .. لكان وجوده فيها مددا لروح جديدة من العبث المقرون بالجد .. والجد الممزوج بالعبث ، الذى كانت الحياة المصرية في أشد الحاجة اليه ، لوضع حد لركودها الذى طال نحو ربع قرن .. منذ أجهضت ثورة ١٩١٩ .

★ ★ ★

رأيت في ركن من هذه الحجرة ، المرحوم « جمال سالم » ، يناقش تارة في هدوء وأخرى في صراخ .. الأستاذ عبد الجليل العمري الذى دخل الوزارة في نفس اليوم ، وزيرا للمالية .. وكانت له شروط بشأن الحد الأقصى للملكية الزراعية ، وما يحق للمالك الزراعى أن تملكه زوجته وأولاده ، وما يتصرف فيه بالإيجار لصغار المزارعين .

وكان « جمال سالم » يرفض هذه الشروط ، ويحاول أن يزحزح « العمرى » عنها ولما لم ينجح ، سمعته يقول له : « أنا قابل شروطك لا اقتناعا بها ، ولكن حرصا على معاونتك واشتراكك في الوزارة » .

وخارج القاعة .. كان هناك مندوبون للأخوان المسلمين الشباب . أذكر منهم المرحومين « منير دلة » ، و « حسن العشماوى » . وكانا صهرين . اذ كان أولهما زوج أخت ثانيهما . وكان حسن العشماوى نجل محمد العشماوى (باشا) الوزير الذى تعاون ، قبل الثورة ، مع الأخوان المسلمين . فأصبح من كبار رجالهم ، وإن لم ينضم رسميا اليهم . ولكن قيادة الثورة رفضت أن تأخذ أحدهما ، ولا كليهما ، للوزارة . وفضلت عليهما مرشح المرحوم حسن الهضيبي مرشد الأخوان المسلمين ، وهو المرحوم أحمد حسنى وكيل محكمة النقض آنذاك .. وشهدت هذه القاعة مشهدا طريفا حقا . فقد كانت المداولات بين الضباط من جهة .. وبين المدنيين المرشحين للوزارة من جهة أخرى - تسفر عن الاتفاق على اسم من الاسماء ، فيتعين أن يتصل به (رئيس مجلس قيادة الثورة) تليفونيا . ويدعوه للاشتراك في الوزارة . فقام الرجل بهذه المهمة ، ودعا أشخاصا لم يسمع بأسمائهم من قبل ، للاشتراك في الوزارة . فكان يتلقى الأسم ، ثم يطلب له صاحب الأسم على التليفون .. فإذا هم بالكلام .. نسي الأسم ، ويطلب أن يذكر به . فيذكر له وسط ضجيج القاعة ، فلا يسمعه جيدا فينادى من طلبه فى التليفون باسم « مغلوط » ثم يصحح له ، فيصححه بدوره .. وهكذا . والرجل على الطرف الآخر من التليفون ، مندهش .. لا يدري من الذى يعابه على هذه الصورة ، وهو يحسب أن الأمر مزاح كله . وهو فى واقع الأمر ، جد خالص !! .

كنت واقفا مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وهو يروى حيرته بين معسكرات الأخوان المسلمين . فالشبان منهم لهم مرشحان . والشيوخ لهم مرشحان آخران ، فقلت له : « جبذا لو أخذت الشيخ أحمد حسن الباقورى » .. وكان « جمال » متلهفا على حل .. فسألتى .. وهو شارد الذهن : « من ؟ » فأعدت عليه الأسم . فعاد يسأل : « من ؟ » فلما أعدته عليه ، للمرة الثانية بدت عليه خيبة أمل . فقلت له : « الحقيقة . أنا بوى أن يكون من بين الوزراء أزهرى صاحب عمامة . فللأزهر ولاصحاب العمام فضل على نهضة مصر الحديثة . فكان منهم الخطباء ، والشعراء ، والصحفيون ، والمفكرون . ولكننا درجنا على أهمالهم بلا مبرر . و « الباقورى » أزهرى مشغول بالسياسة . وقد جره هذا الأشتغال

إلى المعتقل ، فقصي به وقتا غير قصير . وهو خطيب ، ومتحدث ومتطور .. وسيرى فيه الناس صورة جيدة للأزهري . فأجابني : « إن أردت الحقيقة .. أنا أفضل أن يكون ممثل الأخوان هو « حسن العشماوى » .. فهل تعرفه ؟ » . قلت له : « أعرفه جيدا .. فقد تردد على في مكتبي ، ووكلني في قضايا الأخوان ، وأعطاني في يدي هذه مئآت الجيبات . وهو شاب ذكي وسيكون له بلا شك مستقبل سياسى ، ولا اعترض على ترشيحه للوزارة وإن كان لا يزال صغير السن جدا » فقال لى عبد الناصر على الفور : « اذن نأخذه ودعك من الباقورى » . فقلت له : « افعل ما تشاء .. فأنتم أصحاب الأمر ، وأنا لا أقول ما أقول إلا على سبيل الاقتراح » .

والعجيب أننى سمعت « عبد الناصر » يقول لى : « ولكننى أريد أن توافق على دخول حسن العشماوى الوزارة » .. فأدهشنى منه اصراره على طلب موافقتى .. فقلت له : « موافق » .. فسألنى : « وسحبت ترشيحك للباقورى ؟ » فزادت دهشتى .. وقلت له : « إن ترشيحى للباقورى أو لغيره ، هو مجرد اقتراح ، تأخذون به ، أو تدعونه كما يخلو لكم . ولست أرى تعارضا في أن تأخذهما معا . فهما مرشحان جيدان » . فقال في أسف : « بل لايد من أخذ أحدهما فقط . لأنى لا أستطيع أن أخذ من الأخوان المسلمين أكثر من اثنين .. ولا أستطيع أن أخذ من فريق الشباب أكثر من واحد . وأريد أن يكون هذا « الواحد » هو العشماوى . ولكنك مصمم على ترشيح الباقورى » فقلت له : « وماذا يقدم تصميمى أو يؤخر .. فأنت الذى تختار الوزراء لا أنا » فهز رأسه وقال : « ليكن ما تريد . سنأخذ الباقورى » !!.

ومن غرائب التاريخ أنه لم يكذب على هذا الحديث بضعة شهور ، حتى كان « حسن العشماوى » قد صار خصما عنيفا للثورة ، ولعبد الناصر بالذات .. وبلغت هذه الخصومة إلى حد أن اتهمته الثورة بتدبير انقلاب ضدها . وحوكم غيايبا . وحكم عليه بالموت !! فاضطر إلى اللجوء إلى الكويت ، وعاش فيها لاجئا .. وعلا مقامه هناك ، حتى توفاه الله وهو في مقتبل العمر .

وفي ذات ليلة .. بعد تأليف الوزارة بشهور - انصرفنا نحن سكان مصر الجديدة من أعضاء مجلس الوزراء . الشرباصى ، وأحمد حسنى ، والباقورى ، وأنا - فركبنا معا عربة واحدة . وجاء ذكر « العشماوى » .. فقلت للباقورى : « لو أن ترشيح حسن العشماوى نفذ

يومذاك ، لكان معنا الان .. ولكنك أنت محكوما عليك ، ومطاردا ، وهائما على وجهك » .

ولم أكن قد ذكرت للباقورى ، حتى هذا اليوم ، شيئا عن ترشيحي اياه خشية أن يكون فى ذلك صورة من صور المن .

★ ★ ★

ولم ينته ترشيح الرجال ، واستبدالهم بغيرهم .. بل استمرت عملية الترشيح . فالذين رشحتهم ، فى ذلك اليوم ، وهم : سليمان حافظ ، والدكتور صبرى منصور ، والأستاذ فراج طابع ، والأستاذ حسين أبو زيد والشيخ الباقرى ، ثم فريد انطون .. بعد ذلك ، لم يبق منهم فى الوزارة - قبل أن يكمل عاما - إلا « الباقرى » الذى أثبت أنه سياسى .. وأنه يتمتع بمرونة وحسن حيلة . أما الآخرون فقد خرجوا من الوزارة تباعا . وكان ذلك طبيعيا فقد كانوا رجالا صالحين فى كثرتهم ، وعلى خلق عظيم . لكن لم يكن فيهم سياسى واحد .. والبقاء فى الوزارة - خصوصا فى أوقات الأزمات - يحتاج إلى قدرة سياسية . فلا تنفع الكفاءة الفنية وحدها . ولا ينفذ الخلق القويم وحده . فالمرونة التى ترتفع أحيانا ، أو تهبط ، إلى الدائرة ، ثم المناقعة وضبط النفس حتى لا يندفع السياسى إلى معارضة ومهاجمة كل ما لا يعجبه ، محتفظا بنفسه إلى الموقف الأكثر أهمية .. قد تتحول ، مع الزمن ، إلى « وصولية » تبرر كل خطأ ، وتؤيد الحاكم فى كل ما يقول ويعمل . ولكن الظروف ، وأيضا الحظوظ ، لهما دورهما ، وكلمتهما ، فيما يرفع الناس .. وفيما يهبط بهم !! فقد يكون الفرق بين دخول الوزارة ، أو دخول السجن ، بل صعود المشنقة ، مجرد حركة صغيرة ، أو دخول زائر غير متوقع ، أو تعطل خط تليفونى !.

ولدى على ذلك أمثلة كثيرة .. فمرشح حسن الهضيبى الأول للوزارة فى السابع من سبتمبر ١٩٥٤ ، كان هو الأستاذ كمال الديب ، محافظ الأسكندرية فى ذلك الوقت . ولكنه لم يدخل الوزارة ، لمجرد وجوده فى الأسكندرية يوم تأليف الوزارة . اذ كان « جمال عبد الناصر » حريصا على أن يتم تأليف الوزارة فى تلك الليلة .. وقد كان تأليفها ممكنا مع ادراج اسمه فى قائمة الوزراء وتأجيل (حلف اليمين) بالنسبة لكمال الديب إلى اليوم التالى !!.

وفي ذات الليلة .. عدت إلى بيتي .. وبينما أنا على السلم المؤدى إلى مكتبي في المنزل . سمعت جرس التليفون ، فعدت نحوه ورفعت السماعة فإذا التكلم « جمال عبد الناصر » . وكنت ، انذاك ، وريرا للمواصلات .. فسألني : « هل تعرف الدكتور مصطفى خليل ؟ » فقلت له : « لقد مر على في مكتبي بعد أن حددت له موعدا بناء على طلب الأخ زكريا محيي الدين ، الذي فهمت منه أنه صديقه وزميله في نادي التجديف » . فضحك « عبد الناصر » وقال : « أنا عارف أن صداقتهما صداقة رياضية » . واسترسلت في كلامي بعد هذه المقاطعة قائلا : « لقد جاء يعرض على فكرة ادخال نظام جديد اسمه نظام التحكم المركزي ، يغني عن أزواج الخطوط في السكك الحديدية » ، فقال عبد الناصر : « وما رأيك فيه على العموم ؟ » فقلت له : « إن جلسة واحدة لا تكفي للحكم له أو عليه ، ولكن الأثر الذي تركه في نفسي في هذه الجلسة ، كان طيبا » . فقال عبد الناصر : « وما رأيك أن يمسك وزارة المواصلات (وكان لفظ « يمسك » من تعبير الضباط ، بمعنى أنه يتولى أمر وزارة أو منصب ما) . فقلت : « على خير الله » . فقال : « ايه .. مش موافق ؟ » فقلت : « أبدا .. كيف لا أوافق وأنا لم أجلس معه إلا عشر دقائق » .. فعاد « عبد الناصر » يسأل .. وفي صوته شيء من التردد : « يعني رأيك إيه على العموم ؟ » فضحكت وقلت : « رأيي على العموم ، هو رأيي على الخصوص ، فني الحاليين لا أستطيع أن أحكم عليه » . فقال : « يعني بلاش » . فاضطرت أمام هذا الألفاح أن أقول : « لا .. لا .. أبدا . ليس هناك ما يدعو إلى العدول عن ترشيحه . ولكن اذا كنت تريد أن أقول شيئا ، من ظاهر الأمور ، فإن مما يحسب له أنه مهندس سكك حديدية . وهو يدرس هذه المادة في كلية الهندسة . فهو مختص بالمرفق الذي سيشرف عليه . ثم هو حسن العرض لفكرته . ومظهره يحمل على الاحترام ، أما ما قد يعترض عليه به فهو أنه ، أولا ، صغير السن ، وصغر درجته الجامعية ، فهو مدرس . ثم أن اقتراحه الخاص بالتحكم المركزي رفض بشدة من جميع مهندسي السكك الحديدية ، وقد يدفعه ذلك إلى اساءة معاملتهم . كما قد يحمله صغر سنه إلى الرغبة في إقالة الموظفين الكبار في السكك الحديدية والتليفونات ، والمرفقان لا يميلان أن يحدث فيهما عملية كهذه . فقد أخرج منهما في أول الثورة عدد من خيرة المهندسين لمثل هذا الاعتبار » فقال عبد الناصر : « خليه يدى لهم على رؤوسهم .. يستاهلوا » . وكان « عبد الناصر » دائم الشكوى من مرفق السكك الحديدية ، ومن كبار موظفيها ، ويتعنى أن يتخلص منهم ، أو يضع لهم من يتولى تأديتهم !!

ولكن هذه المكالمات انتهت بختام أراه مهما للغاية في الدلالة على أسلوب اختيار الوزراء والرؤساء ، فقد قلت لعبد الناصر : « هل أخبرت باقي الزملاء بهذا التعيين الجديد ؟ » فقال لي مندهشاً : « ولماذا أخبرهم ؟ » . فقلت له : « إن الوزير الجديد سيكون زميلاً لباقي الوزراء ، وسيجرب بينهم تعاون حميم وقد يكون أحدهم يعرفه ، وقد تكون علاقة أحدهم به سيئة ، فكيف يتعاونان وزمالة أحدهما للأخر مفروضة على كليهما . ثم أن الوزراء أحق بأن يعرفوا التغيير الذي سيطرأ على مجلس الوزراء الذي ينتمون اليه ، ويعملون فيه ، بدلاً من أن يقرأوه في الصحف كباقي القراء » . فكان جواب « عبد الناصر » : « هل تتصور أن كلهم يذكرك .. السلام عليكم » .

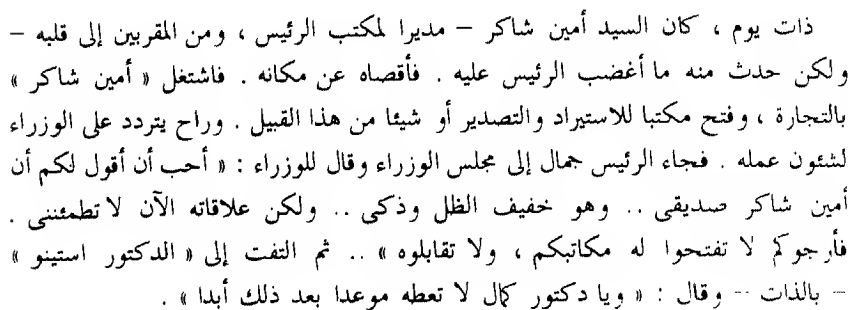
وانتهت المكالمة .

واستمر ترك اختيار الوزراء وأشباههم من الرؤساء ، للمصادفات . من ذلك أنه عرضت علينا ، يوماً ، مذكرة موقع عليها من « الدكتور عزيز صدقي » مع اقتراح إمضائه بلقب (المستشار الفني لرئيس الوزراء) فلما وقع نظر « جمال سالم » على هذا الوصف ، صرخ بأعلى صوته .. « ابن ال .. مين اللي عينه مستشاراً فنياً لرئيس مجلس الوزراء ؟ » . وكان رئيس مجلس الوزراء ، في ذلك الحين ، هو اللواء محمد نجيب - فأعلن ، على الفور أنه لم يعينه ، ولم يستعن به في شيء ، ولم يعرض عليه أي عمل .. أو أي تقرير من تقاريره . وأن أقصى ما سمعه عنه أن الصباغ مجدى حسنين - مدير مكتبه - قد ألحقه بمكتبه كمعاون له - أي لمجدى لا للرئيس - وأنه لم ير التدخل فيمن يختارهم مدير مكتبه لمعاونته في عمله .

وعلق الوزراء على هذا الأسلوب من الالتصاق بمكاتب رئيس الوزراء والوزراء - بدون علم الوزير المختص ، وبدون موافقة المجلس أو صدور قرار بذلك - كل بما وفق إليه من كلام .. ونال « الدكتور عزيز صدقي » في تلك الجلسة ، نصيب غير قليل من هذا الكلام . وبعد قليل .. لم يلبث « الدكتور عزيز صدقي » حتى أصبح وزيراً للصناعة ومقرباً للرئيس عبد الناصر حتى أصبح - فيما بعد - رئيساً للوزراء !!

وإليك مثل آخر .. على تعيين الكبار ، وتقريهم ، وإبعادهم . ذهبت يوماً إلى بيت الرئيس جمال بلا موعد . وسألت عن الرئيس ، فقال لي أحد الضباط العاملين في مكتبه : « الرئيس موجود .. ولكن معه الدكتور عبد المنعم القيسوني » . فقلت له : « أرجو أن

تخبره بوجودى » . فتردد الضابط قليلا .. فقلت له : « قل للرئيس إني موجود . فقد طلب أن أقاله ، ولو كان معه غيره » . كان هذا القول منى صحيحا . المهم أننى دخلت مكتب الرئيس ، فوجدت الدكتور القيسونى يعرض عليه أعمال وزارته ، وكان من بينها اختيار شخص يتولى أمر الحراسة على أموال الرعايا الفرنسيين والبريطانيين الذين هاجروا من مصر فى أعقاب حرب السويس سنة ١٩٥٦ . فرشح الرئيس جمال لهذا المنصب « الدكتور كمال رمزى استينو » - وكان « الدكتور استينو » وزيرا للتموين فى ذلك الحين . فاستفسر الدكتور القيسونى : « وهل سترك ستينو الوزارة ؟ » . فقال الرئيس : « ولماذا يتركها ؟ » فقال القيسونى : « كيف يتفق أن يكون وزيرا فى الوزارة وزميلا لى ، ثم يتبعنى ، ويعرض على أعمال الحراسة ، أصدر له الأوامر ، وألقى أوامره ؟ » . فهز الرئيس جمال رأسه .. وقال : « وفيها آيه ؟ » .. فقال القيسونى : « هذا سيكون محرجا لى . فضلا عن أنه سيشل رقابتنى على أعمال الحراسة .. اللهم إلا إذا ألحقت الحراسة برئاسة الجمهورية » فقال الرئيس جمال ، مستكرا هذا الاقتراح : « وهل ينقصنى (قرف) جديد ؟ » .. ثم سأل : « ألا يوجد عندك وكيل وزارة من وكلاء المالية يصلح لأن يكون حارسا ؟ » .. فاعتذر « القيسونى » .. بأن أعباءهم فوق ما يطيقون . كنت طول الوقت ، ساكتا ولم أشترك فى الحديث برأى . إذ أن وجودى لم يكن مأخوذا فى الحسبان . ولم يكن موضوع الحديث موضوعا عاما يسمح لغير الوزير المختص ، أن يشارك فيه .. ولو بتعليق . ولكنى رأيت نفسى مضطرا لأن أقول شيئا . فقد سمعت ، عند أول مقدمى ، أن الدكتور مصطفى خليل ، وزير المواصلات ، غير مستعد للتعاون مع المهندس موسى عرفة وكيل وزارة المواصلات ، وأنه يطلب إقالته من منصبه أو نقله إلى وزارة أخرى . وأن المهندس موسى عرفة طلب نقله إلى وزارة الرى ، لأنه - أصلا - من كبار مفتشيها . إلا أن وزارة الرى اعتذرت عن قبوله بأنه ليس فيها منصب وكيل وزارة شاغر . فاقترح الرئيس جمال على القيسونى نقله إلى وزارة المالية فقال القيسونى مندهشا : « مهندس رى .. ماذا يعمل فى وزارة المالية ؟ » هنا قلت للرئيس : « لدى اقتراح لحل المشكلتين » . فقال متهللا : « وماذا هو ؟ » قلت : « يعين موسى عرفة حارسا على أموال الرعايا البريطانيين والفرنسيين فتحل بهذا مشكلة البحث عن حارس ، وتحل فى نفس الوقت ، مشكلة موسى عرفة نفسه الذى يراد إبعاده عن وزارة المواصلات ولا تجدون له مكانا » . بدا السرور الشديد على وجه الرئيس جمال ، وهنأنى طويلا على هذا الحل ووقف قائلا : « هل صدقتنى ان مجيئك نافع ؟ » .



ولكن .. لم ينقضى على هذا الحديث سوى شهور ، حتى استعاد « أمين شاکر » ثقة الرئيس .. ثم عين وزيرا للسياحة ، بعد أن قضى مدة غير قصيرة سفيرا لمصر في بروكسل لدى مقر السوق الأوروبية المشتركة !!.

وقد لا يكتمل الكلام عن الرجال إلا إذا ذكرنا مستشارى الرئيس جمال . فالناس كانوا يحكمون على الأمور من ظاهرها . فيظنون - مثلا - أن السيد حسن صبرى الخولى ، ممثل الرئيس الشخصى ، هو واحد من أقرب الناس إلى الرئيس ، ومن أكثرهم ترددا عليه ، واختلاطا به . ولكن الواقع كان أبعد ما يكون عن هذا التصور الذى له ما يبرره تماما . فقد قال الأستاذ حسن صبرى الخولى نفسه ، لصديق مشترك ، اعتاد أن يفضى إليه بمناخه : « هل تصدق أننى لم أر جمال عبد الناصر على انفراد ، خلال أكثر من عشر سنوات ، إلا مرتين فقط . وكانت مقابلتى له على هذه الصورة فى المرتين ، بناء على طلبى .. أما فيما عدا هاتين المرتين ، فقد كنت أقابله مع غيرى من الزائرين الكبار » ! .

وقد قال مستشار آخر للرئيس ، هو السيد حسين ذو الفقار صبرى لنفس الصديق - وكان « حسين » قد نقل من منصب وكيل وزارة الخارجية إلى مستشار للرئيس فى الشؤون الخارجية .. وكان قد انقضى على تعيينه بهذا المنصب أكثر من تسعة أشهر - « السؤال الوحيد الذى وجهه إلى الرئيس جمال هو سؤاله عن صحته ، حينما التقينا ، على سبيل المصادفة ، فى حفلة زفاف ابنة أحد كبار الضباط . وأراد الرئيس أن يمر حول مائدة الشاى لسبب ، وكنت على قمة المائدة ، وكان المكان ضيقا ، فالتقى وجه الرئيس بوجهى فقال لى : « إزى صحتك يا حسين » .

وعندما اعتذرت ، فى أكتوبر ١٩٥٨ ، عن أن أكون وزيرا للثقافة والإرشاد القومى . فوجيء الدكتور ثروت عكاشة - وكان سفيرا لمصر فى روما - وهو يستمع إلى نشرة الأخبار من الإذاعة ، بأنه اختير وزيرا للثقافة ، دون أن يفاتحه فى هذا الأمر أحد !! .

الفصل التاسع

عندما
يغضب
عبد الناصر

كنت كما ذكرت من قبل - زاهدا في العودة إلى وزارة الإرشاد القومي (الإعلام) سنة ١٩٥٦ ، على الرغم من أني أنا الذي كنت قد دعوت إلى إنشائها ، وعانيت كثيرا ، حتى انتهى مخاض ميلادها ، ثم رأت النور ، ووقفت على قدميها ، وساقها الصغيرتين .. تديرها الرياح يمينا ويسارا ، وتحاول أن تقلبها على وجهها ، ثم تنزعها من جذورها الغضة اللينة ! .

وقد بينت ، فيما سبق من القول ، سبب زهدي في هذه العودة . فإن وزارة الإرشاد القومي (الإعلام) التي تشرف على الأذاعة ، وتعمل على انشاء التليفزيون ، وتدير المسارح والسينما ، وتنبعها مصلحتا الآثار والسياحة ، وتبسط ظلها على المتاحف القديمة والحديثة ، وتعقد الندوات ، وتطبع المجلات وتصدر الكتب والمسلسلات ، هي أكثر الوزارات جاذبية . فالفن جذاب .. « وسدنة الفن » من مطربات ، وممثلات وراقصات .. ومن يلحقهن من ربات الجمال ، وبائعات الفتنة ، والباحثات عن الشهرة ، والطامعات في المال .. ومن وراءهن من الرجال ذوي المطامع والمآرب ، الذين يحسنون اكتشاف الطرق إلى أصحاب السلطة ، والنفوذ والمكانة - كل هؤلاء يأبون أن تكون الوزارة عملا جديا ، ولا أن تتأني على أطماعهم ، وشهواتهم .. فإن استعصت عليهم ، أعلنوا الحرب على الوزارة ، وعلى وزيرها ، وعلى كل من بها ، وما يمت إليها .

ولكن هؤلاء - على ضراوة أساليبهم .. وعلى عدم تورعهم عن استعمال أى سلاح يحقق أطماعهم - كحشرات المنازل . ما يكادون يحسون بالنور قد أضاء ، ووقع الأقدام قد اقترب منهم ، حتى يفروا بسرعة خاطفة . فوزير الإرشاد القومي - أى وزير الفن والأذاعة والسياحة والطباعة - يجب أن يكون ثابتا في مقعده ، مؤيدا بالسلطة ، محمى الظهر . ولما كنت أعلم أنني قادر على الظفر بالتأييد ، وبالسلطة الكاملة .. وأنني مهيا - بطبعي - للمعارك - وإن دبرت خطتها في الظلام .. وأشرف على تديرها سفلة القوم واحط اللثام - شريطة أن أكون على أحسن العلاقات بصاحب السلطة الأول .. أى بالرئيس جمال عبد الناصر .

ولم أكن أشك في مودة الرئيس لى ، ولا في حسن ظنه لى ، ولا في رغبته في أن يقف معي ، وأن يدفع عني .. ولكن بشرط ألا أختلف مع خطه السياسي ، والأساسي ، وألا أدخل في معارك مع الذين يؤثرهم بحبه وثقته .

ولما كنت لا أضمن أن أحقق هذين الشرطين ، فقد اعتدلت لجمال عبد الناصر عندما رشحتني لوزارة الإرشاد القومي . ولكنه أصر ، وأطال في محاولة التأثير على ، وآنذاك في عرج حاجة إلى بذل مجهود كبير لاغرائى . فقد كان في ضعف حقيقى أمام هذه الوزارة . ولم أكن قد يقست بعد ، من أن تؤدى رسالتها على الصورة التى تخيلتها لها .

ولكن .. لم ينقض وقت طويل ، حتى تحققت كل مخاوفى ، ووقع بينى وبين عبد الناصر ما كاد يؤدى إلى قطيعة كاملة بيننا ، لولا أنه كان حريصا على اسبغاء علاقتين به ..

لما عدت إلى وزارة الإرشاد القومي ، فوجئت حقيقة لا يصدقها عقل . ووجدتها « هيكلًا عظيمًا » لا لحم فيها ولا شحم .. وربما ولا عظم أيضا !! لأنى وجدت فى الوزارة « ككلا لها ، يعنى قمة موظفيها ، ثم موظفًا فنيا واحدا .. فى أدنى درجاتها !! وليس بينهما أحد سواهما ، فتصور « هيكلًا عظيمًا » يتكون من الجمجمة ثم القدمين ، ولا شئ » ربط بينهما . وكيف استقرت الجمجمة فى الهواء .. وماذا كانت تفعل ؟! وفيم التصاق القدمين بالأرض ؟! وماذا كانا يعملان ؟!.

الله وحده يعلم . وبالطبع لم تكن بالوزارة وحدة حسابية ولا وحدة ادارية تدير شئون الموظفين ، ولا شئ آخر يمت إلى ما تواضع عليه الناس فى جميع بلاد الله لأقامة الوزارات والمصالح والدوائر الحكومية .

★ ★ ★

والسبب فى هذا كله ، أن السيد وزير الإرشاد القومي السابق - المرحوم صلاح سالم كانت تقع على كتفيه أعباء الدعاية فى خارج البلاد .. وكان دائم التنقل من السودان إلى العراق .. إلى غيرهما .. وكانت الوزارة .. بمصورها ، وصحفيها ، ومترجميها ، وفنيها ، تتبعه أينما ذهب . ولكى يواجه « صلاح سالم » الفراغ الناجم عن اتصاله بشئون السياسة العامة . أعطى استقلالًا تامًا للمصالح التى تتبعه ... وهى : الأذاعة ، والأستعلامات ، والمسارح . ونعم مديرو هذه المصالح بفترة كانت أسعد فترات حياتهم الحكومية .

فلما جئت إلى الوزارة .. فوجئ هؤلاء المديرون بأن مصالح أخرى كالسياحة والآثار قد انضمت إليهم ، وبأن الوزير قد كرس وقته كله لعمل الوزارة ، وبالتالى سيمارس نل

اختصاصات الوزير الممنوحة له بلا تزيد ولا استثناء بالسلطة .. ولكن أيضا بلا تفريط فيها ، ولا تنازل عنها ، حيث لا مبرر للتنازل .. ولا للتفريط ..

وكان ذلك ، أشبه شيء بالكارثة حلت بهم ، فكان لا بد أن تواجه هذه الحالة الطارئة من جانبهم ، بمقاومة إيجابية ، وإلا دالت دولتهم ، وزالت سلطتهم .

وفي ذات يوم .. وجدت على مكتبي ورقة طويلة .. مكتوبة بخط عريض فتناولتها .. فإذا هى صحيفة احتجاج ، أو قل اتهام ، موجهة من أحد المديرين التابعين لى ، والمعروفين بالخطر الشديد فى كل خطوة ، والأحتياط التام فى كل كلمة يقولونها . وأعدت قراءة الصحيفة ، وأدهشنى أنها جاءت هكذا ، مفتوحة بلا مظهر ، كأن كاتبها أراد لها أن تعرف فى دوائر الوزارة ، وأن تتداول الألسنة ما جاء فيها .

ولقد تعودت فى مثل هذه الظروف ، ألا أصدر قرارا . بل أننى لا أدع نفسى تنساق مع الأنفعال الأول . لقد كان المطلوب أن أغضب ، ولذلك لم أغضب وكان المطلوب أن اتخذ قرارا ، ولذلك لم اتخذ قرارا !! بل لقد حدث أن اتصل بى هذا المدير الذى يطالب بإعادة سلطات زعم أنها سلبت منه ، وباختصاصات انتزعت ، وكانت - كما قال - من حقه . ولعل اتصاله التليفونى بى كانت الغاية منه معرفة ما اذا كانت « الصحيفة » قد وصلت بى .. وما هو أثرها عندى .. فرآنى هادئا ، كأن لم يحدث شيء . ورددت عليه كالعادة ، وانتهى الحديث على وجه جعل السيد المدير يشك فى وصول خطابه الى . لذلك اضطر إلى أن يتصل بسكرتيرى الخاص ، ويسأله عما اذا كان الخطاب قد سلم الى ، فأخبره بأن ذلك هو ما حدث بالضبط . وأن هذا الخطاب كان أول ما قرأته !!

وانتظر المدير العام ، والذين حوله من المديرين الآخرين ، يوما كاملا . وفى الليل الهادئ ، وبعد أن فرغت من عملى ، قر قرارى على أن اندب « المدير العام » صاحب الخطاب إلى ديوان الوزارة ، وأن أحيل اختصاصاته إلى وكيل المصلحة التى كان يديرها ، وكان موظفا على درجة عالية من الكفاءة الفنية ، مع صفات خلقية لم تكن محل خلاف بين عارفيه .

واستدعى وكيل الوزارة « المدير العام » ، واعلنه أنه ندب للعمل فى ديوان الوزارة . فوقع النبأ عليه وقع الصاعقة . فقد كان يتصور أننى لن أجروء على المساس به ، وأن انتزاعه

من مكانه على رأس مصلحته - الذائعة الصيت الكبيرة القدر - أمر لا يخطر على بال . لأنى أول من يعلم أن هذه المصلحة هى أهم مصالح الدولة عند عبد الناصر وأن من الأقوال المتداولة أن « عبد الناصر » يتفائل بوجود هذا المدير ، بالذات على رأس تلك المصلحة .

ونفضت يدى من هذه المسألة لأنى ، فى واقع الأمر ، لم أعدها أكثر من كونها « عملا عاديا » من أعمال الوزير .. فلقد كنت - وما أزال - أومن بأن من حق الزير أن يندب المديرين من أية جهة فى وزارته إلى أية جهة أخرى فى الوزارة ذاتها .. ما دامت المصلحة العامة هى غايته ، وأنه لا تعقيب على تصرفات الوزير وقراراته داخل وزارته ما دامت فى حدود اختصاصاته .. حتى ولا من رئيس الجمهورية ، ولكن « رئيس الجمهورية » كان له رأى خاص . فقد نجمت عن هذا التصرف الإدارى البسيط ، أزمة شديدة بينى وبين عبد الناصر .

والحق أن وقوع هذه الأزمة أدهشنى تماما . وكنت قد رأيت أن أطلع « عبد الناصر » على قرار الندب بخطاب كتبته بخط يدى ، وطويته داخل مطروف ، وأرسلته إلى مكتب الرئيس مع موظف من مكتبى .

وبدأت طلائع الأزمة .. ونذرهما ، حينما ذهبت ، بعد صدور قرار الندب ، إلى ميدان الأوبرا بالقاهرة لأشترك فى تشييع جنازة أحد زملائنا الوزراء ، وهو المستشار جندى عبد الملك وزير التموين ، فقد توفى إلى رحمة الله وهو يشغل منصب الوزير . فلما دخلت السراى .. وكان « عبد الناصر » يجلس فى صدره ، رأيت مكفهر الوجه .. فلم أتصور - ولو لجزء من الثانية - أن هذا الأكفهر هو تعبير عن حزن « عبد الناصر » على (جندى عبد الملك) .. فقد كانت صلته به ضعيفة جدا ، وكانت مدة شغله للوزارة قصيرة . تأكدت أن هذا « الأكفهر » شئ خاص لى : بعد أن رأيت زملائى الوزراء يجيئون تباعا ، ويتجهون إلى الرئيس يعزونه ، فيحسن استقبالهم ، فى حين أنه اشاح بوجهه عنى ، مما صرفنى عن تحيته .

ولما أنهت الجنازة . وعدت إلى مكتبى ، عرفت أن السيد « جمال سالم » قد اتصل بمكتبى فى الوزارة مرارا . فلما تم الاتصال بينى وبين جمال سالم بدأنى بقوله :

- ماذا فعلت مع الرئيس ؟.

فقلت له :

- خير .. لا شيء ..

فقال وهو يضحك :

- كيف لا شيء .. وهو عاضب منك أشد الغضب ، إلى حد أنى لم أستطع أن أذكر اسمك أمامه إلا مرة واحدة . فلما كررت اسمك ، صاح :

- أرجوك لا تسمعى هذا الاسم ثانية ..

لقد كان مثل هذا الكلام جديرا - في ظرف اخر - أن يبعث في نفسى الغضب : أو أن يشغل بالى ..

ولكن ، لحسن الحظ ، ملأنى هذا الكلام برودا ، وأشعرنى بأن الموقف به من الهزل ما لا يصح معه الأنفعال . ولذلك ، دهش « جمال سالم » حينما سمعنى أقول له :

- على كل حال ، الدنيا لم تخرب بعد ، وفى وسعك أن تريخ « الرئيس » من سماع اسمى ، وأن أريته أنا أيضا من رؤية وجهى ..

فقال « جمال سالم » :

- ماذا تعنى ؟.

قلت :

- وهل لكلامى معنى آخر .. اعنى اذهب إلى بيتى . فقد آن لى أن استريح وأريح ..

ففاض « جمال سالم » رقة . ولطفا ، ومجاملة . والذين يعرفون « جمال سالم » . يعرفون أن الرقة ، واللفظ ، والمجاملة ، ليست من صفاته التى تحضره دائما .. وإنما هو - فى الأغلب الأعم من الأحوال - ساخط نائر ، بل عاصف قاصف ينال الناس من قبضات يده ، وصفعات كفه ، وركلات قدمه وقذائف لسانه الشئ الكثير . ولكنه حينما تصفو نفسه ، يصبح آية من آيات الرقة والوداعة والحرص الشديد على مشاعر الناس .

انتهى حديثنا على أن نلتقى فى نفس اليوم أو فى اليوم التالى بمكتبه بمجلس الوزراء ، وكان هذا المكتب ذاته هو مكتبى ، عندما كنت اشغل منصب « وزير الدولة » .

وتلاقينا وسألنى : « ما الحكاية » ؟.

فقلت له : الحكاية أتفه من أن تحكى . مدير عام يتبع الوزارة التى أديرها وأشرف عليها ، أرسل يحتاج على تصرفات لى ، فى خطاب مفتوح ، وكان بوسعه أن يتحدث إلى شفويا وشخصيا . ولكنه فعل ما فعل مدفوعا من آخرين من مديرى الوزارة - وبعضهم عسكريون - ولم أفعّل أكثر من ندبه إلى ديوان الوزارة ، وليس هذا الإجراء جزاء ولا عقابا .

وسألنى « جمال سالم » سؤالا عابرا : « وهل من حق الوزير أن يندب مديرا عاما لا يعين إلا بقرار جمهورى ؟ »

فأجبته : « بأن ذلك من حقى بلا شبهة . ومع ذلك فقد تداولت ، بطريق الصدفة ، مع اثنين من الوزراء الزملاء .. أحدهما وزير قضى حياته موظفا متقلبا بين أدنى الدرجات إلى أن أصبح رريرا .. والثانى هو وزير العدل ، المكلف بالسهر على تنفيذ القوانين وسلامة التشريع .. فأقرانى » .

وخيل إلى « جمال سالم » أن وساطته نجحت ، وأنه استطاع أن يصرف الغضب عن نفس « جمال عبد الناصر » . فأتصل بى ، مرارا ، ببيتى وكنت قد اعتكفت فيه . لا أرد عليه ولا على سواه . لأنى كرهت أن تقوم بسبب هذه المسألة التافهة ، منازعة .. وأن تستلزم المنازعة وساطة .

وأخيرا نجح « جمال سالم » فى أن يتصل بى . ولدهشتى ، وجدنى هادئا .. فإن فشله فى محاولة الاتصال بأحد كان يشعرا بالإهانة وشعوره بالإهانة كان يدفعه إلى الثورة .. وكانت الثورة تخرجه عن طوره . أخبرنى « جمال سالم » بأن كل السحب تبددت .. وأن السماء أصبحت صافية وأن « عبد الناصر » يقيم فى « استراحة القناطر الخيرية » ، غير بعيد عن القاهرة . وأنه سيقبلنى فور الاتصال به . وقد استمعت لهذا الكلام إلى آخره .. ولكننى كنت موقنا أن « جمال سالم » أخطأ فهم مزاح « عبد الناصر » واسلوبه . فهو لا يفضّض إلا نادرا . ولكنه اذا غضب كان غضبه شديدا من ناحية . كما أن « صفاء مزاحه » كان يحتاج ، من ناحية أخرى ، إلى وقت يطول !.

وقد صبح ما توقعته . إذ أنى طلبت استراحة القناطر فرد على الأخ محمد أحمد وقال إن الرئيس نائم وأنه عند استيقاظه سيتصل بي . وأعدت السماعة إلى مكانها ، وأنا أعرف أنه لن يتصل بي ثانية . وقد تحقق ما توقعته تماما . فلم يتصل بي أحد . ولكن « جمال سالم » هو الذى اتصل بي ، وقد بدت فى صوته لفة من يريد أن يعرف نتيجة تدخله ووساطته فأخبرته بما حدث ، فبدت على صوته خيبة أمل عميقة . وقال : « اذن نتقابل غدا فى مكتبى » .

ذهبت إلى مكتبه . وفى جيبى استقالة مسببة . وقد أطلعت عليها « جمال سالم » ، بعد فترة قصيرة من الحديث معه . علمت منه أسفه الشديد لعدم نجاحه . وقد لاحظت أنه بدأ يميل إلى جانب « عبد الناصر » ، بمعنى « أننى هولت من أمر الخطاب ، وأنه لم يكن يزيد عن مجرد ابداء رغبة من مدير لوزيره ، وأنا يجب أن نشجع الموظفين على ابداء آرائهم ، وألا نعتبر كل اعتراض على تصرف من تصرفاتنا تمرداً وثورة من الرؤوسين . أما النذب فلم يكن من حقى ، وأن الوزيرين اللذان افتيانى بصحة اجراء النذب الصادر منى ، قد غررا . ب .

فقلت له : « انى اشكرك على تحشمك متاعب الوساطة . والحق أنى كنت زاهدا فى البقاء فى الوزارة . ولذلك كنت ادعو ، فى سرى ، ألا تنجح الوساطة » .

وكننت أتوقع أن يثير هذا الكلام « جمال سالم » . ولكنه تقبله بروح طيبة . ولما قلت له « أننى لم أكن فى حاجة إلى فتوى من أحد . فالمسألة قانونية وأنا محام .. ومحام أمام مجلس الدولة » . لم يعقب ، ولكنه أخذ الاستقالة وراح يقرأها معجبا بألفاظها ومعانيها . وسألنى : « متى كتبتها وكم استغرقت كتابتها من الوقت ؟ » . فلما قلت له : « اذا عرفت يا أخ جمال أننى كتبت ، منذ توليت الوزارة فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، ما لا يقل عن عشر استقالات ، وجب أن يخف عجبك . فقد تمرنت على كتابة الاستقالات » .. انفجر « جمال سالم » ضاحكا .. وراح جسمه يهتز اهتزازا عنيفا من ثورة الضحك !! ثم تصافحنا ، وتمنى لى الصحة ومستقبلا سعيدا خارج الوزارة ، ووعدنى بأنه سيزورنى دائما فى مكتبى - مكتب الحماماه - ومنزلى .

وشكرت له هذه المشاعر الجميلة ، وانصرفت دون أن يخالجنى أى شعور بأن الاستقالة

التي أعجبت « جمال سالم » ستقبل . وقد تحقق للدرة الثانية ما توقعته . فقد اتصل بى « الأخ محمد أحمد » وأخبرنى بأنه قد تحدد لى موعد لمقابلة الرئيس جمال فى منزله بمنشية البكرى .

ومضيت إلى الموعد .. فإذا بالرئيس جمال يقابلنى متهللا ، والحق أن هذه المقابلة ادهشتنى ، فقد ظننت أنه سيبقى فى نفسه أثر من غضبه لقرار النذب الذى اعتبره اجترأ على حقوقه ، من جهة ، والذى عده تمردا عليه ، من جهة أخرى .. اذ كانت ادارات وزارة الأرشاد القومى (الأعلام) تعتبر بالنسبة له (مواقع استراتيجية ومناطق حساسة) ..

بدأ « عبد الناصر » حديثه معى بالضحك بطريقته المألوفة التى سبق أن وصفتها ، والتى تشبه « رشف الماء » .. وبعيدة غاية البعد ، عن جلجلة ، ورنين الضحكات المبهجة التى تعدى السامعين بالبهجة والسرور .

بدأ حديثه بالعتاب قائلا :

- منذ متى نتعامل بالكتابة ؟ .. لقد أفزعنى اذ وجدت خطابا منك ، وزاد فزعى اذ رأيت الخطاب منظويا على اخطارى بأنك نذبت أحد المديرين العامين الذين يعينون بقرار جمهورى لوظيفة غير وظيفته . وكان رد الفعل الأول عندى هو أن اكتب اليك خطابا رسميا ، أقول لك فيه أن اجراءك باطل ، وأن نذبك كأن لم يكن . وبالفعل ، ناديت « على صبرى » (وكان مديرا لمكتبه) وقلت له : اكتب لفتحي رضوان حالا خطابا بهذا المعنى . ولدهشتى - أعد الخطاب بعد عشر دقائق فقط ، مع أن بعض ما أطلبه من خطابات تتأخر كتابته أياما . وأحيانا لا يكتب أبدا !! فقد أنسى ، ولا أجد من يذكرنى . ووضع على صبرى الخطاب أمامى . وامسكت بالقلم ، وهممت بالأمضاء .. ولست ادرى ما الذى منعنى عن الأمضاء وعن ارساله اليك ، قلت ماذا يريد « فتحي » من وراء هذا التصرف . أريد أن يخرج من الوزارة بطلا ؟.

وهنا قاطعته قائلا :

أية بطولة فى أن استقيل من الوزارة احتجاجا ، أو اعتراضا ، بسبب نذب موظف ؟! لقد كان الناس يتوقعون منى أن استقيل بمناسبة « اتفاقية الجلاء » .. وقد سمعت ، بأذن ،

اذاعات اجنبية تقول أنني استقلت فعلا . وأذاعات أخرى تقول أنني اترعم مجموعة من الوزراء ترفض هذه الاتفاقية . وقد حدثت أشياء كثيرة أعرف أن المصريين لا يحبونها .. ولكنى لم أرد أبدا أن استغل هذه الظروف .

* * *

وطابت نفس « عبد الناصر » لكلماتي هذه ، وقال مداعبا :

- صحيح .. لماذا لم تستقل في هذه المناسبات ، مع أنك كنت غاضبا من اتفاقية الجلاء ؟؟..

فقلت له :

- لأننى كنت مؤمنا بأننا سندخل عاجلا ، أو أجلا ، في صدام مع الأنجليز والغرب كله .. وأن المعاهدة ستسقط تلقائيا .. وكنت أحب أن أكون طرفا في هذا الصدام .

وبدا على « عبد الناصر » أنه نسي ، تماما ، موضوع ندب ذلك الموظف الكبير ، وقال :

- لكن الحقيقة أنك لم يكن لك حق في أن تتخذ هذا الإجراء . كان لابد من الرجوع الى ..

فقلت له ، بإصرار :

- إن ندب الموظف المعين بقرار جمهورى يصح أن يكون بقرار وزارى .

قال ، وهو يريد المصالحة :

- ما علينا .. ولكن أنا أريد أن أسوى معك مسألة أخرى . وهى مسألة استقالاتك . فما يمضى أسبوعان إلا وأسمع من شخص ما ، أو من جهة ما ، أنك استقلت أو ستستقيل !.

فقلت له :

- إن العمل مع الذين حولك صعب جدا ، وأنا ممن لا يحبون أن يشكوا إليك . فإما أن أحسم الأمر معهم ، وإما أن أصبر ، حتى أجد حلا بعيدا عنك .

فقال .

- هذا صحيح .. أنك لم تشك الى قط ..

وأخذ « عبد الناصر » يسألنى عن علاقتى بكل واحد ممن كانوا حوله . ويسألنى عن أسباب الصدام فأتحاشى أن أذكر شيئا .. بحجة أننى نسيت ، أو أن الأمر اتفه من أن يذكر .. ولكنه عندما ذكر اسم « على صبرى » . ألح الحاحا شديدا فى أن يعرف .

فقلت له :

- لقد حدث عندما سافرت إلى الإتحاد السوفيتى ، أن أصدرت سيادتكم قرارا بندب « على صبرى » ليكون وزيرا للأرشاد القومى ، خلال فترة سفرى . ويومها استعملت تعبيرا لم يعجبنى . اذ قلت : « خليه يمسكهم كويس » وكنت تعنى بذلك أن « يضبط موظفى وزارة الأرشاد. القومى » كأنى أنا لا أحسن ضبطهم . ولكنى صبرت على مضض .. وسافرت وعدت ، فوجدته قد اتخذ أكثر من قرار لا يمكن تنفيذه .

وهنا تفتحت شهية « عبد الناصر » .. وقال :

- أعطينى مثلا لذلك .

فقلت :

- لا داعى للأمثلة فهذه أمور تافهة ، وقد انتهت .

ولكنه أصر على أن يسمع . فقلت له :

- مثلا - أراد أن يعين شقيق أحد زملائه فى الطيران ، مديرا للأوبرا وقد عينه فعلا - فى حين أن هذا المنصب ، عين فيه عبد الرحمن صدق بوصفه وكيلًا لمصلحة الفنون التى انشأتها .. فكأنه عين موظفا على وظيفة مشغولة .. كما أنه أمر مدير السياحة ، أن يعين موظفا فى مصلحة الاستعلامات ، فى أحد مكاتب السياحة بالخارج مع عدم وجود وظيفة خالية .. وهكذا .. وهكذا .. وقد اضطررت بعد عودتى أن ألغى هذه القرارات ولا بد أن أكون قد أغضبته ، وأنا لا أقصد أن أغضبه ..

وقد حدث أن اجتمعنا فى مجلس الوزراء فى مساء اليوم التالى ، فتحدث « زكريا محيى الدين »

في هذا الاجتماع عن إصلاح قام به في وزارته ، وقال : إن ذلك سيستدعى عزل عدد من مديري المحافظات ، ومديري الوزارة ، فندبهم للديوان العام بالوزارة توطئة لعزلهم . وهنا - اضطر الرئيس جمال أن يسأل « زكريا » :

- كيف ندبتهم ؟.

ولم يفهم « زكريا » القصد من السؤال .

فقال :

- كيف ندبتهم ؟!.. ندبتهم .. أصدرت قرارا بندبتهم .

فنظر « عبد الناصر » نحوى وقال :

- ولكن .. كيف تندب مديري بقرار منك ؟.

فرد « زكريا » بحسن نية :

- ومن اذن الذى يندبهم ؟. الست وزير الداخلية ؟.

فسأله عبد الناصر :

- وهل يملك الوزير ندب مدير عين بقرار جمهورى ؟.

فأجاب الوزراء ، فى صوت واحد .. قائلين « طبعاً » .

فنظر الى « عبد الناصر » وهو يضحك بطريقته المعهودة .. ويقول :

- طيب .. طيب ..

الفصل العاشر

بشمتافنة
عبدالناصر

دق التليفون في منزلى ذات مساء ، قبيل الساعة الثانية ، ثم أخبرت بأن الرئيس جمال عبد الناصر يطلبنى ، فقممت لأرد ، دون أن أكلف نفسى مشقة استنتاج الغرض من المكالمة ، موقنا أنه أمر عادى من أمور الحكم . ولكن صوت « عبد الناصر » الذى بدت فيه نبرة مرح واضحة أدهشتنى . بقدر ما أدهشتنى صيغة السؤال الذى بدأ به المكالمة . فقد قال : « ماذا تفعل ؟ » .. فأجبت بما نسيته الآن ، ولكنه ، على أى حال ، لا يخرج عن « أنه ليس لدى شىء هام يشغلنى » . ثم تزايدت دهشتى حينما سمعت عبد الناصر يقول : « اذهب لنذهب إلى الشيطان » ! ذلك أنه - على حبه الشديد للمداعبة .. ولفوق حاسة المزاج عنده ، إلا أنه ، فى الأغلب الأعم ، يبدو رصينا ، متحفظا ، وخجولا .. فلا يتيسر إلا خلال الحديث ، وبعد أن يطمئن ، وينسى تحفظه .

وأدركت ، فى الحال ، ما يعنى الرئيس ، فقد كانت دار الأوبرا تعرض لى مسرحية (دموع إبليس) . وكانت المسرحية محلا لتعليقات كثيرة وشديدة . ومن هنا كان من السهل أن أدرك مرماه . فقلت له : « كما ترى » .. فأضاف : « حكيم معى - يقصد المشير عبد الحكيم عامر - وقد قلنا لنذهب إلى الأوبرا لنرى ماذا يقول (إبليس فتحى رضوان) ، فهل لديك مانع أن تصحبنا إلى الأوبرا ، لنكون فى ضيافتك » . فقلت له وأنا متأثر ، فعلا ، من هذه المكالمة المرحه ، الفياضة بالود والمجاملة : « هذا شرف حقيقى للمسرحية وللمؤلفها » . فقاطعنى قائلا : « طيب .. طيب ، سنذهب فى الموعد .. متى تبدأ ، أظن التاسعة إلا ربعا » فقلت : « نعم .. » فقال : « اذن سنتركك لتنهى ما عساه يكون لديك من عمل ، وسنتقابل هناك » .

وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ، واتصلت بدار الأوبرا فورا لأنهى اليهم أن الرئيس سيحضر ومعه نائبه ، فإذا بالدار تعلم . وإذا بالأستاذ أحمد حمروش مدير المسرح القومى انذاك ، - قد أخطر ، وقد كانت أكبر المشكلات التى واجهها الجميع فى تلك الليلة ، هو كيف يملأون القاعة ، ليبدو المسرح مزدهرا وليبدو أقبال الجمهور على مسرحياته عظيما أو مناسبا .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلت على عجل لدعوة عددا من موظفى المسرح والوزارة ، فقد بقيت أماكن كثيرة فى القاعة خالية . ولم يشغلنى هذا فى قليل أو كثير . ودخلنا

إلى مقصورة رئيس الجمهورية ،ومعه نائبه المشير عبد الحكيم عامر ، وكلاهما في أحسن حالاته المعنوية ، يتبادلان التعليقات الضاحكة . وكما استقبلا بالتصفيق الطويل ، حيا الرئيس الجمهور الذي كان في المسرح بسرور ، وعاد وهو يقول لى : « الناس عادة يعجب على المسرحيات التى بها أسماء كبيرة . فمن ممثلو مسرحيتك ؟ » فذكرت أسماءهم .. فقال : « لا بأس بهم . ولكن ليس عدد الكبار فبهم كافيا » ، فقلت له : « إن مهمة وزارة الثقافة أن تغير العادات الثقافية غير المستحسنة ولو تعبنا فى ذلك ، ومن العادات السيئة أن يكون العمل الفنى وقفا على أسماء بعينها . فمهمة الوزارة أن تكشف للناس عن مواهب جديدة ، وأن تقدم لهم أسماء لا يعرفونها ولم يسمعوها » . فhez رأسه وقال : « هذا صحيح .. ولكن التغيير متعب » .

وبدأت المسرحية .. وتوالت مشاهدنا وفصولها ، وعبد الناصر ، ونائبه مندمجان تماما مع أحداثها ، لا يكادان يتبادلان طوال الفصل الأول إلا أقل القليل من الكلمات .. مما عدته تحية عظيمة منهما للمسرحية . وبعد الفصل الثانى استأذن مدير الأوبرا فى أن يستقبل الرئيس الممثلين الذين يتوقون إلى قضاء بضعة دقائق معه ، فرحب بذلك واصطفوا أمامه فى الصالون الملحق بمقصورة . فتبادل مع كل منهم بضعة كلمات . فلما جاء دور « أحمد علام » أطل مع الحديث ، وكان يبدو على « عبد الناصر » التأثر لأنه لم يعد يسمع « أحمد علام » ، ويستمتع بالقائه العذب .. كما كان يفعل فى الماضى .. وتقدمت الممثلة « عايدة هلال » - وكانت قادمة من لبنان من فترة قصيرة - فقالت انها باسم فنانى سوريا ولبنان تحبى الرئيس . فسألها : « وهل أنت سعيدة بالعمل فى مصر ؟ » فقالت : « بالطبع .. مصر أم الفنون » . فضحك الرئيس قائلا : « أهلا بك » .

وفى فترة الأسترحة ، كان الحديث يلور حول شئون المسرح والفنون فى بلادنا ، ولكنه لم يتضمن سوى تعليقات سطحية على هذه الشئون . ولكننا ما كدنا نجلس ثلاثتنا فى عربة الرئيس ، حتى انفتحت شهية الجميع للكلام . وبدأ الرئيس بتعليق على ختام المسرحية ، وقال : « لماذا انتهت المسرحية بوفاة البطل ونقل جثثانه . وهو منظر ، فوق كآبته ، فإنه مرتبك ولا يبدو جميلا ، لقد كنت أفضل أن تحتم المسرحية بطعن البطل وبكاء إبليس ، فهو متفق مع عنوان المسرحية ، وما بعده .. لا معنى له » فقلت له : « إن ما بعده يقال عنه بالإنجليزية (انتى كلايمكس) أى (انكسار القمة) ، فاستعاد هذه العبارة وسأل

عن معناها . فقلت له : « الغريب أن ما تقترحه هو نفس المسرحية الأصلية ، ولكن المخرج رأى تعديل ترتيب الحوادث ، ولم أرد أن أعارضه » . فقال عبد الناصر : « أنا أعتقد أن العمل المسرحي ملك المؤلف ، لا ملك المخرج ولا يجوز له أن يخرج ، بالنص عن أصله .. ولكن له أن يفسره كما هو » . ثم التفت إلى عبد الحكيم عامر وقال : « هل تعرف يا حكيم أن هذا هو العمل الفني الثاني الذي أراه لفتحي رضوان . فقد رأيت له ، من قبل ، (فيلم مصطفى كامل) .. » فقال عبد الحكيم : « أنا شاهدته مملك » فذكرتهما بأنهما رأياه في حفلة خاصة بسينما (ريفولي) احتفالا بالعقيد الشيشيكلي . فقال عبد الناصر : « ليلتها .. أنا كنت طوال الفيلم خائفا على مصطفى ، ومشفقا من وفاته ، مع أني أعرف أنه مات منذ أكثر من خمسين سنة . هذا هو سحر العمل الفني الجيد » .

.. ثم التفت الى وقال : « اعمل فيلم آخر عن فريد » - يقصد المجاهد الوطني محمد فريد - فأكملت له : « وعن عبد الله النديم » .. فتردد قليلا ثم قال : « أنتم عملتم مسلسلة ناجحة عنه في الأذاعة .. أنا فاكرك أدائها » . وكان الرئيس عبد الناصر قد قال لي ، في مناسبة سابقة ، أنه يسهر مع الأذاعة حتى نهاية برنامجها مع « أم كلثوم » و « أضواء المدينة » اذا لم تكن الذاكرة قد خانتني . ثم توقف قليلا وقال : « أنا عارف أن فتحي رضوان غير راضى عن طول حفلات (أم كلثوم) واستمرارها إلى الرابعة صباحا ، وكثرة ترديد المقطع الواحد ، عشرين مرة أو أكثر ، والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد » . وقد عجبت - حقيقة - كيف عرف هذا الرأي . فقد حاولت أن أذكر متى سمع منى هذا الكلام ، ولم أستطع . ولكنه ضحك ، على طريقته التي اسميها (طريقة الرشف) ، وقال : « في ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم في نادى الضباط احتفالا بالملك حسين ، ولما خرجنا نوصله ، وكذا أنت رئيس الوفد المرافق له ، كان منظر الضباط ساعة الأنصراف ، وعدد غير قليل منهم نائم تماما على مقعده .. لا يرضى أحدا . وكانت عيون الملك حسين حمراء ، .. ينزل من شدة التعب .. وفي اليوم التالي بدأ الحديث تعليقا على الليلة ، فسمعتك تكلم أحدا على مقربة منى ووصل إلى سمعي كل هذا .. أنا معك .. ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف في وجه التيار » . فقلت له : « ولكننا واقفون في وجه التيار فعلا .. أأستقيم السد العالي ؟ » . فقال : « السد العالي معلنش .. ولكن يأتي على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم . دع لهم وقتا يفرجون فيه على أنفسهم » . فقلت : « ولكن العمل الفني ،

في كل مكان ، وسيلة لرفع معنوية الناس ، وتزويدهم بجرعة منعشة ، ومنشطة ، ومبهجة .. يخرجون ، بعدها ، أكثر أقبالا على الحياة .. ولكن حفلات الطرب عندنا (عملية تعذيب) .. ينام الناس في اليوم التالي إلى الظهر . ويستيقظون يشكون من الضباب ، ووجوههم صفراء ، وشهيتهم مسدودة ، ومزاجهم عكر » . فقاطعتني الرئيس : « أنا معك .. معك .. ولكن الناس ينسون أنفسهم ويعتبرون هذه الحفلة عيدا شهريا . وفي جميع الأعياد يسهر الناس إلى الصباح ، ويكونون ، في اليوم التالي ، بالصورة التي تصفها » . فقلت له : « إن التكرار في أغانيها أثره الدائم والخلقي مدمر . أنه وسيلة للتنويم أشبه بأغنية النوم للطفل » . فقال عبد الناصر : « لا تخف .. لن يستمر هذا كثيرا » . ثم توقف وقال : « بس أوعى تغضب أم كلثوم » . فضحكت وقلت : « لا سبيل لأغضابها » قال : « هذا حق » .

وفجأة تحول الحديث إلى السيد المسيح . فقد شاهد « عبد الحكيم » على المسرح شيئا يشبه « مهد طفل » ، فقال متسائلا : « هل قصتك هذه ، هي قصة المسيح .. يعني مأخوذة عن حياته ؟ » . فقلت له : « أطلاقا .. ولكن المخرج أضاف أشياء إلى المناظر ، أوحى إلى الجمهور بأن بطل المسرحية هو (المسيح) مع انقطاع الصلة بين مسرحيتي وحياة المسيح . ولكن هذا الأنطباع أقوى من تفسيري وتكديسي » .

وبدأ المشير يسألني عن تفاصيل من حياة المسيح حتى أوصلنا الرئيس إلى بيته في منشية البكري ، ووقفنا بالعربة أمام بيتي في مصر الجديدة نحو ربع ساعة يسألني وأجيب ، وقد أبدى دهشته المفرطة من أن حياته لم تزد عن ثلاثين عاما . فقال : « عجيبة .. هل مات صغيرا إلى هذا الحد .. هذه أول مرة أسمع بذلك » .

وفي جلسة مجلس الوزراء التالية لهذه السهرة المسرحية ، عقد عبد الناصر - عليه رحمة الله - ندوة فنية ، سأل فيها الوزراء عن رأيهم في مسرحية (دموع ابليس) وكان أكثر من نصف مجلس الوزراء قد شاهدوها ، فأثنوا عليها ، وكان « عبد الناصر » ظاهر السرور بهذه النتيجة . وكلما سمع ثناء عليها من أحد الوزراء نظر الى متهللا وهو يقول : « ألم أقل لك » !! كأنني كنت أنكر ذلك . ولكن أحد الوزراء من أصدقائي اكتفى بالقول « بأن نختار المسرحية فاتر جدا » . فعقب « عبد الناصر » بقوله : « ليس إلى هذا الحد ، ولكنني كنت أفضل أن يبقى النص على أصله » !.

ولما أنهت الجلسة ، ركب مع ثلاثة من الوزراء سيارة واحدة فقال لى الوزير الذى تفضل بنقد السرحية : « لقد قلت ذلك خوفا عليك من الحسد ! فشكرته على هذه الروح الكريمة !! »

وقد حدث نقاش آخر فى مجلس الوزراء حول عمل فنى آخر ، لم يكن من عملى ، ولكنه كان يتم تحت إشرافى وهو أوبريت (ياليل ياعين) . وقد اشتدت حملة عدد من الكتاب والأدباء والصحفيين على هذه المحاولة الجديدة ، إلى الحد الذى لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ القارئ فى صحيفة أو مجلة نقدا لهذا العمل الجديد . والعجيب أن هذا النقد الحاد ، والعنيف ، والمثار ، كان يتم خلال أزمة تأميم قناة السويس .. ومع خطورة الموقف السياسى المصرى والدولى . فقد كان هؤلاء النقاد مصممين على مواصلة حملتهم ، والأعجب أن (أوبريت يا ليل يا عين) كانت ، انداك ، تحت الأعداد ، ولم تكن قد فرغنا من تهيئتها . فعجاء « عبد الناصر » إلى مجلس الوزراء ، وقال لى فى عبارة جافة : « ونهاية الحملة دى ايه ؟ » . فقلت له : « هل هذا الكلام موجه لى ؟ » فقال : « طبعاً » قلت : « هذا كلام يجب أن يوجه إلى القائمين بالحملة .. أما أنا فلا أملك شيئا أفعله » . قال : « يمكن أن ترد عليهم » . قلت : « أرد على من .. وعلى ماذا؟. إن هؤلاء أشبه شيء بأناس يتسورون منزلا ، وينقدون ما يجرى فيه مما لا حق للناس فى أن يطلعوا عليه » . قال : « هذا تشبيه مع الفارق » . قلت بانفعال : « آى فارق . العمل الفنى قبل أن يتم ، اسمه - بكل اللغات - تجارب ، بروفات ، بروفيس .. فحينما ننتهى ، نسمع كلامهم على العين والرأس » . قال : « لكن هذه الحملة تنالنى أنا أيضا ، فأنا مسئول عن كل الوزارات » . فقلت له : « يمكن لاحد غيرى أن يقوم بالرد . أما أنا فإن ردى سيكون العمل نفسه .. وأنا واثق من النتيجة » . فقال عبد الناصر : « اذن .. رد ، وقل هذا الكلام » . فأجبت بشيء من الجفاف : « أنا لن أرد .. ولن أقول شيئا » . فعقب عبد الناصر متعصبا : « غريبة والله » !!

ثم خرجت فرقة (يا ليل يا عين) على الناس ، فأرضتهم إلى أبعد حد ، وكانت بداية باهرة للفن الشعبى والغنائى والتشيلى ، ولفن الرقص ، وأوحت بعشرات ومئات من الأفكار المماثلة والفرق التى نسجت على منوالها .. وحضر الرئيس عبد الناصر حفلة من حفلات

هذه الفرقة ، وأبدى سعادته وسروره بها ، وأصبحت عروضها عرضا ثابثا في جميع حفلات التحية والتكريم التي تقام لكبار الضيوف .

ولكنى لا بد أن أقيم فاصلا بين هذا الكلام .. والكلام الذى يليه : لأننى بودى أن أحدث القارئ في تصرف صدر من « عبد الناصر » ، وليس لدى ما أفسره به ، إلا أن أقول أن النفس الأنسانية ، أكثر ظواهر الكون غموضا ، وأشدّها استعصاء على الفهم ، وأبعدّها عن القوانين التي تحكم المادة ، وتحكم الكائنات الأخرى .

« فعبد الناصر » الذى رأيت شواهد عديده على عظمته ، وقوة شخصيته وبعده عن الصغار ، رأيته في الموقف الذى سأرويّه الآن - على النقيض من هذا كله .. وجملة الأمر أننى حينما كنت في موسكو ، في شتاء سنة ١٩٥٧ ، على رأس وفد ثقافى ، ألححت على وزير الثقافة السوفيتى أن يبعث إلينا بفرقة (البولشوى) في الربيع التالى . وجاء الرد من مدير (البولشوى) بأن الفرقة مرتبطة في داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه حتى مارس ١٩٥٨ وأنها لا تستطيع أن تحضر إلى مصر بعد هذا التاريخ لأن المستشار الثقافى في السفارة السوفيتية قال لهم أنه لا يتحمل مسؤولية مجيء الفرقة في شهر أبريل لأنه شهر « الخماسين » . فحرارة الجو فيه ، والعواصف الترابية .. وما تسببه من احتقان في الحلق ، كل هذه مخاطر لا يجب أن يعرضها لها ، بل يجب أن يحذرهما منه . فلما ألححت على وزير الثقافة السوفيتى وقلت له أن عودتى بغير الحصول منه على وعد مؤكد بأنه سيرسل (البولشوى) إلينا ، تجعل رحلتى إلى الاتحاد السوفيتى فشلا كاملا . وكان قد قام بيننا أثناء وجودى في ضيافته ود ، فأحس بأنه مدين لى بتحية يقدمها ، فأمسك التليفون وطلب مدير البولشوى - وصاح وأخذ يكرر كلمة « خماسين » ، قائلا « خماسين ، خماسين » .. ثم ألقى السماعه بعنف ونظر الى .. وقال : « البولشوى ستكون عندكم في أوائل ابريل من العام القادم على الرغم من الخماسين . خماسين .. خماسين .. ماذا تكون الخماسين هذه التي يخوفوننا منها !؟ » .

ولقد حمدت للوزير السوفيتى هذه الحماسة ، في محاولة أرضائى . وحدث أن جاء لزيارة مصر ، في نفس الوقت الذى وصلت فيه (فرقة البولشوى) إلى القاهرة في يوم افتتاح موسمها ، ووقفت على خشبة مسرح الأوبرا أرحب بالوزير ، و بفرقة البولشوى ، ثم عدت

إلى مقصورة رئيس الجمهورية ، وما كدت أجلس على مقعدى بجواره حتى رأيته يتجه إلى (كيسيليف) سفير الاتحاد السوفيتى فى مصر فى ذلك الوقت وقال : « ألم أطلب اليك أن تحضر فرقة البولشوى » فأخذ الرجل ، وبدا عليه أنه لم يفهم ماذا يكون الأمر ، فقال : « البولشوى ؟ » فقال مستفسرا : « أحضر فرقة البولشوى إلى مصر ؟ » . وترجم السؤال . فاندفع الوزير السوفيتى من حيث لا يدرى أن أجبته ستغضب « عبد الناصر » - وقال ضاحكا : « لولا ضغط والاح (الجاسبادين رد فان) - أى « رضوان المحترم » - لما جاء البولشوى إلى مصر فقاطعه « عبد الناصر » قائلا : « ولكننى أسأل السفير .. أأست أنا الذى طلبت حضور البولشوى .. وألم تعدنى أنت بمجيئها ؟ » .

وأدرك السفير بأن الأجوبة بغير ما يريد « عبد الناصر » ستغضبه . فقال كلمتين للوزير السوفيتى بالروسية ، ثم قال : « بالتأكيد سيادتك طلبت ذلك . طلبت مرارا » . وسكت أنا ، وانتقل الحديث إلى شىء آخر . وأخذت أنا أتأمل فى هذه الواقعة طويلا ، وأسائل نفسى : أأكون عبد الناصر برغم مكانته العالمية كلها - محتاجا إلى هذا الشرف الصغير ؟! شرف احضار فرقة رقص وغناء ، مهما بلغت من الأهمية والعظمة .. هو الذى يقيم الدنيا ويقعدها بقراراته المدوية .. يمكن أن يكون محتاجا لشيء كهذا؟.

ولم يوجه الى « عبد الناصر » كلمة واحدة طوال الحفلة . وحيانى ، بفتور عند الأنصراف .

وفى اليوم التالى ظهرت صورة عبد الناصر فى المقصورة بالأوبرا ومعه السفير والوزير ، وعلى الرغم من أننى كنت أجلس إلى جواره ، إلا أننى لم أجد لنفسى وجودا . فهل محيت صورتي .. وعقابا على أى شىء ؟! ..

لقد كتب الكاتب الفرنسى « فوشيه » أن عبد الناصر قد طالع - وهو ما يزال بالكلية الحربية - عددا من الكتب أورد بها قائمة فى كتابه عن عبد الناصر .. ومن بينها كتاب « أرمسترونج » عن أناتورك المعنون : « الذئب الأغبر » . وقد حدثنى الأخ الأستاذ حلمى سلام أن « عبد الناصر » كان ذات يوم فى زيارة له بمنزله ، فلما هم بالانصراف .. وقف أمام مكتبة الأستاذ حلمى ، ثم مد يده إلى كتاب « الذئب الأغبر » فى نسخته المترجمة ، واستأذن فى أخذه ليقرأه . ومعنى هذا أن قائمة الكتب التى وردت فى كتاب « فوشيه » ،

والتي أمليت له ، لم تكن تحوى الكتب التي قرأها جمال عبد الناصر فعلا ، بقدر ما كانت تحوى الكتب التي كان عبد الناصر يتمنى قراءتها .

ولست أعرف مدى قدرة عبد الناصر على القراءة بعد أن ولى شئون مصر وزادت أعباؤه ، وكبر مقامه . ولكن الذى استطيع أن أوكد أنه كان حريصا أشد الحرص على تثقيف نفسه ، وتثقيف الضباط الذين من حوله ، وأنه كان صاحب فكرة ترجمة وتلخيص كتب ذات أهمية خاصة فى السياسة والأقتصاد وطبعها على الآلة الكاتبة وتوزيعها - بعد نسخها على (الرونيو) - على الضباط والوزراء . وهذه الكتب التى كونت بعد ذلك سلسلة (اخترنا لك) . والمتابع لهذه السلسلة يرى تنوع الموضوعات فيها ، وشدة اتصالها بمنطقة الشرق العربى ، وتطور الأحداث السياسية الكبرى فى أيامنا ، وبالأفكار والمذاهب الاشتراكية . وأحسب أن بعض هذه الكتب كانت من بين ما قرأه عبد الناصر . . ولكن المؤكد أن عبد الناصر كان يقرأ الصحف الأوربية المحرة باللغة الإنجليزية بنهم شديد ، وأنه كان حريصا على قراءة كل ما يكتب عنه فى صحف بريطانيا ، وأن لغته الإنجليزية تقدمت كثيرا بفضل مقابلاته مع الرجال من طراز « نهرو » و« سوكارنو » ممن يتكلمون الإنجليزية ، فضلا عن هذه الأفواج من الصحفيين ومراسلى الجرائد والسفراء والشخصيات البريطانية والأميركية وغيرهم ممن كانوا يقابلونه ويتكلمون هذه اللغة .

و ذات يوم كنا نتكلم عن الكتب التى تطبعها وتنشرها وزارة الأرشاد القومى ثم وزارة الثقافة . وكنت أشكو من ضعف أقبال المصريين على افتناء ومطالعة الكتب ، على الرغم من أن سلاسل وزارة الأرشاد القومى كانت بأقلام أكبر الكتاب المصريين . وكانت تباع بأرخص الأسعار بعد أن تعلن عنها فى الصحف الصباحية الأربعة (الأهرام - الأخبار - الجمهورية - الشعب) فضلا عن المجلات والأذاعة فإننا لم نوزع من كتاب محرر بقلم العقاد أو طه حسين أكثر من ألفى نسخة . فقال عبد الناصر : « كتاب يقرؤه فرد واحد ، ينفع فالعبرة ليست بالكثرة ، فرب فرد يتأثر بالكتاب . ويكون هذا الفرد بمثابة ألف شخص » . وكان هذا القول من أجمل ما سمعت من « عبد الناصر » .

ووجهت اليه مرة خطابا مفتوحا فى إحدى المجلات ، أدعوه فيه إلى العناية بكتب التراث لأعادة طبعها ، مشروحة ومبوبة ومعلق عليها ومذيلة بالفهارس والتراجم ، لأن ذلك هو

سبيل البعث الحقيقي لمصر . فجاء إلى مجلس الوزراء غاضبا للجوئ لهذا الأسلوب . وكأنه يقول : « وزير من وزرائى لا يجمل به أن يخاطبنى كأنه أحد الكتاب » . وقد أحسست بأنه محق إلى حد ما فى غضبه .. ولكنى قلت من قبيل المكابرة : « وأنا لم أوجهه إلى سيادتك لتقرأه » . فقال : « ولماذا توجهه الى ؟ » قلت : « لأثير الأهتمام بما فيه فيقرأه عدد كبير من الناس » . فرضى عن هذا التفسير وسكت .

★ ★ ★

ولقد كانت (السينما) هى احدى هوايات « عبد الناصر » المحببة اليه .. واذكر ، فى صدد السينما ، ثلاث ذكريات . أولاها - وقد كانت صلتى به فى بدايتها المبكرة - يوم الفنا وزارة الثورة الأولى فى السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٢ . فقد كان حريصا على أن يتم تأليف الوزارة فى ذلك اليوم ، وكان يستبعد كل شيء من شأنه أن يؤدى إلى تأجيل الوزارة ولو ليوم واحد . فلما اطمأن إلى أن الوزارة ألفت ، قال - وهو يتنفس الصعداء .. حقيقة لا مجازا « الان استطيع أن اذهب إلى السينما .. تصور أننى لم أر فيلما واحدا منذ شهرين » .

وعرفت يومها أن الحرمان من السينما لمدة شهرين ، هو عقاب شديد بالنسبة له ..

والذكرى الثانية ، يوم حدثنى عن فيلم نسيت اسمه ، واسم بطله ، وكنت أرجح أنه الفيلم الرائع « أريد أن أعيش » الذى مثلته « سوزان هيوارد » . وقد قيل يومها أن بطلته صهيونية ، أو أنها ذات ميول صهيونية عبرت عنها صراحة ، أو شاركت فى نشاط مؤسسة الجباية اليهودية التى تمول اسرائيل وتجمع لها التبرعات من يهود الولايات المتحدة .

وطالب بعضهم بمنع عرض الفيلم . ومنع الفيلم فعلا لمدة طويلة ثم قال لى عبد الناصر : « متى تفرج عن الفيلم ؟ » فسألته : « وهل هو فيلم جيد ، هل رأيته سيادتك ؟ » فقال بحماس : « طبعا .. فيلم جيد ، لاتسمع كلام هؤلاء الأغبياء » . وبعد تحريات قمت بها ، وجدت أن التهمة الملحقة بالمثلثة ، لا دليل عليها ، ورأيت الفيلم ، فوجدته عملا فنيا ممتازا لا زلت أذكره ، وأذكر اللحظة التى سبقت فيها البطلة إلى غرفة الأختناق بالغاز وهى تقول للقسيس : « أبته .. أنى خائفة » .. ثم ردت على الجلاد حينما نصحتها بأن تأخذ نفسا عميقا ، فإن ذلك يجعل الأمر أيسر فصاحت فى وجهه : « من أخبرك بذلك ؟ ».

ولست أنسى أنني حين أفرجت عن الفيلم ، تلقيت تهمة خاصة من عبد الناصر على ذلك ..

والذكرى الثالثة كانت بالنسبة لعبد الناصر ، حرجا مفرطا . فقد طلب المخرج السينمائي العالمي « سيسيل دى ميل » بأن يقدم له تسهيلات هائلة في مصر عند إعادة اخراجه الفيلم الضخم (الوصايا العشر) على أن يبذل (سيسيل دى ميل) جهودا خاصة لسرعة ادخال التليفزيون في مصر .. وتعد « عبد الناصر » وعده . وتم اخراج الفيلم الذى يروى قصة خروج بنى اسرائيل من مصر ، وعلى رأسهم موسى عليه السلام ، وعبورهم البحر الأحمر . ولما عرض الفيلم في الولايات المتحدة ، وراه العرب صاحوا : « إن هذه أكبر دعاية لبنى اسرائيل ، وأكبر دعاية ضد مصر » . فاضطر « عبد الناصر » لوقف عرض الفيلم في مصر . فجاءه « سيسيل دى ميل » محتجا وهو يقول : « إن الفيلم يروى احدى قصص القرآن ملتزما بنصوص الكتاب الكريم غير محرف لها في أى موضع ولا مضيف اليها حرفا » . وقال لى « عبد الناصر » : « هل عرض قصة قرآنية أمر يعاب ؟ » فقلت له : « أنا مع العرب ، إن اظهار شعب مصر - ولو من الاف السنين - في صورة المضطهد للأقلية اليهودية ، واطهار فرعون مصر في ثوب الطاغية ، يكسب قضية الصهيونية عطفًا ، وعرضه الان ليس عملا فنيا بل هو عمل سياسى بحت » . وسكت عبد الناصر .

وقد بدت آثار مطالعات « عبد الناصر » في مناقشاته مع بعض الوزراء .. ففي احدى الجلسات ، اشار « سيد مرعى » ، وزير الأصلاح الزراعى انذاك ، إلى كتاب لكاتب غربي ، ولخص بعض أفكاره . فأعترض « عبد الناصر » على هذا التلخيص ، وقال : « إن الرجل يقول في كتابه نقيض ما تقول » . فقال الوزير : « هذا ما فهمته أنا » . فقال له الرئيس : « لابد أنك قرأته بالمقلوب » .

★ ★ ★

وقد أخبرنى أحد رؤساء الوزارات أن مناقشة حادة دارت بين « عبد الناصر » وبين أحد وزراء الاقتصاد . فقد كان الوزير يشكو من الضغوط التضخمية على الاقتصاد المصرى ، ويقترح لمواجهة هذه الضغوط سياسة اقتصادية انكماشية . وكانت العلاقة بين الرئيس والوزير سيئة في تلك الفترة وقد خرج الوزير بعد هذه المناقشة من الوزارة . وقد أجاب عليه

الرئيس : « ماذا حدث يا دكتور منذ سنة واحدة فقط ، كانوا خصوم سياستك يقولون أنها تؤدي إلى التضخم ، وكنت أنت تنكر هذا بشدة .. فماذا جد؟ » قال الوزير : « كان ذلك منذ أكثر من سنة » فقال الرئيس : « لا منذ سنة واحدة فقط . ولكن ، لنقل سنتين .. ما الذي تغير من سياستنا .. السياسة هي هي ، والأرقام هي هي .. وربما الإنفاق الحكومي أصبح أقل .. لا سأخبرك عن السبب .. أنت ذهبت إلى (المومس الفاضلة) .. وشرح الرئيس نفسه وقال : لقد قرأت كتابا لاقتصادى أمريكى كبير يقول فيه : أننا نهى الدول النامية عن أن تقوم بالتنمية مع التضخم ، في حين أن أمريكا تعاني من تضخم رهيب ، وتواصل التوسع في اقتصادها ، فكأننا كالمومس الفاضلة التي تمارس الرذيلة ، ثم تقف على باب دارها لتعظ الناس وتحذرهم من الرذيلة » .

وضحك الوزراء طويلا . وخرج الوزير بعد قليل من الوزارة . ويومها قال بعض الوزراء : « إن ازدياد ثقافة الرئيس ليس من مصلحتنا في شيء » .

الفصل الحادى عشر

مجوهرات فانوف
من الذى سرقها
ووزعها على عشيقاته؟

لکم رددت نفسی عن أن اکتب هذا الفصل . لأنه يتعلق بى . ويدور حولى .. ولکم وددت . فى ذات الوقت ، ان اکتبه . لأنه صفحة من تاریخ بلادنا لا ینبغى أن يتجاوزها التسیجل . واذ كان هذا الفصل فیه هزل یدعو إلى الضحک أو الأبتسام . فما أحوجنا ، ونحن نروى التاریخ الصادق . أن نذكر هزله مع جدہ . وخفیفة مع ثقیلة ؛ وغریبه مع مألوفه . فالتاریخ الأنسانى هو صورة الأنسان وصداه ، والأنسان - كما وصفه کتاب الله الکریم - جامع لمناقضات : خلقه الله بیده . ونفخ فیه من روحه . وسواه على صورته ، ولكنه خلقه من صلصال ، ومن حمأ مسنون . ومن ماء مهین .. فكان فیه اشراقة السماء . وظلام الطین !.

كان عزل الملك فاروق ، ٢٦ من یولية سنة ١٩٥٢ ، حدثا خطیرا غاية الخطر فى الحیة الدولیة . ذلك لأن الملكية المصریة . كما سبق القول ، هى أقدم الملكیات طرا . وقد استمرت - بلا انقطاع - أربعة آلاف سنة ، ولأن موقع مصر ، واتصالها بأفریقیا وأسیا ، وبالغرب والمسلمین والمسیحیین والیهود .. ولجریان قناة السویس فیه ، ولأطلالها على البحرین العظیمین : الأحمر والأبیض . فإن کل ما یجرى على أرضها . ونحدث لرجالها . یتبر ذا شأن عند الناس جمیعا . ومن هنا ، فقد برزت شخصیة الملك فاروق على الصفحات الأولى لكل جرائد العالم : شرقه ، وغریبه .. قدیمة وحدیثه . وراحت الأقلام تکتب عنه ، وتخلل ، وتهتم ، وتدافع عن تاریخه ، وتهکم . وتسخر .. ثم تثنى وتمجد . کل قلم على هواه . وكل صحیفة تبعا لمذهبها !!.

واخیرا .. رأى الملك فاروق أن یتولى بنفسه مهمة الدفاع عن نفسه . وأن یهاجم الثورة وكل من اتصل بها ، فلم یجد شخصا یجسد له هذه الثورة ، ویصلح هدفا لضرباتہ ، سواى ، فلم یکن « عبد الناصر » قد ظهر بعد ، وكان « نجیب » یبدو أنه لن یکون عدوا لأحد . وقد وجد الملك إلى جانبہ ، فى تلك اللحظة ، کاتباً من کتاب التراجم ، والفصول السیاسیة ، اسمہ (وارد برايس Waard Price) - وقد قرأت له کتابا جیدا بعنوان : « عرفت هؤلاء الطغاة » ، تحدث فیه عن « هتلر » و « موسولینى » . و « ستالین » حدیث العارف بهم ، اذ قد زارهم . ووجه الهم الأسئلة . وقرأ الکثیر من الوثائق التى لا تتاح لغيره من الکتاب . وقد كان (وارد برايس) هذا ، من کبار کتاب صحیفة بریطانیة ذائعة

الصيت هي (امبير نيوز - Empire News) أى انباء الأمبراطورية - وعلى الرغم من أنى كنت فى أول الثورة مشرفا على النشاط الأذاعى والدعائى للثورة . إلا أنى لم أطلع على هذه الصحيفة .

● مفاجأة نصف الليل !

وفى ذات ليلة سمعت فى حديقة منزل الصغيرة ، حركة ووقع أقدام لأشخاص كثيرين ، وصوت سيارة تقف فجأة أمام دارى ، فأفقت من النوم ، ونظرت إلى ساعتى ، فإذا نحن فى الثالثة بعد منتصف الليل !! . وعلى الرغم من أنى من المتفائلين غير المتطيرين . فإنى لم أجد تفسيراً لهذا الضجيج فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، إلا أن تكون الثورة قد انتكست وأن أقواماً قد رأوا أن يقصدوا دارى . ولم يطل تفكيرى . فقد قمت من فراشى ، ورأيت نفسى هادئاً ، وإذا بالباب يفتح ليدخل شاب لم يقع نظرى على وجهه من قبل ، ولم أستطع أن أقرا على وجهه شيئاً عن الدافع الذى حفزه إلى طرق بابى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وقد سكن كل الأحياء ، وناموا ، ورأيت من ورائه جندى الحراسة المعين على باب دارى يحمى تحيته العسكرية . وأنا مستغرب ، كيف سمح الجندى لهذا الشاب أن يدخل بيتى ، ودون إذن ، فى هذه الظروف الشاذة ؟ .

ولكننى لمحت وراء العسكرى ضابطاً - وربما أكثر من ضابط - فزاد الأمر تعقيداً عندى ، وأصبحت شديد الفضول لمعرفة كل هذه الألغاز .

لقد كانت زيارة متأخرة فى الليل البهيم . فى عهد ما قبل الثورة أمراً مألوفاً ، ولا غرابة فيه بالنسبة لى . ولكن .. أن يأتى الطارق ، وأنا فى الوزارة . والحارس المخصص لحمايتى لا يرى فى ذلك ما يدعو إلى مؤاخذته ، ومن خلفه ضباط .. فهذا هو الذى لا عهد لى به ، والذى يحتاج منى إلى تفكير سريع لأعرف بالضبط موقفى من هذه المفاجأة الليلية .

وأخيراً تكلم الشاب . قال أنه لا يعرف كيف يعتذر لى ، فقلت له : - وأنا بين الدهشة والضيق - « دعنا من الاعتذار . وقل ما الغرض من هذه الزيارة ؟ » . فقال : « سيادتكم ستدهش اذا علمت هذا الغرض » فقلت له ، وأنا أكاد أفقد هدوء أعصابى وأخرج عن حلمى : « ياسيدى إنى مندهش بما فيه الكفاية ، ولست فى حاجة إلى مزيد

من الدهشة . تكلم أرجوك » .

فقال : « أنا في الحقيقة في غاية الخجل ، لأنى لا أعرف كيف أبدا الكلام » . عند هذه العبارة ، تصورت أن الأمر قد انجلى عنه كل الغموض ، ولست في حاجة إلى الأنتظار ، فلا بد من أن ادخل إلى حجرتى لارتدى ثيائى وأذهب مع هذا الشاب ، والضباط الذين وقفوا خلفه أيا كانوا . فلا أحد يقتحم منزلا في الساعة الثالثة صباحا .. ويتعثر في الكلام .. إلا أن يكون موظفا مكلفا بالقاء القبض على أى أنسان في مثل هذه الساعة مما يخرج القائم به ، فإن حرجه سيزداد ولا شك اذا ما كان المطلوب القبض عليه رجلا في السلطة .

فقلت له : « لا داعى للاعتذار .. فأنا قد فهمت » .

فاذا بالشاب قد سرى عنه تماما . وقال : « اذن هم قد اتصلوا بك قبل مجيئنا » . وتوقفت عن السير ، ونظرت اليه . وقد خيل إلى أن في الأمر لبسا لا محالة . فقلت له في صوت تشوبه حدة : « من هم ؟ » .

فقال : « الأهرام » .

وشرد ذهنى . وخيل إلى أننى في كابوس . فقلت له متسائلا : « الأهرام ! أى أهرام !؟ » .

فقال الشاب ، وهو لا يعرف كيف يجد الألفاظ التى تعينه على التعبير عن نفسه : « جريدة الأهرام » .

فاقتربت منه لتأكد من سلامة عقله . وقلت له : « الأهرام تكلمنى الساعة الثالثة صباحا .. هل تجرؤ .. ها يعقل أن تفعل هذا .. هل حدث في البلد شيء ؟ » .

فاذا بالشاب يرتبك - أو يزدادا ارتباكا - ويحسب أننى أوبخه وأقرعه . فقال : « لا .. كل شيء على ما يرام . وإنما نحن .. نحن الذين ارتكبنا هذه المخالفة ، ولكن ليس بأرادتنا .. فقد الزمنا الزاما .. » .

ولا اريد أن استنفد حلم القارئ أكثر مما فعلت ، فقد عرفت ، آخر الأمر أن

« الأهرام » تلقت ملخص مقالة كاملة بقلم « صاحب الجلالة » (الملك فاروق) ، بها جمعى أنا بالذات ، وودت الجريدة أن تسبق غيرها ، وأن تنشر هذه المقالة ، فأبّت سلطات الرقابة إلا أن أطلع عليها ، وأن أجيز نشرها ، وأن أرد عليها .

ولم تتردد الجريدة في أن تنفذ أوامر الرقابة . ولكنها طلبت أن يصحب المحرر عدد من ضباط الحرس ليسمح الحارس الواقف على بابى بدخوله إلى ، ولأطمئن إلى أن المسألة ، مسألة تحرير ، وحديث ، ورد .. وأنها ليست مؤامرة وقعت بليل . وعلى ذلك فام الركيب المكون من محرر الجريدة الشاب ، ومعه موظف من الرقابة ، وضابطان : أحدهما شاب ، وثانيهما في منتصف العمر ، وجنديان ، واتجهوا إلى بيتى الذى اعتاد ، من قبل ، أن يستقبل أمثالهم كثيرا . وشعرت في هذه اللحظة بالهوان . إذ أن موظفا ما في الرقابة ، بدا له أن هذا اجراء لازم من وجهة نظر أمن الدولة ، فلم يتردد في أن ينفذ ما خطر على باله ، دون أن يحسب لراحته أى حساب ، ولا لما قد يسببه هذا الأجراء لى من ازعاج !!.

★ ★ ★

ومد الشاب يده ومعه ورقة فيها ملخص المقال ، وترددت في أن اخذ منه ما قدمه لى .. بل فكرت في أن أطرده الجميع بغلظة . ولكن غلبت على طبيعتى . وقد لا يكون لى فضل . فإن فضولى كان قد بلغ أقصى درجاته . إذ لأول مرة في تاريخى أدخل في حوار صحفى مع ملك ، ومع الملك فاروق بالذات ، الذى عشنا سنوات نكتب ضده المقالات ، ونحاول ، ما استطعنا ، أن نصل إلى أغراضنا دون أن يقف القانون عائقا في طريقنا . فأخذت المقال ، ولم أكن أتصور مطلقا أننى سافرا فيه ذلك الكلام الغريب ، والممتع ، الذى احتوى عليه .

● الملك يتكلم ..!

بدأ « جلالة الملك » مقالة بقوله (إن الثورة أساءت الأخيار ، إذ اسندت إلى منصب وزير الدعاية ، لآفتين كبيرتين في .. الآفة الأولى : أننى « شيوعى » .. والآفة الثانية : أننى ، كما يقول المصريون « رد سجون » يعنى : أننى ممن لا يخرجون من السجون إلا ليعودوا إليها . وإن الثورة التى تختار « شيوعيا » ليكون لسانها ، لا يمكن إلا أن تكون حمقاء ،

لا ندرى خيرها من شرها . اذ كيف تستقيم الأمور في بلد يكون من وررائه من هم أصحاب سوابق ؟! . وأضاف الملك الأخير لمصر : « إننى لن أدخر وسعا في نشر الشيوعية في مصر وفي البلاد العربية » ، ولست أدري ماذا قال الملك حينما أصبحت ، فيما بعد ، هدفا خاصا لحملاات الشيوعيين في مصر ، ولا سيما في الفترة الأولى لشغلي منصب الوزير . وبطبيعة الحال ، فإن ما قصده الملك فاروق كان مجرد اثارة لمخاوف الغرب منى .. كأن دول العرب أو الشرق في حاجة إلى معلومات من جلالة الملك . وكأن ادارات المخابرات بأجهزتها الحديثة المخارفة للمألوف ، واعتماداتها المالية الخرافية ومئات الألوف من أعوانها وعيونها المنبتين في كل مكان ، لا تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أى شخص يلعب دورا في السياسة ولو كان من ادوار « الكومبارس » !!.

على أن المقال الثاني كان أكثر طرافة ، مما يدل على أن خيال الملك ، وكاتب مقالته (وارد برايس) رأيا أن يزيدا الجرعة ، ليستثيرا نصيبا أكبر من اهتمام الناس في مشارق الأرض ومغاربها . فقال « إن الشيوعى فتحى رضوان نسى شيوعيته ، حينما دخل القصور الملكية .. فرأى مجوهرات الملكة ، ومجوهرات شقيقات الملك وبناته ، من عقود وأقراط وخواتم و (بروشات) ، فقد اغترف منها إلى بيته أكواما وأكداسا » . ولكنى لم أوزعها على الفقراء ، كما كان يقضى على مذهبي ، ولم أعطيها للدولة كما كانت تقضى الأمانة .. بل وزعتها على من ؟ على عشيقاتي اللاتي لا تتجاوز الواحدة منهن السابعة عشرة من عمرها !!.

* * *

والحق أن هذا الكلام ، وإن كان كله خيالا في خيال ، إلا أنه جدير بأن يسعد وزيرا فقيرا لم ير هذه الأصناف الباهرة من الخلى ولو من بعيد . وما رآه منها كان من الخلى الزائف الذى تستعمله ممثلات المسرح . وقد زاد هذا الخيال متعة إذ أضاف إلى جانب المال الذى يسيل له لعاب الناس في القديم والحديث . خصوصا إذا كانت بهذه المقادير التى تدير الرأس . متعة أخرى يقتتل الناس في سبيلها . ويجكون المؤامرات والدسائس من أجلها . وهى أن يكون لهم (حريم) من الجميلات الكثيرات العدد . وصغيرات السن التى لا تتجاوز الواحدة منهن السابعة عشرة !!.

وفي المقال الثالث .. اتسع خيال الملك . وكاتب وحيه (وإرد برايس) . فقالا أننى حينما علمت أن أفواج السياح ستندفق في حجرات وأبهاء القصور الملكية ، أسرعت فوضعت إلى جانب فراشه « كتباً جنسية » .. وزودت مكتبته « بصور شائنة » !!.

وفي المقال الرابع .. قال الملك أننى قدت مظاهرة بعد تولى الوزارة وذهبت بها إلى ميدان المحطة بالقاهرة حيث كان يقف تمثال لوالده فانهلث على شوارب الملك القديم فحطمتها . والحق أن الملك قد بلغ ، بهذا المقال بالذات ، أقصى حدود الجرأة . لأن كل من يقيم بالقاهرة يعلم أنه لم يكن للملك فؤاد في يوم من الأيام - وحتى في عهد الملك فاروق نفسه - تمثال بشوارب !!.

والطريف هنا .. أن بعض الذين لم يكن يعجبهم من الثورة ومن زعمائها العجب . ولا الصبام في رجب . ضايقتهم مقالات الملك فاروق ضدى إلى حد أن أحد زعماء السعديين - وكان نائباً ومحامياً كبيراً - جلس في حجرة المحامين في الزقازيق حيث يوجد عدد من أقرانى وأصدقائى وقال : « إن هذه المقالات هى من تأليفى أنا ، وأن الملك فاروق لم يكتب شيئاً من هذا الكلام . وأن جريدة (امباير نيوز) جريدة لم يسمع بها أحد » . وهاج هذا الكلام غضب أجد ذوى قرابتي فتأسك مع النائب السعدى .. وكلاهما تجاوز الخمسين من عمره !!.

على أن (الملك فاروق) ، بعد هذه المقالات ، أثر الصمت . ولم يعد يكتب أو يقول شيئاً . وانصرف إلى حياته الخاصة وإلى استثمار أمواله في مشروعات مربحة . ولعله ندم إذ تبين أنه تعجل الحوادث ، وأنه كان يجب أن يدخر كلماته للشباب « جمال عبد الناصر » الذى سيسقط الملكية ، ويتعقب أفراد (أسرة محمد على) بما لم يخطر لهم على بال .

والحق أنه لم يطلع ملك بثورة ، بالسهولة التى خلع بها الملك فاروق . ولا تفسير لهذا إلا أن دوائر الغرب ، من أنجليز وأمريكان ، كانت قد بنيت تماماً من اصلاح حال الملك . فقد وعدوا كثيراً بأنه سيقصى من حاشيته ذوى السمعة السيئة ، وأنه سيدع فرصة لعناصر جديدة ونظيفة لكى تتولى الحكم في بلاده ، وتقوم بتقديم المشورة له . ولكنه كان لا يخلو لنفسه ، حتى يعاوده الضعف أمام بطانته ذات التأثير البالغ عليه . فلم تر تلك الدوائر بدا من أن تدعه ليلقى مصيره . وكانوا قد أرسلوا اليه صديقه « عمرو باشا » - بطل

« الاسكواش راكت » العالمى الذى كان الملك قد عينه سفيراً له فى لندن - وذهب اليه « عمرو باشا » فى مصيفه « بكابرى » .. أو « دوفيل » ، ونصحته بسرعة العودة إلى مصر لأن الظروف فيها اسوأ مما يتصور . وكان زعماء الأحزاب قد أعدوا عريضة ، ينبهوه فيها على سوء حكمه فى عبارات شديدة اللهجة ، لم يألف زعماء الأحزاب فى مصر أن يستعملوها أو يستعملوا ما يشبهها فى مخاطبة الملك . بل فى مخاطبة أحد من كبار موظفى ديوانه . ولكنه لم يعبأ بهذه النصيحة - وأبدى دهشته من أن رياضياً عالمياً « كعمرو باشا » يهتز لما يقوله الأنجليز الذين لا يعرفون ، طبيعة السياسة فى مصر !! .

والحق أن الملك لم يكن بعيداً عن الصواب كثيراً . فإنه عندما عاد . ومضت بضعة شهور على ثورة هؤلاء الزعماء واحتجاجهم ، حتى تعاونوا معه جميعاً . تقريباً ، وألّفوا الوزارات فى ظل حكمه . ولو تركوا لأنفسهم ، لبقى الحال على ما كان عليه ، ولكن « الحلبة » كان قد دخل إليها عنصر جديد لم يحسب الملك حسابه ، ذلك هو ظهور غضب شعبى يزداد مع الأيام تشكلاً ، ويزداد جرأة ، مع ظهور تشكيل عسكري على قدر من التنظيم والاستمرار .

وقد أدرك زعماء الغرب عندما تبينوا هذه الحقائق ، أن المراهنة على الملك ، فقدت كل مبرراتها . وكان هو نفسه يحس بذلك قبل ٢٣ يولية بشهور عديدة ، ويقول مازحاً مزاح أكثره جد ، إنه ذاهب ، وأنه لن يبقى بعده من الملوك إلا « ملوك الكوتشينية الأربعة » !! .

على أنه يجب أن نذكر هنا حقيقتين : أولاًهما ما سمعته نقلاً عن المهندس أحمد عبده الشرباصى الذى عمل لسنوات طويلة وزيراً فى حكومات الثورة . رواية لما صرح له به الأستاذ مرتضى المراغى - وزير الداخلية فى آخر وزارة قبل الثورة مباشرة - وخلاصة هذا التصريح أن الوزارة اتصلت بالسفارة البريطانية صبيحة ٢٣ يوليو ، وتداولت معها فى الموقف الناجم عن ثورة الضباط ، وسألت الوزارة : « هل تنصح السفارة بمقاومة الضباط ، الأمر الذى كان ممكناً فى رأى الوزارة لوجود قوات مسلحة ذات قيمة موائية للدولة ، وإن مجرد ظهور بوادى هذه المقاومة سيحمل أكثر الذين انضموا إلى الثورة وآمنوا بها إلى الأنقاض عنها » . فكان جواب السفارة : « إن رجلاً لا يدافع عن نفسه لا يستحق أن يدافع عنه الآخرون » . ولذلك قررت الوزارة أن تنفض يدها منه .

وإدرك أنى استقبلت ، فى الأيام الأولى للثورة ، السكرتير المسئول عن شئون الدعاية والصحافة فى السفارة البريطانية - وكان قد جاء ليحتج على الحملات التى نوجهها براع الأذاعة الموجهة إلى الأستعمار فى أفريقيا ولا سيما فى عربها - وفيما نحن نتكلم ، دخل أحد أعضاء مجلس القيادة الذى سمع هذا السياسى البريطانى يقول : « لو أن بريطانيا كانت تود أن تقمع الثورة ، لكاف ذلك من أيسر الأمور . فقد كان فى السويس ثمانون ألف جندى بريطانى ، مع قوة طيران كبيرة . ولكنهم كانوا يطمنون للثورة النجاح ، بعد اليأس المتكرر من اصلاح حال فاروق » !.

● عشاء .. سجله التاريخ !

ولقد كف الناس عن الكلام عن الملك فاروق ، حتى توفاه الله فى ١٨ مارس ١٩٦٥ ، فى مطعم فى إيطاليا بعد عشاء سجله التاريخ فى كتاب الأمريكى (ميشيل سترن) المعنون : « فاروق ، فى كتاب لم يمر على الرقابة » . فقال عن هذا العشاء : « قد هاجم فاروق طبقا فيه اثني عشر محارة من الصنف الكبير غارق فى مرقة (التابسكو) الشهيرة ، وقد أعاناه على ابتلاع هذه الوجبة الضخمة زجاجة كاملة وضخمة حجمها ٣٢ أوقية من ماء « أفيان » ، ثم جاء دور فخدة خروف تساوى أربع وجبات كاملة من اللحم لأربعة رجال . مع البطاطس المحمر تيسر وصولها إلى بطنه بفضل زجاجة من الصودا أما الحلو فقد كان كومة ضخمة من الصنف المعروف فى إيطاليا (الجبل الأبيض) أو (مونت بيانكو) والمكون من دقيق الكستناء (أبو فروة) المغلى فى اللبن والمخلوط بمحلول السكر ، والمخلى بالقشدة المضروبة المتوجة بالفاكهة ، وقد تبع ذلك زجاجتان من الحجم الصغير من الكوكاكولا . وتبعاً للنظام الإيطالى . أنهى الملك هذه الوجبة بعدد من البرتقالات ، ثم عدد آخر من زجاجات الكوكاكولا . وبعد هذا ، استحق فاروق - وكأنا هو فى سباق فى حلبة العدو ، ووصل إلى ختام السباق - أن يستريح . فقد اضطجع فى مقعده ، وأخرج من جيبه سيجارا ضخما من تبغ (هافانا) ثم أشعله ، وأخذ منه أنفاسا قليلة عميقة ، وأطلق حوله سحابة من الدخان ، وفجأة شملت عضلات وجهه مسحة من الجمود ، وقد تدرج السيجار من فمه ، وانتهت رأسه إلى الخلف ، وحدقت عيناه تحديقا خفيفا فى سقف حجرة المطعم . ولما كان فاروق - غفر الله له - صاحب مزاج خاص فى المزاج الثقيل ، فإن صاحبه تلك الليلة ، كانت واثقة من أنه يمزح . وعلفت على هذه الحركة تعليقا قصدت به المداعبة .

ولما لم تسمع على تعليقها رداً مجلجلاً كالعادة من صديقها النائم أو المتناوم . فقد كررت المداعبة ، وكانت مداعبة خفيفة هذه المرة ، ولكنها لم تسمع رداً أيضاً ، ولما كانت رأس الملك قد اتجهت بعيداً إلى الخلف ، فإن الفتاة لم تستطع أن ترى وجهه في هذه اللحظة ، لذلك تركت مكانها وذهبت إلى جواره ، وبظرة واحدة ، أدركت الحقيقة . فصدرت عنها صرخة جاء على أثرها خادماً المطعم (البويرماني) ومديره (ألبرتو ساردى) . كان الملك غائبا عن صوابه . يتنفس بصعوبة ، وقد تعاون الثلاثة في رفعه عن مقعده وإنامته على منضدتين من مناضد المطعم مستلقيا على ظهره ، ثم فتح عامل المطعم سترة الملك وراح يدلك صدره عند موضع قلبه ، أما مدير المطعم فقد ذهب ليتصل بالإسعاف تليفونيا . وفي دقائق وصلت سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر . كما أقبل الدكتور (نيقولا ماسا) إلى الملك الغائب عن صوابه ، فتبين أن النبض ضعيف ، وأن تنفسه يجري بصعوبة . وفي الحال ، ملأ الطبيب حقنة بوسائل الكافور ، ثم طلب حملة النقالة ، ونقل « فاروق » إلى مستشفى (سان كاميليو) حيث وضع ، في الحال ، في خيمة أوكسجين لإنعاشه . ثم تقاطر غدد من الأطباء وأحاطوا به في حين كان نبضه يزداد ضعفاً .

وبعد عشرة دقائق .. وبالضبط في الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة من مساء ١٨ مارس ١٩٦٥ ، وفي تمام اليوم الخامس والثلاثين التالي لعيد ميلاده الخامس والأربعين ، لفظ فاروق أنفاسه .

★ ★ ★

بقى بعد ذلك ، أن نعرف أن هذا المطعم الذى شهد آخر لحظات الملك فاروق ، كان اسمه (إيزل فرانس) .. وهو مطعم متواضع في طريق باريس - أورليان ، وقد استقبله المشرف على المطعم في ترحيب حار ، وسأله عن صحته ، فقال : « ليست جيدة تماماً » . أما صاحبه في تلك الليلة ، (أنا ماريا جاتي) - فهى سيدة منفصلة عن زوجها ، وأم لطفل في الخامسة من عمره .

وقد مضت وفاة الملك فاروق في ذلك اليوم بلا تعليق خاص عليها . فقد كان الملك يشكو من ضغط دم ، ومن اضطراب في الكبد . ولكن - حينما ثار الحديث حول السموم في مصر ، وتعاطيها ، وقتل الناس بها ، وحينما كثرت الأقاويل ، والانهامات ،

والاختلافات ، والمبالغات ، والأكاذيب .. وأصبح جائزا أن يعتبر كل من مات في السنين الأخيرة ، إنما مات مقتولا بالسم .. انتحارا .. أو غدرا ، فقد نسب إلى كبير في المخبرات المصرية قوله : « إن السم الذي ورد ذكره في تحقیقات وفاة المشير عبد الحكيم عامر ، استعملته المخبرات في أحوال ثلاثة معروفة ، منها قتل الملك-فاروق » !! .

ماذا يساوى هذا الكلام ؟.. وماذا كان دور (أنا ماريا جاتى) إذا كان لهذا الكلام نصيب من الصحة ؟

أهو قول مفترى ؟ .. أو هو حقيقة ؟

التاريخ - إلى الآن - لا يعلم .. ولكن متى يعلم .. ؟

الله وحده هو العليم الخبير ..

الفصل الثاني عشر

أزمات صغيرة
ودسائس أصغر

سلمنى سكرتير مكتبى ، بوصفى وزيراً للثقافة والأرشاد القومى ، مظهرًا ضخمًا .. يحمل عنوانًا كتب بخط أخضر عريض (رئاسة الجمهورية) . ففضضته ، وأنا لا أتوقع أن اجد بداخله شيئًا مثيرًا ، أو خطيرًا . فما أكثر المظاريف التى يتلقاها الوزراء من (رئاسة الجمهورية) دون أن تتضمن سوى ما يقتضيه تصريف شؤون الدولة من قرارات ، أو خطابات ، أو اخطارات ، أو تحويل شكاوى للوزير ، أو شكاوى ضد الوزير !! ولكن هذا المظروف كان يحمل (قرارًا جمهوريًا) باحالة الأستاذ صالح الشيتى وكيل دار الأوبرا إلى المعاش . وكان القرار ، بطبيعة الحال ، مهورًا بالامضاء الشهير « جمال عبد الناصر » ، وما كدت افرغ من تلاوته ، والوقوف على فحواه ، حتى مدت يدي إلى القلم الأحمر ، وكتبت عليه بخطى الردىء : (نظر .. ويحفظ) .

ولما كان سكرتيرى « محمد عفيفى » قد لازمى سنوات قبل الوزارة ، فقد كان منى بمثابة الابن ، ومن هنا ، لم اسمعه يعترض على شيء يصدر منى ، وكان خجولا .. وعصيبا .. تبدو عصييته فى وجهه ، وفى اهتزاز رأسه فى بعض الأحوال . ولكنى أحسست ، فى تلك اللحظة ، أن (عفيفى) يود أن يمسك بيدي ، ويعننى من كتابة ما كتبت . ولكنه منع نفسه . فنظرت اليه متسائلا : « ماذا يا عفيفى ؟ » . فقال الشاب ، وهو لا يكاد يجد العبارة التى يمكن أن يستعملها فى هذا الموقف ، دون أن تجرحنى أو تضايقنى . ثم تعبر عما يجول بخاطره .. فتمتم : « سيادتكم » !.

فقلت : « نعم » .

فعاد يتمتم : « قرار من رئيس الجمهورية » ! فقلت بصوت عال ، وكأنى أود أن يسمع الناس كلهم ماذا أقول : « أنا أعرف أنه قرار من رئيس الجمهورية ، ولأنه قرار من رئيس الجمهورية ، فأنى أعلق عليه هذا التعليق » ..

وقال سكرتيرى كلاما معناه : « أن هذه التأشيرة ليس لها إلا معنى واحد ، هو أنك تتحدى رئيس الجمهورية » .

فقلت له ، وكأنى أخطب نفسى : « وما فائدة الناس من دخولى الوزارة ، اذا لم أستطيع أن اوقف قرارا جمهوريا ظالما .. كهذا القرار !! » .

وبعد قليل جدا من هذا الكلام .. دق جرس تليفون مكنتي ، فرفعته لاسمع صوت « على صبرى » - مدير مكتب رئيس الجمهورية ، فى ذلك الوقت - يقول بطريقته الهادئة : « لقد جاءك قرار من (الرئيس) ، فهل أطلعت عليه ؟ » .

فهمت أن اقول له : « قرأته وعلقت عليه بالنظر والحفظ » .. ولكننى رددت نفسى عن هذا القول ، وقلت : « لقد قرأته ، ولكننى لم أفهمه ، وقد كنت على وشك الاتصال بالرئيس لاسأله عن سبب هذا القرار » فقال ، على صبرى : « لقد اقحم هذا الموظف نفسه فى شئون الرئيس الخاصة ، وفى أمر يتعلق بحرم الرئيس ، وهو خطأ لا يجوز أن يصدر من موظف فى هذا المكان » .

وقد يحسن أن ندع جانبا - ولو مؤقتا - هذا الحوار ، لنروى الحكاية من بدايتها .

كان منصب مدير الأوبرا قد خلا بوفاة المرحوم « سليمان نجيب » ، وقد تنافس على هذا المنصب المغرى عدد غير قليل من أهل الفن : موسيقيون ، ورسامون ، واداريون .

ولقد واطب الكاتب توفيق الحكيم ، ومعه صديقه القديم حسين فوزى الذى كان يشغل - آنذاك - منصب وكيل وزارة الثقافة والأرشاد القومى ، على ترشيح وتزكية احد موظفى وزارة التربية والتعليم لهذا المنصب . وكان هذا الأخير تواقا إلى أن يشغله ، فقد كان محبا لجو الأوبرا .. بل كان مستهماً بهذه الدار ، وبالحركة فيها ، وبيريقها الخاطف للابصار ، والمسيل للعباب . وانتهى الأمر بتعيين هذا الموظف فى الأوبرا . وكان فيها عدد من كبار وصغار الموظفين ، استمروا يشغلون وظائفهم فى هذه الدار . ويعرفون مداخل العمل فيها ومخارجه ، حتى أصبحوا لا يطيقون أن يقتحم عليهم « حرهم المقدس » دخیل أو غريب !! ، ولهذا ، انقسم الموظفون فى الدار - بالنسبة لقدم المدير الجديد - إلى معسكرين . واستطاع هذا المدير أن يعقد صلات جيدة بالعسكريين فى مكتب الرئيس جمال ، فقد واطبوا على الاتصال فى من أجله ، والتوصية عليه . فكنْتُ أظهر لهم نفورا شديدا عند سماع هذه التوصيات ، كراهية منى لهذا الأسلوب الذى يفسد الموظفين ، ويفسد العمل الذى يباشرونه .

وذات يوم -أبدت السيدة حرم الرئيس « عبد الناصر » ، رحمه الله ، رغبة فى أن تشهد شيئا ما فى احدى السهرات بالأوبرا . فاتصل اصدقاء المدير الجديد من العسكريين

في مكتب الرئيس به ، واطلعه على هذه الرغبة ، فأخفاها عن جميع الموظفين ليستأثر بهذا الشرف ، ولينمى منافسة وكيل دار الأوبرا (الأستاذ صالح الشيتي) من المشاركة فيه ، والمثول بين يدي السيدة حرم رئيس الجمهورية عند تشريفها بالدار .

وكان نظام العمل في دار الأوبرا يقضى بأن يكون وكيل الأوبرا هو المسئول عن الأمن فيها - وهو ، بهذه المناسبة ، يحمل مفاتيح مقصورتي رئيس الجمهورية وحرم رئيس الجمهورية ، (وهما المقصورتان اللتان كان يتغلغلهما قبل الثورة الملك والمملكة) ولكن « الأخبار الخطيرة » لا يمكن كتمها ، إذ أن هناك « مسالك » تتسرب منها تلك « الأخبار » ، للمنافسات والخصومات ، وحرص الموظفين على المباهاة بما يصل إلى علمهم من الأسرار مما يرفع قدرهم ، ويظهر للناس خطرهم !! ومن هنا ، فقد عرف وكيل الأوبرا بخبر تشريف حرم الرئيس الأوبرا قبل مجيئها بوقت قليل ، فتحدث بهذا إلى صحفي في « الأهرام » مشغول بالفنون ونقدها ، هو (المرحوم عثمان العنتيلي) شاكيا من محاولة تخطيه في مناسبة هامة تلقى عليه فيها أنظمة العمل مهام محددة . إذ عليه أن يتأكد من صلاحية المقصورة الخاصة بحرم الرئيس لاستقبالها ، بحيث إذا أصابها مكروه ، أو كانت المقصورة غير لائقة ، حوسب على ذلك ، بل وعوقب أيضا .

والظاهر أن الرجل كان يتكلم من تليفون متصل بخطوط تليفونات الأوبرا . فأمكن التسمع عليه . ونقلت هذه المكالمات إلى المدير الذي نقلها ، بدوره إلى اصدقائه العسكريين في مكتب الرئيس ، الذين نقلوها إلى الرئيس ذاته ، وحوروها له في أقبح صورة ، فغلي الدم في رأسه ، واعتبر أن كرامة السيدة حرمه قد مسّت ، إذ أقحم اسمها في مكالمات تليفونية بين موظف وصحفي ، مقرونا بنقد اساليب الرئاسة في الاتصال بالموظفين المختصين . فكان أن أمر الرئيس بأعداد « قرار جمهوري » بأحوال وكيل الأوبرا إلى المعاش ، وتسلمت القرار ، وعرفت المقدمات التي أدت إليه .. وعرفت أيضا « الدسيصة الصغيرة » التي أقررت به ، فكان لي رأي مخالف تماما .

ثم ..

نعود إلى الحوار الذي دار بيني وبين « على صبرى » .

قال : « إن الرئيس حر في شئون زوجته . تتصل في تنقلاتها بمن تشاء ، وتحاشي

الاتصال بمن لا توجد الاتصال به » .

فقلت له على الفور : « ليس هذا صحيحا . فحرم الرئيس « عبد الناصر » حينما تنتقل من مكان إلى مكان ، تنتقل بوصفها « حرم رئيس الجمهورية » . فإذا كان انتقالها إلى دار رسمية كدار الأوبرا ، لتشغل مكانا رسميا ، كمقصورة رئيس الجمهورية ، وكان لهذه المقصورة أمين يسأل عنها ، ويحمل مفتاحا خاصا بها ، فالواجب الاتصال بهذا الموظف ، لا برئيسه ، أو بهما معا على الأقل . فإذا كنا لا نثق به : أو لا نطمئن إليه ، ننقله من مكانه ، أو نعزله تماما إذا كان المنسوب إليه يلقي ظللا على أمانته . والمدير الذى أخفى على وكيله نبأ زيارة حرم رئيس الجمهورية لم يفعل ذلك حرصا على راحتها ، بل مكيدة لوكيله ، ومثل هذه الروح لا يجب أن تجد منا تشجيعا » .

فقال على صبرى : « وهل يليق أن يتحدث هذا الوكيل فى التليفون مع صحفى فى شأن زيارة حرم رئيس الجمهورية . وكأنها ارتكبت خطأ ، وأنت تعرف ما يضيفه خيال الناس إلى مثل هذا التصرف اذا ذكروا أن الزيارة ستتم سرا » .

فقلت له : « ومن قال لنا أن هذه المكالمة قد جرت أولا .. ومع هذا الصحفى ثانيا .. وبهذه العبارات ثالثا ؟ » .

فقال على صبرى : « مدير الأوبرا سمعها بأذنه » .

فصحت : « أه .. كيف عرف أنها جرت ، حتى استطاع أن يسمعها » .

فقال : هل نحن سنحقق .. هو قال أنه سمعها .. وهذا يكفى .

فقلت : « انه يكفى تماما .. ولكن ، لطرد هذا المدير ، على الأقل ، من مكانه » .

فقال على صبرى : « هل سنقلب الوضع ؟ » .

فقلت له : « بل أنى ساصححه .. هذا الموظف الذى يجترىء على القول بأنه تسمع مكالمات مرعوسيه ، وبدون جريمة ترتكب ، يسجل على نفسه خطأ صريحا لا يجوز أن نغمض العين عنه » . وإلى هنا .. وكان صبر ، على صبرى قد نفذ . فقال : « والخلاصة .. ماذا أقول للرئيس ؟ » . فأجبت : « لا تقل له شيئا » .

فصرخ : « كيف لا أقول له شيئا . وقد اصدر قرارا جمهوريا ؟ » .

فقلت له بهدوء : « قل له أن هذه المسألة أصلا من اختصاصى أنا ، وكان يجب أن يترك لي أمر التصرف فيها كيفما اشاء ، ومراعى كل الاعتبارات ، بما فيها رغبة السيدة حرم الرئيس . ثانيا ، اؤكد لك أن كل ما نقل إلى الرئيس لم يكن على الأقل دقيقا . وثالثا ، فليعلم الرئيس أن حرص وكيل الأوبرا على أن يكون في شرف استقبال حرمه مصدره حبه للرئيس نفسه ، وهو شعور لا يجوز أن يقابل بطرد صاحبه من وظيفته » .

فقال على صبرى متسائلا : « والنتيجة ؟ » .

فقلت : « والنتيجة أنني لن انفذ قرار رئيس الجمهورية ، وأنا مستعد أن اردّه اليكم ، وكأنه لم يصدر » .

فقال : « وهل ابلغ ذلك للرئيس ؟ » .

فقلت : « افعل ما تشاء » .. وبعد قليل ، قلت له : « ولم لا ؟ .. قل له ذلك » .

أذكر أن ذلك كله كان قد جرى في يوم من أيام شهر رمضان ، وكنت مدعوا إلى تناول الإفطار ، في نادى بنك مصر تكريما لرئيس محكمة استئناف القاهرة بمناسبة بلوغه سنّ المعاش ، أى انتهاء خدمته .

وفيما أنا اتناول طعام الإفطار . جاء من اخبرنى أن السيد زكريا محيى الدين على التليفون . فذهبت وأنا مطمئن إلى أن هذه المكالمة بشأن « حادث الأوبرا » . وصدق حدسى . فقد قال لى (زكريا) : « ما الذى فعلته .. هل صحيح أنك قلت (لعل صبرى) أنك لن تنفذ قرار الرئيس ؟ » .

فقلت له : « لقد قلت ذلك بعد مقدمة طويلة ، كان لا بد أن يسمعها الرئيس لكيلا يقوم في اعتقاده أنها مسألة رفض لقراره .. لمجرد الرفض » .

فقال : « انه عرف بعضها منها . فما هى المقدمة ؟ » فأعديتها عليه . فقال : « وما المخرج من هذا المأزق ؟ » . قلت : « سأنتدب وكيل الأوبرا لمكان آخر ، وسأنتدب فى نفس الوقت مدير الأوبرا خارج الأوبرا » . فأبدى (زكريا) رغبته فى أن ادع المدير فى مكانه .

فقلت له : « لا .. لا يمكن .. » . فقال (زكريا) وهو يضحك : « طيب .. ربنا يسهل » .

وتم ذلك .. ولم ينفذ قرار احالة وكيل الأوبرا إلى المعاش . وبقي في عمله .
.. ولكن هذه الأزمة - أو « الدسيصة الصغيرة » - لم تكد تنتهى حتى بدأنا فى أزمة أخرى أو « دسيصة » أصغر منها .

فقد اتصل بى يوما مدير الأذاعة ، واخبرنى بأن فى مكتبه ضابطا كبيرا من ضباط الطيران ، جاء موفدا من مكتب السيد الرئيس ليتسلم الإدارة الهندسية بالأذاعة . والأدارة الهندسية بالأذاعة ، هى عصب العمل الأذاعى ، وبقدر كفاية العاملين فيها ، وحسن ادراكهم لواجباتهم ، ومتابعتهم للجديد فى حقل عملهم ، تكون الأذاعة مؤثرة وناجحة . اذ ما النفع من خطاب سياسى جيد ، لا يسمع إلا فى نطاق ضيق ، أو لا يسمع إلا مخلوطاً ومزجاً بالطبقيات الصوتية . ولم تكن العلاقة بين مدير الأذاعة ، وبين كبير مهندسها حسنة دائما ، لذلك ما كدت اسمع الخبر ، حتى شمت - كما يقول الأنجليز - (رائحة فأر ميت) ، فقلت للمدير : « عجباً ، كيف يتولى ضابط طيار ، أو أى انسان آخر ، هندسة الأذاعة ، ومدير هذا القسم لم يعزل بعد ، وهو بحمد الله حى يرزق ؟! » . فقال : « والله ما على الرسول إلا البلاغ .. » . فقلت : « ارسله الى فورا » . فقال : « يعنى لا اسلمه المكتب » . فقلت بشئ من العصبية : « أى مكتب الذى تسأل عنه .. أنت رجل قانون ، فكيف يتولى شخصان ادارة عمل واحد ؟! ارسله الى ولا تشغل بالك » . وبعد قليل كان فى مكتبى ضابط فى سلاح الطيران برتبة لواء أو عميد ، تبينت من الحديث أنه حسن الاطلاع على اللغة الأنجليزية ، بل انه يتقنها . وقد دس فى حديثه معى اسماء من كبار الشخصيات البريطانية السياسية منها « مستر ايدن » وزير الخارجية ، باعتبارهم من معارفة أو اصدقائه . ولم أفهم ، أول الأمر ، ما الحكاية ؟!

وقد ظننت ، بادىء ذى بدء ، أن هذا الحديث « المتوكل » بالانجليزية حيناً ، وبالاشارات الكثيرة إلى شخصيات ذات شأن على المسرح الدولى ، انما يراد به التأثير على معنويتى . ولكنى عرفت ، فيما بعد ، إن هذا هو أسلوب هذا الضابط الزائر ، ولا شأن له بالمناسبة التى جاء من أجلها .

ثم سألته : « ما الموضوع بالضبط ؟ » .. فقال انه تلقى امرا مباشرا من السيد « على صبرى » .. مؤداه ان اذهب إلى الأذاعة ، واتولى الشؤون الهندسية فيها ، بناء على رغبة السيد رئيس الجمهورية . فقد كان فى استراحة برج العرب الواقعة فى غرب الأسكندرية ، فلاحظ أن بعض الأذاعات المصرية الموجهة إلى الخارج ، والمذاعة على الموجات القصيرة ، يصيبها ما يسمى بالانجليزية (Fading) ، أى (تضائل) .. أو (تناقص) ، بحيث يأتى وقت ، لا تسمع فيه مطلقا . فضايقة ذلك ، اذ أن مصر تعلق أهمية كبيرة على هذه الأذاعات ، فاذا كانت لا تسمع جيدا داخل مصر ، كان معنى ذلك أن ما ينفق على هذه الأذاعات من الجهد والمال ضائع تماما . وقد روى أن يعهد إلى المختصين فى اللاسلكى بسلاح الطيران لمعالجة ذلك .

فقلت له : « ولكن .. هل معنى ذلك أن تتولى ادارة الهندسة الأذاعية ؟ » . فقال مبديا بعض الدهشة : « اذن ماذا يكون معناه ؟ » . قلت : « معناه ، أن سيادتكم فى مكتبك بسلاح الطيران ، تطلب من تشاء من الفنانين بالأذاعة ، وما تشاء من المعلومات ، فاذا تبينت أن هناك تقصيرا من الأشخاص اطلعتنا عليه لمعالجته . وإن كان ثمة عيب فى الأجهزة اصلحنائه ، واذا كان الأمر مردده ظاهرة طبيعية لا علاج لها ، قررت ذلك » .

فقال : « ولكن أنا لم اذهب إلى الأذاعة من تلقاء نفسى ، ولم اطلب تولى ادارتها الهندسية وانما أنا أمرت بذلك » .

فقلت له : « دع سيادتكم ما طلب منك ، فقد كان ما طلب منك خطأ صريح . ونحن الان فى أشد الحاجة إلى معونتك ، ونشكرك عليها مقدما » .

فعاد يقول : « ولكن هل هؤلاء الذين ارسلونى إلى الأذاعة ، لم يكونوا يعرفون ما هو الصحيح وما هو الخطأ . لماذا يضعوننى فى هذا الموضع الحرج ؟ » .

قلت : « انهم لم يضعوك فى أى موضع حرج ، فقد احسنوا الظن بكفايتك الفنية ، وأرادوا أن ينفعوا الأذاعة بها ، ونحن مثلهم نرحب بهذه الكفاية . فأنت قد وضعت فى أحسن وضع . خبير من طراز ممتاز ، رشحك مدير مكتب الرئيس للوزير المختص الذى يرحب بك . فما هو الحرج ؟ » .

فقال الضابط الطيار : « اذن اعود ادراجى من حيث جئت » .

فقلت مسرعا : « بل بالعكس تبقى معنا ، وأنا مستعد أن اهيبء لك مكتبا بجوارى تباشر فيه دراستك ، وتأتى اليك فيه المعلومات والخرائط ، والتقارير وكل ما تطلبه » .

فعاد يسأل : « هنا .. فى الوزارة ؟ » .. فقلت بحسم : « نعم هنا ، وبعيدا عن الأذاعة ، ولكننا سنضع تحت أمرك كل ما يلزم لاداء مهمتك . وسنحتاج بطبيعة الحال إلى خطاب من مكتب رئيس الجمهورية ليحدد لنا المطلوب ، مذكورا فيه اسم سيادتك صراحة » .

وهنا .. بدا على « الضيف » فتور شديد . وقال : « لا .. لا .. لا خطاب ولا حاجة .. أنا سأعود إلى مكائى .. وليبعثوا اليكم بغيرى ان شاءوا » .

فقلت : « لا .. لا .. نحن مصممون على الانتفاع بعلمك وخبرتك . وحينما يصلنى خطاب الرئاسة سأكون سعيدا باستقبالك فى مكتبى ثانية .. » .

وانصرف الرجل ، وبعد نصف ساعة سألنى مدير الأذاعة : « ما الذى انتهى اليه امر القائد الطيار ؟ » فقلت له : « انصرف فى انتظار خطاب يأتينا من الرئاسة .. ولا أظن اننا سنلقى خطابا من هذا القبيل » .

وتحقق ما ظننت .. وانتهت هذه الحكاية تماما .

أما « الدسيصة الثالثة » .. فقد كانت ، فى حقيقتها ، (فقاعة) - ولكنها ما لبثت أن كبرت ، وتضخمت ، حتى بدت « أزمة دستورية » ، شغلت الصحف ، والمهت الأقالام ، أو المهتبا ، وكانت حديث الناس زمنا ، فى وقت افتقد فيه قراء الصحف الحملات الصحفية الحادة ، التى كانت تمجد حياتهم ، وتبعث الدم حارا فى عروقهم .. وجملة القول فى هذه (الفقاعة) ونشأتها ، أن اثنين من المشتغلين بالصحافة والنشر والأذاعة ، كانت تربطنى بهما علاقة قديمة ، بدا لهما أن يخرججا لهما مجلة ، وأن ينشرا فيها برامج الأذاعة كاملة نقلا عن هيئة الأذاعة ، وسبقا لمجلتها ، وليقضيا على هذه المجلة ، التى كانت البرامج الأذاعية أهم عناصر ما تكتبه وتنشره على الناس . ولم يكن فى هذه المحاولة من بأس لولا أنه كان للدولة - لا فى مصر وحدها ، بل فى مصر وبريطانيا - رأى مستقر يجعل من برامج الأذاعة الكاملة التفصيلية وقفا ، أو حكرا ، « لمجلة الأذاعة » التى تنشرها عن هيئة الأذاعة انتفاعا بدخل

المجلة في تحسين موضوعاتها ، ومادتها في اذاعة الثقافة .

وقد قضت الصدفة ، أن يكون لي قبل ذلك دور في هذا الموضوع ، قبل أن اتولى أمر الأذاعة بتولى وزارة الثقافة والأشاد القومي . فقد لجأ الى احد العاملين في حقل الصحافة لاعينه على الحصول على برامج اذاعة مصر لانه بسبيل اصدار مجلة تنشر جميع برامج الأذاعة التي توجه اذاعاتها إلى الشرق العربي . وقد تيسر له ، بدون عناء ، الحصول على جميع هذه البرامج . فلما جاء دور الأذاعة المصرية وبرامجها ، اصطدم بأن هناك أمرا صادرا من « الحاكم العسكري » يمنع نشر برامج اذاعة مصر الا في مجلتها . فقال لي : « هل يعقل أن أصدر مجلة تنشر جميع برامج الأذاعات العربية والأجنبية التي تعمل في الشرق العربي ، ولا أنشر برنامج الأذاعة الأولى في المنطقة ، وهي اذاعة بلدى التي انتمى اليها واعمل لها ؟ » .

فكلمت في هذا الشأن الرئيس « عبد الناصر » . فقال أن هذا « الأمر العسكري » صدر بناء على طلب وزير الأرشاد القومي « صلاح سالم » الذى قال أن المجلة في حاجة إلى دعم لتحسن مستواها بما تحصل عليه من ايراد التوزيع . ثم كلمت المرحوم « صلاح سالم » واقترحت عليه أن يعدل « الأمر العسكري » بحيث يكون نشر برامج الإذاعة المصرية ممكنا بعد نشرها في مجلة هيئة الإذاعة المصرية يومين مثلا ، ولكن صلاح سالم رفض هذا الاقتراح . وقال أن مراقبة تنفيذ الأمر على هذا الوجه ، لن تكون بالأمر الهين . في حين أن المنع البات يحسم الأمور . وانتهت المسألة عند هذا الحد .

فلما تجددت المحاولة . لم تكن مجرد رغبة في نشر برامج الأذاعة المصرية كما كان القصد في المحاولة السابقة ، بل كانت مكيدة صريحة « لمجلة الأذاعة » التي أشرف عليها . وكانت ادارة هذه « المجلة » قد احقت باختصاص الوزير في عهد المرحوم « صلاح سالم » . وكانت دوائر الأذاعة غاضبة لسلخ المجلة من سلطتها .. ومن هنا وجدت هذه المحاولة الجديدة كل تشجيع من موظفى الأذاعة . وفي هذه الفترة ، أو بعدها بقليل ، قدم لي « الأستاذ فؤاد دواره » كتابا يتناول بالدراسة الفنية والتحليلية الأذاعة البريطانية وتاريخها ، وتأثيرها ، إلى آخر ما يتصل بها . واطلعنى على فصل طريف ، يروى كيف أن الحكومة البريطانية اتفقت مع رؤساء تحرير الصحف في بريطانيا على أن يتركوا لمجلة « المستمع - لسنر » التي تصدرها هيئة الأذاعة البريطانية ما تذيبه هذه الهيئة من دراسات ادبية وتاريخية . وقد قبلوا ذلك

متصورين أن هذه المجلة لن تروج ، وأن الأقبال على مطالعة البرامج الثقافية لن يكون عظيما . لكنهم فوجئوا بنجاح المجلة ، وبتزايد المبيع منها شهرا بعد شهر . فأسفوا على هذه الموافقة التي صدرت منهم على عجل . فلما دعاهم « مستر تشرشل » - وهو على رأس الوزارة البريطانية - وعرض عليهم أن يتركوا مجلة الأذاعة البريطانية لنشر برامجها التفصيلية وأن يكتفوا بنشر رؤوس الموضوعات في الصحف اليومية ، رفضوا هذا الطلب ، ولكنه صمم عليه ، واستطاع بقوة شخصيته أن يقنعهم بقبوله . وعندها زال كل تردد من جانبي في أن اصدر تشريعا يحدد علاقة الأذاعة بالمثقفين والمحاضرين والفنانين . وينظم ، بالتالي ، حق نشر هذه البرامج مع مجلة الأذاعة بحيث يضمن لها السبق ، ويبقى على احتكارها لنشر البرامج المفضلة .

وتلقف خصومي هذا المشروع بفرحة شديدة ، فقد اعتبروه خروجاً على الدستور ، ومساساً بحقوق الصحفيين ، وتحدياً لحرية الرأي . وافردت لهذا الموضوع المقالات الطويلة والعريضة ، ولا أنسى أن واحداً منها كان بقلم المرحوم « سامي داوود » الذي اختار لمقاله عنواناً طريفاً هو « دستورك ياوزير الأرشاد » .

واتصل بي عدد من الصحفيين الذين كانوا يريدون أن يفهموا الموضوع ، فاستولت عليهم الدهشة حيناً علموا أن التشريع الذي اقترحته ، ليس تشريعاً جديداً ، بل أنه تشريع قائم فعلاً ، ولكن بدلاً من أن يستعان ، في هذا التشريع ، بالأداة الطبيعية - وهي القانون - استعين بالإدارة الاستثنائية وهي « الأمر العسكري » الذي يستند إلى الحكم العرفي ، وأن هذا الأمر العسكري صادر من الرئيس « عبد الناصر » من سنين ، وكان قائماً إلى أيام مضت . ولم يجرؤ احد من الصحفيين الذين يصرخون الآن أن يشير إليه بحرف حتى بعد إلغاء الأحكام العرفية .

ثم رويت لهم ما حدث في بريطانيا ، الموصوفة عندهم بأنها أعرق الدول الدستورية ، فعقب احدهم على كل هذا : « نقبل أن تكون الأذاعة كلها حكراً للدولة ، ونغضب من احتكار الدولة لنشر برامج هذه الأذاعة نفسها .. هذا عبث !! » .

ولكن الحملة الصحفية استمرت .. فلما عرض القانون ، أو مشروع القانون على مجلس الوزراء . قال لي « عبد الناصر » : « ان سحب هذا المشروع ؟ » . فقلت : « لا » . فقال : « وما ضرورته ؟ » . فأجبت : « ضرورته سيادتك اقتنعت بها ، حين اصدرت بها

امرا عسكريا . فقال : « ولكن الأحكام العرفية الغيت » - وكانت قد انقضى لفترة قصيرة - فقلت له : « الذى تغير هو اداة التشريع ، انما بعض التشريعات العسكرية تحقق للدولة مصالح مدنية ، فلا تلغى بالأحكام العرفية » . قال : « ولكن من مصلحتنا أن تنشر برامج الإذاعة المصرية » .. قلت له : « ولكن سيادتك رفضت هذه الحجة من شهرين فقط . وقد كنت تدافع عن المبدأ من حيث هو » . فقال : « وما الحاجة إلى تشريع والبرامج ملك الإذاعة ، وموظفو الإذاعة يتبعونك ، ولك أن تأمرهم بعدم إعطاء البرامج لغير المجلة » . فأجبت : « أن قانون الموظفين ملئ بالتعليمات . والقيود والتوجيهات التى كان يمكن أن يكتفى فيها بالأوامر الإدارية ، ولكن اضعاء (صفة القانون) على بعض الأوامر الإدارية ، تقتضيه المصلحة العامة ، احيانا ، حتى لا تخضع هذه التوجيهات الإدارية للتقلبات بتقلب الوزراء . وقد تنسرب البرامج ، وتضيع المسئولية بين عشرات الموظفين » .

أجل البحث فى هذا المشروع من جلسة إلى جلسة ، حتى سحبت الإذاعة نفسها منى . والطريف أن « المجلة » التى كانت تنوى نشر هذه البرامج ، لم تصدر .. ولم تر النور قط . وعادت الأحكام العرفية ، واستمر « قرار الحاكم العسكرى » الخاص بمنع نشر برامج الإذاعة فى غير مجلة الإذاعة قائما ..

والطريف كذلك أن احد الوزراء قال فى جلسة من الجلسات أن هذا القانون ينطوى على مساس بحرية النشر ، فقلت له : « وهل حرية النشر قائمة فى كل جانب من جوانب حياتنا ما عدا نشر البرامج الإذاعية ؟ » . فضج الوزراء بالضحك ، وخجل الوزير ، وانتقلنا إلى شيء آخر !

★ ★ ★

وحينما انتهت الحملة الصحفية ، وانتقلت هيئة الإذاعة إلى رئاسة الجمهورية ، قابلت بعض الصحفيين الذين اشتركوا فى الهجوم على مشروع ذلك القانون الذى كنت قد تقدمت به ، فسألتهم : « لماذا لا تطالبون ، الان ، بأباحة نشر برامج الإذاعة ؟ » .. فقالوا ضاحكين : « وهل نجرو . لقد طلب منا أن نهاجم .. وطلب منا أن نكف عن الهجوم .. فأطعنا فى الأولى ، كما أطعنا فى الثانية » .

الفصل الثالث عشر

من يحاكم الوزراء
أيام عبد الناصر؟

عندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ ، كنت معتقلا في معتقل « الهاكستب » ، الذى كسب شهرة واسعة قبل ذلك التاريخ .. لأنه ضم الأخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والوطنيين ، وقد كان هذا « المعتقل » ، أصلا ، مخازن للجيش الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية . فلما انتهت الحرب ، مضى الجنود الأمريكيون إلى بلادهم ، وسلمت هذه المخازن بما فيها للحكومة المصرية ، وبدأ النشاط السياسى يستعيد وجوده بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وخفضت القيود العسكرية ، ثم رفعت لفترة ، فاحتاجت الحكومات المتعاقبة - سواء كان حكومة أغلبية يؤيدها الشعب ، أو حكومة أقلية يؤيدها الملك - احتاجت إلى معسكرات اعتقال ، تترف إليها الخصوم والمخالفون زمرا .

وقد كان زملائى فى المعتقل ، ممن نسب اليهم شيء يتصل بحريق القاهرة إلا أنا . وقد احتاج زملائى فى خارج المعتقل ، إلى رفع دعاوى متكررة امام مجلس الدولة .. طعنا فى امر اعتقالى الباطل ، والذى كانت تعوده مبررات الواقع ، ومبررات القانون . والاجراءات القانونية فى مصر تقتضى أن من يطعن فى قرار ادارى ، ويلتمس من المحكمة الحكم بالغاءه ، ان يرافقه دعوى الالغاء ، دعوى تعويض . ومن هنا كان الزملاء المحامون مضطرين أن يطلبوا الحكم لى بتعويض رمزى ، ولكن الدعوة كانت من اصلها إلى فرعها .. تستهدف فك قيودى ، واطلاق سراحى .

ولم يكن يرد على الخاطر ان نتخذ من هذه الدعوى سبيلا إلى كسب قرش واحد من مال الحكومة . ولما اخترت للوزارة - بعد قيام الثورة - بقاء القضية مرفوعة ، ومتداولة فى الجلسات . وكانت لى قضية اخرى امام محكمة الجنايات .. اذ اتهمت - قبيل الثورة - بالغيب فى الملك . وساقونى إلى محكمة الجنايات . وقد قلت فى التحقيق الذى أجرى معى . اننى لم اقصد الغيب فى الملك ، وانما قصدت نقد ما يجرى عليه الحكم من فساد ، وهذا مطلق حقى وحق كل مواطن اخر .

وجاء موعد نظر هذه القضية ، وأنا فى دست الوزارة ، وتلقيت اعلانا بتاريخ الجلسة ، فلم اخبر احدا من موظفى مكتبى بذلك . واخذت سيارتى الخاصة ، وذهبت بها إلى المحكمة وليس معى احد - حتى ولا محام - ولما انعقدت المحكمة ، جلست فى اخر صفوف الجمهور .. حتى اذا ما نودى على ، وقفت وترافعت عن نفسى مكررا نفس الدفاع الذى

قلته في التحقيق ، قبيل الثورة ، والملك متربع على عرشه . وكان الأستاذ جمال العطيفي ، وزير الثقافة والأعلام الحالى ، ممثلا للنبياء ، فرأى التزم بالدفاع القديم ، ولا أريد عليه ، فنولته الدهشة ، كما بدا على المحكمة الاستغراب . فقد حسب الجميع أننى سأنتهز فرصة سقوط الملك وإنهال عليه طعنا ، وابرر قيام الثورة ، ولكنى رفضت ، وقلت للمحكمة : « ليس لنا دفاع في ظرف ، ودفاع يناقضه في ظرف اخر » .

وسمع الناس بما جرى في محكمة الجنايات . ولكن في بطن ، اذ لم أحرص ، من ناحيتي ، على اذاعته ، ولم الفت نظر الصحف لنشره . وفي هذه الفترة سلمنى « عبد الناصر » تقريرا من المخابرات ، كان أولى حلقات الدسائس الصغيرة التى سلطها ضدى عدد من الذين ضاقوا بمكانى من قائد الثورة . فقد ظن بعض قادة الأحزاب القديمة أنه لولاي لما انتهت الثورة إلى حل احزابهم ، باعتبار أن الثورة اعلنت في أول بيان لها انها تريد أن تقيم في البلاد حكما دستوريا نظيفا ، وانه لا دستور بغير احزاب ، وأن الأحزاب بعد أن ابدت استعدادها لتطرد من صفوفها الفاسدين والمفسدين ، انعدم مبرر حكم الموت عليها ، وقد انضم إلى هؤلاء عدد من العسكريين الذين نفسوا على أن اكون - دونهم - مستشار قائد الثورة في بعض شئون الحكم ، وهو مكان لا يجب أن يصل اليه ، في رأيهم ، إلا واحد منهم .. وآخرون لا أعلمهم .. الله يعلمهم .

وقد اتهمنى كاتب هذا التقرير أنى طامع في مال الدولة ، مع أنى أحد وزرائها ، « بدلالة نى ر فعت دعوى ضدها أمام مجلس الدولة طلبت فيه الحكم لى بتعويض » !! وانتظرت حتى انتهت جلسة مجلس الوزراء ، واقتربت من « عبد الناصر » ، - وقد درس القانون في كلية الحقوق سنة أو سنتين - فقلت له : « ماذا تريد منى أن افعل بهذه الورقة ؟ » . قال : « هل صحيح أن هناك دعوى من هذا القبيل ؟ » .. فقلت : « انها دعوى مرفوعة قبل الثورة ، وضد حكومة عزلتم اتم رئيسها ووزراءها ، واعتقلتم بعضهم .. وكان لابد لى - لكى ارفع دعوى الغاء قرار الاعتقال - ان يصحبها طلب التعويض » . فأجاب عبد الناصر : « ولكن كل شئ انتهى ، وأنت الان مطلق السراح ، فلماذا يستمر طلب التعويض ؟ » . فضقت ذرعا بهذا الذى بدا لى فقلت له : « وهل تعرف ما هو التعويض المطلوب ؟ » فقال : « تعويض على كل حال .. » فصرخت : « انه قرش صباغ واحد » ، وهنا ، بدا على « عبد الناصر » شئ من الارتباك ، وقال : « ولماذا تجعل لمثل هذا الأمر كل

هذه الأهمية ، مادام التعويض بهذه التفاهة ؟ » فقلت : « الأمر يهمنى من حيث المبدأ ، هل يحور أن تكتب ورقة كهذه ، يريد أن يظهر بها كاتبها انه ضبط لى سقطه ، وانه حريص على المال العام أكثر من حرصى أنا عليه ، وانه رقيب على يهدينى إلى الصواب .. مثل هذا لا يقبله إلا رجل احساسه بالشرف معدوم ، وأنا لن اتنازل عن الدعوى ، ولن التفت إلى هذا الأسلوب فى الدس الصغير ، وارجوك أن تضع له حدا من الآن ، وإلا فإنه سيستفحل وتهب من ورائه رياح خطرة » .

ولم يهتز « عبد الناصر » لهذه الخطبة الحارة ، وإنما هز كتفيه وقال : « لست معك ، إن الموضوع صغير جدا ، وأرى انه لا مبرر لتضخيمه » .

• ... وتحققت توقعاتى

وما توقعته ، تحقق تماما . فقد نقلت إلى وزارة المواصلات ، وكان يزعجنى ما كنت أقرأه فى الصحف جهارا نهارا ، وبلا احتشام ، من اعلانات عن تجارة فى التليفونات ، والنزول عنها ، وكأن البلد لا قانون فيه ولا نظام .

لم أر بدا من أن اضع قواعد جديدة لتركيب التليفونات ، وبدأت هذه القواعد باهدار جميع الطلبات المقدمة قبل تاريخ اسناد الوزارة الى ، على أن يقوم الراغبون فى تركيب تليفون أن يتقدموا بطلبات جديدة ، على إلا يسلموها إلى احد فى مصلحة التليفونات بل يرسلون - بها إلى المصلحة بخطابات مسجلة مصحوبة بايصال مرتجع ، وأمرت بإعداد دفاتر جديدة مختومة كل صفحة فيها بخاتم الدولة ، وموقع عليها من مدير المصلحة أو من ينيبه ، وقررت أن يلتزم الدور المطلق فى التركيب بلا أى استثناء ، وحرمت نفسى - بوصفى وزيرا للمواصلات - من الحق فى أى استثناء بالغة ما بلغت ظروف الاستثناء ، وجعلت تركيب التليفون ، بصفة استثنائية ، لا يكون إلا بناء على طلب الوزير المختص بالجمال الذى يشرف عليه ، مبينا به اعتبارات المصلحة العامة . وادركت أن الوزراء سيحجمون عن استعمال هذا الحق لأنه سيستحيل عليهم مجاملة الأصدقاء . اذ لن يكون فى وسع وزير الصحة أن يوصى إلا على طبيب ، اذ لا حق له فى التوصية على غير الأطباء ، ولن يقبل منه أن يبرر تخطى الأطباء الآخرين إلا بكلام مقنع ، ويدعو إلى الاحترام .

ولم أكن أدري اننى وضعت يدى - كما يقولون - فى عش « الزناير » واننى أهجتها ، وكان أول من ثار ضد قراراتى ، مدير عام مصلحة التليفونات نفسه ، فقد كان من أكبر مظاهر سلطته أن يتقدم اليه ، فى الحفلات العائلية ، الأصدقاء والأقارب وأصدقائهم واصحاب المصالح ، برجاء تركيب تليفون ، فلا يكلفه ذلك إلا أن يضع « امضاءه الكريم » فى ذيل طلب صغير فى ورقة صغيرة ، فاذا « بالأمر الساحر » يفعل فعله ، واذا بصاحب الطلب يبيت قرير العين .. وربما ملئ الجيب ايضا !! .

وعلى الرغم من اننى حققت للمدير عام المصلحة - رحمه الله - رجاء كان يسعى اليه ، وهو رفع درجته إلى وكيل وزارة ، فانه لم يستطع أن يغفر لى حرمانه من سلطة « من أعلى سلطاته » . وقد كان يظن أننى سأتشدد لبعض الوقت ، ثم يسترخى النظام الذى وضعته ، لكنه ادرك أن وهمه بلا أساس . فقد اقنع لجنة التليفونات بتركيب التليفون لوزير سابق فى غير دوره ، وكان هذا الوزير قد زارنى فى الوزارة ، وزعم أن « الرئاسة » توصى على هذين الطالبين ، فراح المدير أننى الغيت قرار اللجنة ، ولم أحفل بما قيل من أن « الرئاسة » توصى عليهما .

* * *

وفى مساء اليوم الذى الغيت فيه قرار اللجنة لصالح الوزير الزميل ، انعقد مجلس الوزراء ، فسألت المرحوم جمال سالم : « هل اوصيت على طلب فلان ؟ » .. وكعادته .. صرخ صراخا عاليا ، وسب الوزير وقال : « هل اقطع شعر رأسى .. التى لا شعر فيها ؟ » .

ودخل ، فى هذه اللحظة ، جمال عبد الناصر ، فسأل عن سبب صراخ جمال سالم ، فقال له بأعلى الصوت : « هل وصيت على طلب تليفون للدكتور فلان ؟ » . فلم يرد عبد الناصر على سؤاله ، ومضى إلى مكانه على رأس طاولة الاجتماع وقال : « يا أخوانى بمناسبة سؤال جمال ، ارجو أن تعلموا اننى لا يمكن أن اوصى احدا غيركم .. فاذا سمعتم انى اتصلت بمدير مصلحة ، أو وكيل وزارة ، ليجرى شيئا من اجل قريب أو صديق ، فلا تصدقوا ، وتمنعوا بحريتكم إلى أقصى الحدود . أنا اتصل بكم وأكلمكم .. ولا أظن أن احدا منكم يذكر اننى طلبت منه شيئا استثناء من القواعد أو اتباعا لها .. واذا كنت فعلت ذلك .. فذكرونى ارجوكم » .

وسمعت دوائر وزارة المواصلات بما جرى بشأن طلب الوزير السابق ، وادركوا أن التعويذة السحرية : - أوامر الرياسة ، وطلبات الرياسة ، وتوصيات الرياسة - ليس لها سوق في وزارة المواصلات . فاستقامت الأمور .

ولست انسى يوما اتصلت به فيه استاذى المرحوم حلمي بهجت بدوى ، الذى كنت احبه ، واحترمه ، وأعجب به ، ورجائى من اجل تليفون لطيبه الذى يعالجه .. وقد كنت ارجو أن اجيب هذا الطلب تعبيرا عن المودة والأعزاز للذين احملهما له . ولكنى غالبت نفسى ، وأنا أكاد أئن . كذلك ، حدثنى الدكتور القيسونى ، وزير المالية آنذاك ، فى شأن طلب لحاله الدكتور غنایم كبير أطباء السجون ، فقلت له : « اننى لا استطع أن أستثنيه ، هذا من حق وزير الصحة » . وكبر على الدكتور القيسونى أن يرجو وزير الصحة ، وعلق على ذلك بقوله : « أنت خليت رقبتنا زى السمسمه » !!

كما طلب منى المرحوم « عبد الحكيم عامر » أن أمر بتركيب تليفون لأحد ضباط حرسه ، وكان تابعا لوحدة فى وزارة الداخلية تسمى (حرس الوزراء) . وجاءنى الضابط ، وفى ظنه أنه مادام « عبد الحكيم عامر » ، وزير الحربية وعضو مجلس قيادة الثورة ، قد أوصى عليه .. فمن حقه أن يدخل إلى مكتب وزير مدنى وهو منتفخ الأوداج ، فرفضت أن اقبله .. وحولت طلبه - حسب القواعد الجديدة - لوكريا محيى الدين وزير الداخلية ، الذى ارسل الى يقول : « لا تركبوا له تليفونا ، لأننا سنضع لرجال الشرطة نظاما خاصا بشأن طلبات التليفون » .

وبلغ الأمر لعبد الحكيم . فلما قابلنى قال : « ما هذا يا أخ فتحى ؟ ألا استطيع أن اركب تليفونا لحارسى » . فقلت له : « تكلم فى ذلك زكريا » . فتولته الدهشة ، وقال : « وما شأن زكريا ؟! » ومضى غاضبا !!

• ... وتعكرت المياه !

وهكذا تهبّ الجو ، وتعكرت المياه للاصطياد فيها ، فاذا بتليفون مكتبى بوزارة المواصلات يدق ، وما كدت ارفع السماعة ، حتى سمعت صراخا عنيقا إلى الحد الذى خشيت منه على السماعة أن تتمزق . وكان مصدر الصراخ هو المرحوم جمال سالم الذى لم أفهم منه شيئا ، إلا أنه فى أعلى درجات الغضب !!

وبعد جهد .. فهمت أن ما نشر عن قواعد تركيب التليفونات يتضمن مساسا به ، واتهاما له بعدم الكفاءة ، أو بعدم الأمانة ، باعتبار انه كان «الوزير السابق» على مباشرة . واضاف جمال سالم كلاما معناه « اننى اتعقب تصرفاته فى الوزارة قبل مجيئى تصيدا لأخطاء وقع فيها تثبت خراب ذمته » . وادركت فى الحال ، أن فى الأمر دسياسة محكمة ، فقلت له على الفور : « هل استطيع أن ارد عليك بعد قليل فان لدى ضيوفا ولست قادرا على التحدث معك فى حضورهم » . فهذا قليلا ، وقال : « حسنا أنا فى الانتظار » .

وتعمدت ألا أرد عليه حتى يهدأ ، ولكنه لم يطق الانتظار ، فعاود الاتصال بى ، فقلت له : « الضيوف لا يزالون عندى . فهل لديك مانع أن أمر عليك غدا فى مكتبك » .. وبدا لى أن أكثر من نصف غضبه قد زال ، ولم يكن ذلك بالشئ المستغرب عندى .. فأنى كنت أعرف جمال سالم جيدا .. اعرف طيبة نفسه ، وشدة غضبه ، وسرعة صفحه .

وفى اليوم التالى ، قصدت مكتبه .. فوجدت رجلا آخر تماما . فقد كان صافى المزاج .. مجاملا وودودا . وتحدثنا طويلا فى أمور مختلفة ، حتى كدت اتصور أنى لو انصرفت قبل أن افتح حديث الأمس لما استوقفه هذا . ولكنى رأيت ألا يبقى الموضوع معلقا ، فسألته عن سبب غضبه ، فعاودته حدة الطبع قليلا ، وقال : « كيف تنشر انك تضع قواعد لتركيب التليفونات منعا للفوضى . كأن هذا الأمر قد غاب عنى ؟ » فقلت له - وكنت صادقا - « الواقع أننى لاحظت أن القواعد التى وضعتها وأنت فى الوزارة أهملت ، فأنا أعدت نشرها ، وهذه هى القواعد الجديدة .. أليست هى قواعدك ؟ » فقرأها بسرعة وقال : « بالضبط .. » قلت : « ما الشكوى إذن ؟ » . فأجاب ، وهو يهز رأسه : « والله ما أنا عارف .. !! » .

وسألته : « وما الأمر الثانى ؟ » فقال « إن مدير التليفونات يشكو من أن مفتشى التحقيقات فى الوزارة يطرقون باب مكتبه كل أسبوع مرة على الأقل ويحققون معه فى شأن احد (الستراتال) بطريقة تشعر بأنهم يشكون فى هذه العملية ، وأن رشوة دفعت فيها له » . فظهرت على امارات دهشة حقيقية ، لأنى سمعت ، يوماك ، بهذا الأمر لأول مرة ، وقلت له : « انى اسمع عن هذا الأمر ، الآن فقط ، ولا أعرف شيئا عن الستراتال الذى تشير اليه . فما الذى يغضبك منى ؟ » . قال : « مدير التليفونات قال انك وراء هذا التحقيق » .

حسبك أن تعلم أنه جاء في هذه الورقة أنني عينت في الوزارة التي تتبعني ، ست من أقاربي .. نعم ستة دفعة واحدة !!.

وقرأت أسماء هؤلاء الستة ، فاذا بي لا أجد فيهم واحدا أعرفه ، أو سمعت باسمه ولو مرة واحدة .. هكذا بالضبط ستة أقارب لا أعرفهم ، ولم اسمع باسمائهم .. وبالتالي لا يمكن أن يكونوا قابلوني أو قابلتهم . وحمدت الله أنه عندما بدا لأحد لأن يكيد لي - للإجراءات الشديدة التي اتخذتها سدا لمنافذ الفساد - قد أعماه الله ، فجعله يقول ما لا معنى له . ثم قرأت فقرة أخرى عن اثنين من أقاربي درجا على الكتابة في « مجلة الأذاعة » ، مقابل مكافآت يتقاضونها . ولما كنت أقرأ « مجلة الأذاعة » ، واعرف أن هذين القريين لا يقرأنها ، فقد كنت واثقا انهما لم يكتبتا فيها حرفا ، وبالتالي لم يقبضا منها قرشا . وتساءلت ، وأنا أعبر سطور هذه الورقة في سرعة .. ما غاية كاتبها ؟؟ أعلم أنه يؤلف قصة من خياله السقيم ؟.

إذا كان يعلم ذلك فما الضرر الذي سيسببني من هذه المحاولة المفضوحة . أكان يظن أن رؤسائه وسادته سيقرونها ويقتنعون بها دون أن يطلعوني عليها ؟.

هذا هو التفسير الوحيد المعقول لهذا التصرف الذي لا يصدر إلا عن معنوه !!.

ولكن .. بعد أن قلبت الورقة في يدي أصبحت المشكلة التي تواجهني كيف اتصرف . هل امزقها امام « البغدادي » ، مع بما في هذا التصرف من قلة ذوق ؟ وقد يكون « البغدادي » بريئا ولا يد له في هذا العبث .

ولكن لم البث حتى افقت على كلام من « البغدادي » يقول لي فيه :

« لو أمكن تمر علينا غدا لنأخذ كلمتين ، والأخ محيي الدين ابو العز ، سيقوم بأعمال سكرتارية التحقيق » .

ولم اصدق ادنى : كلمتين ، وتحقيق ، ومحیی الدين ابو العز .. ما هذا الذي يحدث ؟!!.

لقد بذلت جهدا خارقا لكي لا يبدو على ما أحسست به من تقزز .. وقلت له : « سأرد على ما جاء في هذه الورقة بمذكرة صغيرة » .

وأوصلني « البغدادي » إلى المصعد .. ومضيت إلى مكتبي وأنا اشفق أن يصدر عني تصرف غير لائق . هل اقدم استقالتى ؟. إن هذا قد يكون غاية القصد وبلوغ المراد عند اولئك الخصوم الذين لا أعرفهم ، ولا يهمنى أن أعرفهم .. وستكون الاستقالة عندهم هي الاقرار بصحة ما جاء في تلك الورقة !!.

وماذا في هذه الورقة ؟! انها أمور ، لو صحت ، فلا تشين حاكمًا ، فلا هي تمس النزاهة ، ولا الأمانة ، ولا الكفاءة .. وهي اذا قورنت بما أقدم عليه الأقرباء والأشقاء والآباء ، والأصهار ، من صفقات مع الحكومة .. ومقاولات .. ونشاط في الداخل والخارج يتناول الاستيراد ، والتصدير ، والنقل ، والتعيين بالملفات والألوف ، لعدت من حسنات الأبرار . هل ادع مكتبي وأذهب إلى « عبد الناصر » .. وأوقفه على خطر وخطأ هذا التصرف غير المسئول ، لأن الدستور رسم اجراءات لمثل هذه الخطوة التي قد يقطن ان ردى سيحسمها ، اذ سيظهر كل ما فيها ، من بطلان .

وقلت لنفسي : بل سأعرضها على مجلس الوزراء ، وأطلب أن يصدر قرارا بسحب هذه الورقة واعتبارها كأن لم تكن ومحاسبة الذين حرروها وأقدموا عليها .. ولكنى سألت نفسي : « أهذا ممكن ؟ » .

وعدت أقول : لا بد أن افعل ذلك ، وليكن ما يكون . وهدأت نفسي .. فقررت ، أولا ، أن اكتب ردا قصيرا وموجزا على كل ما جاء في الورقة مؤيدا بالاسانيد . وكان أول ما أمرت به تكليف مدير المستخدمين في الوزارة بأن يقدم لى بيانا بتاريخ تعيين كل من الاشخاص المنسوب الى تعيينهم ومؤهلهم ومرتبهم عند التعيين ، ومرتبهم اليوم ، والترقيات التي حصل عليها .. لا في ديوان الوزارة فحسب ، بل في الوزارة وفي المصالح التابعة لها . وجاء الرجل ، آخر النهار ، متصبب العرق ، مبهور الأنفاس ، يلتمس اعطائه مهلة ، لأنه لم يعثر - بعد - على اسم واحد من هؤلاء الستة . وهو بطبيعة الحال لا يستطيع أن يقول للوزير : « أنت تعبت وتضيع وقتنا فيما لا طائل تحته » !.

وارسلت إلى « مجلة الأذاعة » لتعطينا بيانا بما تقاضاه قريباى الكاتبان .. ولا أطيل على القارئ ، فقد جاءت البيانات كلها - كما يقول المحللون في معامل التحاليل الطبية - سليمة . واستمهلت « البغدادي » يوما ، ثم أرسلت اليه المذكرة .

تم ذهبت إلى « عبد الناصر » . ولعله - رحمه الله - لم يرى في حياته أسوأ مراجعا ، واقرب إلى المصادمة منى في ذلك اليوم . ولست اريد أن أثقل على القارىء ، اذ حسب القارىء أن انقل اليه الجانب العام من المشكلة . فقد قلت له : « إن اخذ الأمور بهذه الخفة ، لا يدل إلا على أن تقدير الشرف عند الدولة التى نتخى إليها ، ونعمل معها ، هو تقدير غاية فى الصعف . انكم تحسبون انه من الهين أن تقول لأنسان يحترم نفسه انك عينت .. وهو لم يعين . أو أن قريك قبض ثلاثة جنيهات - نعم ثلاثة جنيهات - وهو لم يقبض شيئا .

وجلسنا - بعد هذا الحديث - فترة صامتين واجمين ، لا نقول حرفا .. ولكن « عبد الناصر » ، وبعد طول المجاهدة لنفسه قال : « لم يكن امامى إلا هذا . فانهم يظنون اننى أحصى بعض الوزراء لصلة خاصة بينى وبينهم ، فتركهم يفعلون ما يشاءون ، وفى هذا خير .. على عكس ما ترى أنت » .

وفهمت أن « عبد الناصر » كان مغلوبا على امره . وفى الأيام التالية قرأت أن ثلاثة من الوزراء ذهبوا إلى مكتب « البغدادى » وقضوا وقتا طويلا فى مناقشة بعض الأمور ، وانه كان مع البغدادى ، محبى الدين ابو العز .. وفهمت وعجبت لهؤلاء الذين قبلوا أن يحقق معهم . وقد بلغ احدهم منصب رئيس الوزراء ، والثانى منصبا لا يقل عنه ، والثالث بقى فى الوزارة حتى كتب له أن يقيم الدنيا ويقعدها بقرار منه ..

الفصل الرابع عشر

عبدالناصر يتحدث
عن وفاته

قال لى جمال عبد الناصر يوما : « أنا هنا (وأشار إلى بيته) أعيش مع (كابوس طويل) لا أدرى متى ينتهى ؟ .. لم أكن أعرف ، ولا أنصور ، أنه هكذا ستكون الأمور » .
وصممت طويلا ..

كان ذلك فى خلال أزمة من الأزمات التى لم تكن تنتهى الواحدة منها إلا لتبدأ غيرها ، وتدور كلها حول جذب وشد ، مع واحد من أقرب الناس إليه .

ولقد كانت أول أزمة من هذا القبيل ، هى أزمة الرئيس محمد نجيب .. وقد حدث قبل أن تنفجر هذه الأزمة ، لتصبح ، بعد ذلك ، زلزالا يهدد الثورة من أساسها ، أنى كنت جالسا إلى جوار عبد الناصر فى « نادى السيارات » بعد أن تناولنا العشاء ، على شرف الرئيس السورى شكرى القوتلى . وكان الرئيس محمد نجيب يجلس فى الطرف الآخر من الدائرة التى توزع فيها الضيوف والمضيفون .. فنظر إليه « عبد الناصر » طويلا ثم قال :
أننى لم أعد أطيق النظر إلى وجه « مطر » .

ولم أكن أعرف أن المقصود باسم « مطر » هو الرئيس محمد نجيب . فسألت بسداجة وسلامة نية « .. ومن هو مطر ؟ . فضحك « عبد الناصر » ضحكة خالية من الهجة وقال : « اذن أنت لا تعرف .. أنه نجيب .. وبقدر ما كنت أحبه وأثق فيه .. أصحت لا أقوى على مجرد النظر إليه » !!.

وفاتنى ليلتها أن اسأل عن سر هذه « التسمية » .

وذات يوم كان الرئيس الأندونيسى « سوكارنو » فى زيارة لمصر ، وكانت له طلبات غير معقولة .. وكانت كلها متصلة « بالمزاج » وقد اضطرت الدولة إلى أجابتها له ، وهى كارهة ، ارضاء « لمزاجه » الذى لا يقبل القيود ولا يستسلم لها ، فقال لى « عبد الناصر » :
« لست أدرى لماذا يذكرنى سوكارنو بنجيب .. خفته ومزاجه . وتعلق الناس به ، وبساطته التى تخفى ، فى نفس الوقت ، مكرا شديدا !! » .

وفى يوم آخر ، عين أحد المخامين وزيرا ، فقال له عبد الناصر . وفى حديثه تنبأ من المראה : « الحكم أكثر صعوبة بمراحل من المحاماة . انه عذاب عظيم » !.

ودعينا لنؤدى اليمين الدستورية فى أعقاب تعديل وزارى . وكان جمال سالم قد خرج من الوزارة فى هذا التعديل ، فلاحظت أن « عبد الناصر » كان يستمع إلى الوزراء وهم يحلفون اليمين - الواحد فى أثر الثانى - وعلى وجهه من آيات الضيق والتريم مالا تخطئه العين ، مهما كان صاحبها قليل الحظ من الفراسة .. وفى اليوم التالى كنت أزوره فى بيته .. فقلت له :

- لقد كان وجهك بالامس يقطر كآبة وهما .. فماذا كان هناك ؟.

فأجاب على الفور :

- جمال سالم ياسيدى قرفنى .. وسود يومى .. فقد عرضت عليه الدخول فى الوزارة قبل التعديل . وقد كان غاضبا قبله بمدة لأمر كثيرة أخذها .. على أسلوب الحكم .. فحاولت أن أزحزحه عن موقفه ، وأن تقترب بعضنا من بعض ، ولكنه زاد بعدا ، وزاد هجومه على ، ونقده لى عنفا ، ولكنى صبرت ، فلما أوشك التعديل الوزارى على الأتتم ، وعودت الأتصال به ، إذا هو يرفض مجرد الكلام فى الأشتراك فى الوزارة بعنف حاسم .. فقررت ألا اتجاوز هذه المحاولة على مضض ، وعرف بغدادى ، وحسن إبراهيم ، بأن الوزارة ستعدل . وأن جمال سالم لن يكون من بين أعضائها . فكبر عليهما ذلك ، وراحا يلحان على « جمال سالم » ليعدل عن قراره ، وبعد أن فرغت تماما من اجراء التعديل ، وتحدد يوما لأداء اليمين .. جاءنى « بغدادى » و« حسن » وقالا لى : « جمال سالم قبل الدخول فى الوزارة » .. فقلت لهما : « وأنا أرفض أن يدخلها .. نحن لا نعبث ، لقد رجوته ، وأطلت صبرى عليه .. وقد كان رفضه قائما على أنه يختلف معى فى المبادئ لا فى التطبيق ، فما الذى حدث حتى يرضى عنى وعن اسلوبى .. انى أرجح أنكما ورطتاه ، وإن كان هو من الصراحة بحيث لا يتورط ، ولكنه حسب حساب مودتكما له ، ومشاعركما نحوه . وأنا أخشى أن يحدث لنا أزمة بعد دخوله الوزارة بيومين أو ثلاثة فتكون العاقبة وخيمة » .

« وانصرف بغدادى وحسن إبراهيم آسفين ، وأعلن التعديل وفى اليوم التالى - المحدد لأداء اليمين - جاءنى جمال سالم مكفهرا ، وغاضبا ، وقضى معى ساعتين كانتا أطول ساعتين فى حياتى .. نقول الشئ . ونعيده .. ويثور « جمال » ، وتصدر عنه ألفاظ جارحة فأحتملها

لأنى لا أريد أن يتسع الخرق ، وأن يتجاوز حدوده .

وسرح « عبد الناصر » بعينه ناظرا إلى الحديقة الصغيرة التى تقع أمام داره ثم قال :

- الواقع أن الذى جعلنى أصبر على عتاب جمال سالم المير ، أنى أحبه لأنه « راجل » ..

وأشهد أننى سمعت هذه الشهادة من « عبد الناصر » - فى حق جمال سالم - مرارا .
ولقد حاولت أن أفهم ما المقصود بكلمة « راجل » . وهل تعنى عند « عبد الناصر »
شجاعة جمال سالم .. أم صراحته .. أم بعده عن التظاهر والنفاق ؟ .

وهذه كلها كانت من فضائل « جمال سالم » ، رحمه الله ، ولكن ، بعد التأمل
فى المناسبات التى كان « عبدا الناصر » يقول فيها هذه العبارة فى حق جمال سالم ، أدركت ،
بالضبط ، ما كان يعنيه بلفظ « راجل » .. وهو أنه « لا يمكن أن يخشى تأمره عليه ، أو
التفكير فى ايدائه » . فالرجولة هنا ، معناها الحرص على مقتضيات الوفاء .

ولكن رأى « عبد الناصر » فى « صلاح سالم » - شقيق جمال سالم - لم يكن بنفس
الجودة . فقد سمعت منه ، فى مناسبات كثيرة تعليقات على تصرفات لصلاح ، لا تنطوى
على الرضا ، فهو لم يكن يعتبره (بتاع شغل) أى أنه قادر على التنفيذ ، وتحمل مشقاته ..
لأنه « يحب الكلام » ، ويحسنه ، ولا يقوى على العمل .. ولا يطيقه . قال لى
« عبد الناصر » ذلك مرة فى مناسبة ظهور أول فرقة فنون شعبية فى مصر والبلاد العربية ،
وهى الفرقة التى ولدت فى سنة ١٩٥٧ ، وعرفت باسم (يا ليل يا عين) ، والتى نجحت
نجاحا مدويا ، بعد حملة ضارية بل ومسعورة ضدها ، وهى ما تزال فى دور التكوين
والأنشاء . فقد قال لى « عبد الناصر » :

- لقد قلت لصلاح أن يتبنى فننا القومى ، وأن ينشئ شيئا مثل هذه الفرقة ، وقد
وعدنى صلاح بذلك ولم يفعل شيئا .. فهو (مش بتاع شغل) !! .

وذاث يوم مر على يوسف السباعى - وكنا وقتها نضع قانون المجلس الأعلى للفنون
والآداب - ولم يكن رأى قد استقر ، بعد ، على الوزارة التى سوف يتبعها هذا المجلس ..
وكان « صلاح سالم » وزيرا للأرشاد القومى .. وكانت المسارح والفنون تتبعه . فى حين
كان « كمال الدين حسين » وزيرا للتربية والتعليم .. وكانت المدارس ، والمعاهد ، تتبعه . ثم

انتهى رأى عند « عبد الناصر » ، أخيراً ، على الحاق المجلس بكمال الدين حسين بنحجة (كمال شغال .. وصلاح مش بتاع شغل) !!.

ومضت سنوات . أصبح بعدها « كمال الدين حسين » - بعد جمال سالم - صاحب أكبر نصيب في الحكم ، تتبعه المدارس بمستوياتها جميعاً ، والجامعات والمعاهد كلها ، ومجالس عليا لا حصر لها ولا عد . منها : المجلس الأعلى للفنون .. والمجلس الأعلى للآثار .. والمجلس الأعلى لدار الكتب .. والمجلس الأعلى للجامعات وهكذا وهكذا !! وبالتالي ، بدأت العلاقة تفتت بينه وبين عبد الناصر ، حتى انقطعت . وفي هذه الفترة السابقة على القطيعة التي أدت إلى الخصومة العنيفة ، جلس « عبد الناصر » مع الوزراء بعد تشكيل جديد - لم يشترك فيه « كمال الدين حسين » بطبيعة الحال - يذكر لهم رأى « كمال » فيهم ويقول : « كمال الدين حسين كان يقول أنكم وزراء (غير ثوريين) .. قلت : لابد أن يكون (الوزير الثوري) هو من كان على شاكله أحمد محرم » !.

وضحك عبد الناصر طويلاً ثم قال : « والغريب أنى لم أر (أحمد محرم) إلا حسبته (حسن بغدادي) مدير جامعة الأسكندرية . ولكن هذا هو الوزير الثوري في رأى كمال » .

وقد لا يعرف بعض القراء أن الدكتور « أحمد محرم » كان أحد الوزراء الذين أختارهم « كمال الدين حسين » لوزارة برئاسته . وكان ، قبل الوزارة يعمل استاذاً بكلية الهندسة ، وله مكتب خاص يعد من أكبر المكاتب الهندسية في مصر نجاحاً .

أما الدكتور « حسن بغدادي » فقد كان أستاذاً بكلية الزراعة جامعة الأسكندرية ، ثم اختير وزيراً للزراعة لبضعة شهور ، ثم عين مديراً للجامعة الأسكندرية لفترة طويلة . ولم أفهم ما الذى كان يضحك « جمال عبد الناصر » في تشابه « أحمد محرم » و « حسن بغدادي » !!.

ولم تكن العلاقة بين « عبد الناصر » وبين زميله « عبد اللطيف البغدادي » حسنة معظم الوقت . وقد أعددت يوماً الخطاب السنوى الذى يلقي في مساء يوم ٢٢ يوليو من كل عام . وقد جرت العادة في اعداده أن يقوم على أساس من سرد الأحداث الكبرى التى وقعت في العام المنصرم . ولما كان أنشاء « كورنيش النيل » من أكبر الأحداث التى شهدتها العام السابق الذى كنت أعد الخطاب في ختامه لأستقبال العام الجديد ، فقد ذكرت

« كورنيش النيل » .. ووصفته بأنه « نافذة عريضة تطل منه القاهرة على النيل » .. فأمسك عبد الناصر بالقلم وكاد أن يشطب هذه الجملة . فسألته : « لماذا تود أن تشطب هذا الكلام ؟ » . فقال : « لقد سئم الناس الحديث عن الكورنيش .. بعد أن أسرفت الصحافة في الكلام عنه ، وفي الحديث عن (عصا البغدادى السحرية) و(مشروعاته) » . فقلت : « هذا سبب أدعى للأبقاء على هذه الجملة ، اذ مادام الناس تكلمت عنه كثيرا ، فهي تنتظر أن تقرأ ، أو تسمع عنه ، في الخطابات السنوى ولو جملة . فإذا خلا الخطاب من مثل هذه الجملة ، كان التفسير الوحيد لهذا ، هو أنك غير راض عن هذا المشروع أو عن القائم به . »

ولم أرد أن أقول المعنى الذى عنيته بالضبط .. وهو « أن الأضراب عن الإشارة إلى هذا المشروع يمكن أن يفسر بأنه نوع من (الغيرة) منه ، ومن نجاحه ، ومن صاحبه » .. ولكن عبد الناصر « أدرك هذا المعنى دون أن أقوله . فبقى ممسكا بالقلم فترة ، ثم قال : « وهو كذلك .. لندعها ولو أنى غير مرتاح لها » .

★ ★ ★

وبقيت علاقة « عبد الناصر » بحسين الشافعى ، خالية من الشد والجذب .. وقد كان يذكره ، دائما ، على وجه يدل على اعتقاده بطيبته ، وسلامة نيته . فقد أوفده يوما إلى اليمن - أبان ثورة سيف الإسلام (عبد الله) ، على أخيه الإمام أحمد « إمام اليمن » وكان سيف الإسلام « عبد الله » قد نجح فى تطويق قصر أخيه ، وكاد يطبق عليه ، ويخلعه من عرشه . إلى أن تمكن الإمام أحمد من فك الحصار والقبض على أخيه عبد الله وقطع رقبته .

وانفجرت الأزمة ، وعاد « حسين الشافعى » إلى القاهرة .. وأخذ « عبد الناصر » يروى لنا مجريات الأمور فى اليمن وهو يضحك .. ثم ختم هذه الرواية بقوله : « وقد حصلت ، على كل حال ، بركة الإمام الشافعى » .

ولكن .. روى لى الأستاذ عصام الدين حسونة وزير العدل ، فى الفترة اللاحقة لهزيمة سنة ١٩٦٧ ، عن موقف عاصف بين عبد الناصر .. وحسين الشافعى . فقد فتح « عبد الناصر » الحديث فيما جرى فى أعقاب تلك الهزيمة ، ثم فى أحداث يومى ٩ و ١٠ من يونيو . وطلب « عبد الناصر » من الوزراء أن يعلل كل منهم أسباب وقائع يومى الخامس

والسادس من يونيو اللذين شهدا وقائع الكارثة ، ثم حوادث يومى ٩ و ١٠ اللذين شهدا مظاهر الألتفاف المفاجئ، حول « عبد الناصر » ، وانفجار التأييد الجماعى له ، فى الوقت الذى كانت تدعو فيه كل الأمور إلى الأنفضاض من حوله .. بل وإلى الأنفضاض عليه .. باعتباره الزعيم والرئيس المطلق السلطة الذى تمت الهزيمة على يديه . فقال حسين الشافعى : « إن نسبة كبيرة من دواعى الألتفاف حول (عبد الناصر) واتمسك به كانت وجدانية ، وعاطفية ، ومن وحى اللحظة » ..

فبدت على وجه « عبد الناصر » آيات غضب كاسح لأن هذا التحليل جرحه .. فحاول « حسين الشافعى » أن يترضاها ، بأن وضع يده على كتفه ، فازداد انفعال « عبد الناصر » وأزاح يد « الشافعى » من فوق كتفه ، واتجه اليه ليقول له بعنف : « أنت تقول أن ما حدث كان بسبب إنفعال وقتى لأنك جئت إلى لأرفع الحراسة عن ابن خالتك فرفضت ، فبقيت هذه المسألة تحز فى نفسك إلى الآن » .

ولقد كان السبب فى توتر العلاقة بين « جمال سالم » والرئيس « عبد الناصر » مغالفا للسبب الذى قام عليه توتر العلاقات بينه وبين « البغدادى » كانت انفجارات طبع جمال سالم ، هى التى تخرج « عبد الناصر » وتزعجه ، وأذكر فى منطقة « الشلوفة » - على قناة السويس - أنى رأيت عبد الناصر ووجهه مربد ، وكأنه يوشك على الموت ، فلما سألته عن السبب ، لم يجب .. وكانت « الشلوفة » معسكرا للإنجليز . وكانت هى أول منطقة يجلو عنها الأحتلال البريطانى تنفيذا لاتفاقية الجلاء . ولذلك ، فقد احتفلت الحكومة المصرية بتسليمها .

ووقتها .. لم يكن « عبد الناصر » قد عرف بأنه « قائد الثورة وزعيمها » - وإن كانت بشائر هذه الحقيقة ، وطلائعها ، قد بدت فى الأفق - ومن هنا كان تجمع الصحفيين حوله ، وتهافت المصورين على تصويره ، وقد حدث أثناء ذلك أن اصطدم أحد المصورين ، وهو يقوم بتصوير « عبد الناصر » ، بجمال سالم ، فهاج هياجه ، وجرى وراء المصور وبيده عصاه . واختفى هذا المسكين وراء مكتب ، ثم تحت أريكة .. و« جمال سالم » يأبى أن يعفيه من العقاب .. والأجانب من الضيوف يشهلون ذلك ..

و« عبد الناصر » يكاد ينفجر ، وبقي على غضبه واكتابه .. فترة طويلة ، وقد قام أحد أصدقائي من هواة التصوير ، بالتقاط مشاهد ذلك اليوم على فيلم ملون ، أهديته إلى « عبد الناصر » بعدها بأسابيع قليلة ، فلما مددت إليه يدي به ، سألت : « ما هذا ؟ » فقلت : « فيلم الشلوفة » ، فقبض يده قائلا : « لا .. لا أريد أن أذكر هذا اليوم . فقد كدت أن أعود إلى القاهرة تاركا الاحتفال ومن فيه ، وليحدث ما يحدث » ؟ .

ولكنني ما زلت به حتى هدأت نفسه .

أما علاقة « عبد الناصر ببغدادى » فقد كان يشوبها ما عبر عنه « عبد الناصر » في يوم كنا نراجع فيه خطبة من خطب مناسبة الاحتفال بذكرى ثورة ٢٣ يوليو . فقال : « هل تصدق أن بغدادى كان مقاطعا لى ، وبعيدا عن تنظيمنا إلى ما قبل الثورة بستة أشهر فقط . وأنه كان يقول دائما أنه أسبق في (الحركة) ، لأنه أسس ، من قبل ، تنظيما سابقا على تنظيم الضباط الأحرار ؟ » .

ويبدو أن هذه (الحكاية) بقيت لدى كليهما « عقدة » مستحكمة ... لا تسمح بتطور طبيعي للعلاقات بينهما .

ولست في حاجة إلى الحديث عن علاقة عبد الناصر بعبد الحكيم عامر . فقد كانا أخوين متحابين . ولكنى حريص على أن أورد شهادة ذات قيمة من « عبد الناصر » في « عامر » . فقد اخترت وزيرا للمواصلات ، بعد فترة طويلة كنت فيها وزيرا للدولة بلا اختصاصات محددة ، فقال لى « عبد الناصر » - وهو يفضى إلى بهذا التعديل : « لقد كنت أقول دائما أنه لا بد أن يسند إلى فتحى رضوان وزارة محددة .. ليظهر فيها نشاطه محمدا . كما يجب أن يدخل « عبد الحكيم » مجلس الوزراء ، ويشهده .. (لأن عبد الحكيم « Buen » « مخ ») ! .

قالوا عن هذا الكتاب

قرأت كتاب الأستاذ فتحى رضوان « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » وهى المدة التى أمضاها وزيراً مع الرئيس عبد الناصر ، الكتاب رائع وشائق وفيه تفاصيل وأسرار عما كان يحدث وراء الستار .

.....

سوف يثير كتاب فتحى رضوان شهية الذين يكتبون التاريخ ، ولكن يجب أن نعتزف بأنه أول مذكرات لوزير مصرى سابق يذكر كل ما شهده من أحداث بعد مذكرات السيد عبد اللطيف بغدادى نائب رئيس الجمهورية .

« مصطفى أمين »

أخبار اليوم - ٦ / ٧ / ١٩٨٥

ظل اليساريون والناصريون يهللون لكل كتاب ، وكل كلمة يكتبها كاتب مصر الكبير فتحى رضوان حتى أصدر كتابه الأخير « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » ، فإذا بالجميع يتوقفون عن التهليل والتأييد والمساندة لأن الأمر فى هذه الحالة أصبح يخص جمال عبد الناصر ويروى عن حكمه ، وعصره ، وزمانه الشيء الكثير مما لا يسر .

فى هذا الكتاب روى فتحى رضوان أيام الثورة الأولى ، وما كان يجرى فى مجلس الوزراء ، وآراء عبد الناصر فى زملائه ورفاقه أعضاء مجلس الثورة .

وقد رأى فتحى رضوان وهو ليس خصماً لعبد الناصر ، بل صديق يقدره ، ويؤمن به ، أن من الضروري أن تكتمل صورة عبد الناصر أمام التاريخ إذا قدمت

كما هي ومن خلال زميل اشترك معه في مجلس الوزراء .

« محسن محمد »

الجمهورية - ١١ / ٧ / ١٩٨٥

يقدم الكتاب صورة قريية جداً وواقعية جداً لعبد الناصر : ثقافته ، طريقة اختياره للرجال ، طريقة ضحكك ، حسه بالفكاهة ، مواقفه في الأزمات . إلا أن الكتاب يرسم دون قصد أو تعمد ، الطريقة التي تعامل بها فتحى رضوان مع عبد الناصر ومع الثورة . وهو بذلك يناقش القضية الأساسية التي ما زلنا نبحث لها عن أبعاد وحدود وهي قضية تعامل ثورة يوليو مع المثقفين والمهنيين .

لقد كان فتحى رضوان سنداً أساسياً للثورة الجديدة في سنواتها الأولى ، ولكنه كان دائماً وطنياً شامخاً مدافعاً عن كرامته ، وعن تقاليد التعامل مع السلطة ، لقد احتفظ لنفسه مع عبد الناصر بمكانة خاصة اكتسبها بنزاهته وتجرده ، وقدرته الحارقة على العمل ، فقد تولى مسئولية الإعلام والثقافة في أخطر سنوات الثورة .

.....

اقترب فتحى رضوان من الثورة ، واختلف معها وابتعد ، وافق ، وشارك ، وعارض وكان في كل مواقفه شجاعاً وموضوعياً أسداً في الرأى وفى الفعل ، مصرياً في العقل والتوجه .

« علاء الديب »

صباح الخير - ١١ / ٧ / ١٩٨٥

إلى احترم الأستاذ الكبير فتحى رضوان ، وإن كنت اختلف معه في كثير مما يكتبه ، فقد دخل السجن أيام فاروق ، ودخله في سبتمبر ٨١ أيام السادات ، أما في أيام عبد الناصر فقد دخل الوزارة ، ومن هنا كان موقفه السياسى الواضح للعيان . هو أنه ناصرى لحماً ودماً ، ويمتدحه الكثيرون إماماً لهم وسنداً قوياً ويلقبه بعضهم بأنه آخر خطباء العصر .

ومع ذلك فقد فجر فتحى رضوان قبلة فى آخر الزمان ، حارت فيها العقول وإن كنت أعدها من باب المعقول الذى لا يحتاج إلى علامات التعجب ، عندما تلقيت من دار جديدة للنشر نسخة من كتاب « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » وعكفت على قراءتها فوجدته قد وضع الصدق فى مرتبة أعلى من الدفاع عن وجهة نظره السياسية ومع ذلك فالكتاب قبلة .

« محمود عبد المنعم مراد »

الأخبار - ١٢ / ٧ / ١٩٨٥

تكمن أهمية كتاب فتحى رضوان فى أنه وجهة نظر لأحد القادة الوطنيين الذين كانوا فى فترة حكم عبد الناصر معه فى الحكم يرون مواقفهم الوطنية وينتقدون الأوضاع الفاسدة فى قلب النظام بدون عداوة له أو مهادنة وعندما شاء قرر عدم الاستمرار ، فاعتذر عن قبول منصب وزير الثقافة سنة ١٩٥٨ .

.....

ولاشك أن كثيراً من الوقائع والذكريات والمواقف التى يتضمنها هذا الكتاب سوف تفتح الباب لمناقشات واسعة وردود الأفعال لتكشف لنا بموضوعية عن حقيقة الأوضاع فى تلك الفترة الهامة .

جريدة الأهالى

١٩٨٥ / ٧ / ١٧

لأن الثورات حركات سياسية تمثل أحداثاً كبرى فى التاريخ فإن اهتمام الناس بها وبالجديد عنها أو بما غمض من أسرارها وأحداثها لا يتوقف ، ويقى الفخار لمن يلقون ضوءاً من الحقيقة عليها سواء فيما انجزت أو فيما وقعت فيه من أخطاء قد يكون بعضها سىء الأثر إلى حد بعيد .

والجديد هنا يكشفه الأستاذ فتحى رضوان الذى شغل عدداً من المناصب
الوزارية فى حكومات الثورة من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٨ والذى خرج من
المعتقل ليكون على الفور قريباً من الثوار . والكتاب الجديد الذى يكشف فيه هذا
الجديد صدر حديثاً بعنوان « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » .

« محمد عبد اللاه »

الأخبار - ١٨ / ٧ / ١٩٨٥

ما أكثر ما صدر من مؤلفات ، وما كتب من مقالات عن ثورة يوليو
وعبد الناصر حتى لقد تعددت الروايات حول الواقعة الواحدة ، واختلفت
وجهات النظر فى تقدير الأشخاص وتضاربت الآراء فى تقويم ما أتبع من سياسات
وما أتخذ من إجراءات .

ولو اعتمد مؤرخو المستقبل على ذلك القدر الهائل من الحروف المطبوعة على
أعمدة الصحف أو صفحات الكتب فى غضون ثلث القرن المنصرم ، لوجدوا
أنفسهم إزاء مربع معقد من مربعات الكلمات المتقاطعة .

ولكن بين أيدينا الآن شهادة تستوجب التوقف أمامها ، وتستحق الاستماع إليها
بإمعان . هى كتاب « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » الذى يروى فيه الأستاذ « فتحى
رضوان » أحداثاً شهد بها بنفسه . شارك فى صنعها أو كان له دور فيها ، ويتكلم
عن اشخاص عرفهم معرفة وثيقة واتصل بهم عن قرب مشاركة فى الحكم ، واتفاقاً
واختلافاً فى رأى .

.....

« ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » شهادة قيمة من موقع الأحداث ، يقدمها رجل
صناعته السياسة ، والقانون ، والقلم .. وهى إلى جانب ما تلقى من ضوء على
الأحداث التى تناولتها ، ستفتح باباً واسعاً لمراجعة ما سبق أن كتب ، ولاستقبال

مذكرات جديدة عن نفس الفترة والاشخاص والاحداث .. والمستفيد - في النهاية - هو التاريخ والحقيقة .

« محمود السنجرى »

الوفد - ١٨ / ٧ / ١٩٨٥

ريح يوليو الثورة .. وأنفاس جمال عبد الناصر تهب على الوجدان ، بكل أعماله العظيمة ، وأخطائه العظيمة ! .

كان رحمه الله كمحراث الأرض يقلب أديمها بقوة ، ولكن الأديم الحى لابد أن يتألم وهو يرى البعض يصعد إلى أسفل والبعض يسقط إلى أعلى إن عدلا ، وإن ظلماً مبيئاً .

ما حدث في يوليو ٥٢ ، هل كان انقلاباً أو ثورة حقيقية ؟ سؤال قديم ولكن شاهداً على العصر يجيب : كان ثورة بكل ما فى الكلمة من معنى . كان تغييراً شاملاً . ليس فى الهياكل الخارجية لنظام الحكم وأساسه وحدها أو فى الاسماء والمظاهر فقط وإنما فى الجوهر تماماً .

• • ومضات عابرة من الكتاب الممتاز « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » للسياسى القانونى الكاتب الكبير فتحى رضوان .. مؤسس وزارة « الارشاد القومى » أو الإعلام والرجل الذى خرج من المعتقل إلى كرسى الوزارة والاستشارة مع عبد الناصر لسنوات ست لا عجب أن نقد الكتاب من السوق فور صدوره .

« عبد التواب عبد الحى »

المصور - ١٩ / ٧ / ١٩٨٥

أصدرت « دار الحرية » كتاباً جديداً وهو كتاب « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » للأستاذ الكبير فتحى رضوان .. والكتاب كما يبدو من عنوانه يمثل حقبة من مذكرات مؤلفه كان قد نشر الجانب الأكبر منها فى مجلة « الفجر » فى قطر وهى

الفترة التي قضاهما في مقعد الوزارة بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكتبت أنتظر وعنوان الكتاب يحمل إسم جمال عبد الناصر ، أن يتناول المؤلف علاقته بعبد الناصر قبل دخوله الوزارة وبعد خروجه منها لأنه من المفروض أن توجد مثل هذه العلاقة ، وأن تكون قد أثرت في اختياره وزيراً ، وأن تمتد أيضاً بعد خروجه من الوزارة لأنه لم يخرج منها مفضوباً عليه بعد خلاف في الرأي مع عبد الناصر .

عبد المغنى سعيد

العمال - ٢٢ / ٧ / ١٩٨٥

أسمع بعض الكتاب ولا أقرأ لهم أو عبارة أخرى أطلع ما يكتبون بأذى لا يعينى .. تأتيني كلماتهم المسطورة بأصواتهم وكأنهم هم الذين يقرأون .. من بين هؤلاء بل في طليعتهم بل ربما وحده هذه الأيام .. فتحي رضوان .

صدر له أخيراً كتاب ، لعله الأربعون يحمل عنوان « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » .. أحتوى على أربعة عشر قصة تروى أسراراً أو أخباراً شهدتها أو كان طرفاً ومساهماً فيها .

وفتحى رضوان علامة بارزة في حياتنا عمل بالسياسة وهو طالب في الحقوق مع رفيق صباه المرحوم أحمد حسين ، وأول كتاب قرأته له عن المهاتما غاندى .

إشتغل بالغمامه .. والأدب .. والصحافة .. والسياسة .. والفن .. دخل السجن أكثر من مرة باتهام العيب في الذات الملكية ومحاوله قلب نظام الحكم واعتقل أكثر من مرة في عهد فاروق إذ كانت مجلة « اللواء الجديد » تحمل على الملك وحاشيته تماماً كزميلتها « الاشتراكية » التي كان يصدرها أحمد حسين وإبراهيم شكرى .

في حياته حادثة غريبة تكررت .. خرج من معتقل « هاكستيب » عام ١٩٥٢

وقد حدثت الثورة ودخل القصر الجمهورى لمقابلة عبد الناصر ولتولى بعدها أكثر من وزارة .

وفى عهد السادات دخل السجن فى حملة سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة .. وقتل السادات .. وخرج من الاعتقال إلى قصر القبة مع بقية المعتقلين ليستقبلهم رئيس الجمهورية الجديد حسنى مبارك .

المستشار عبد الحميد يونس

آخر ساعة - ٢٤ / ٧ / ١٩٨٥

دمها خفيف .. بعض الكتب والكتابات التى تظهر عن ثورة ٢٣ يوليو ! .
نوع منها يصور للقارئ أن عبد الناصر كان شخصاً وهمياً ، فكل واحد كان له دور فى تنظيم الضباط الأحرار ماعدا عبد الناصر .

.....

ونوع آخر يصور للقارئ أن وجود عبد الناصر ١٨ سنة كان وهمياً ، وأنه شبح لا أساس له من الصحة ! الذى طرد الملك فلان ! والذى أخرج الانجليز
علان !

.....

ونوع اخر من الكتب والكتابات عكس ذلك تماماً ، فكل موظف أوقف عن العمل فى أسوان كان بقرار من عبد الناصر ، وكل حادث تصادم فى أى مدينة فى العالم العربى كان بتدبير من عبد الناصر .

.....

أما القليل من الكتابات التى تعامله كرجل تاريخى ، له حسناته وعيوبه ، له نقاط قوته ونقاط ضعفه ككل رجال التاريخ ، وتعامل الثورة كأهم حدث فى مصر

منذ أقام محمد على دولتها الحديثة ، وتسجل أن الحسنات والاختفاء شارك فيها عشرات الآلاف من الأحياء الصامتين والمتكلمين .. فهي كتب قليلة ويساء استخدامها كما حدث بكتاب فتحى رضوان .

أحمد جهاء الدين

الأهرام - ٢٥ / ٧ / ١٩٨٥

مازال كل مصرى وعربى فى شوق إلى معرفة كل شىء عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. وعن الرجال الذين قاموا بها ، وعن حقائق شخصياتهم وخصائص أخلاقهم ، والظروف التى أحاطت بهذه الثورة وصلاتها بالقوى العالمية ، فقد كان ما نشر عن كل هذه الجوانب قليلاً بالنسبة لضخامة الدور الذى لعبته هذه الثورة فى حياة الوطن العربى واتجاهاته ، والمستقبل الذى ينتظره ، والعقبات والصعاب التى تتعقب كل خطواته وترصد كل حركاته .

وبحاول فتحى رضوان فى كتابه الجديد « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » أن يكشف الكثير عن هذه الجوانب من ثورة ٢٣ يوليو .. حتى أننا نستطيع أن نطلق على الكتاب « ٧٢ شهراً مع قادة الثورة » وليس مع عبد الناصر وحده .

محمد الزرقالى

أخبار اليوم - ٢٧ / ٧ / ١٩٨٥

ومهما كثر الحديث عن ثورة ٢٣ يوليو لم يزل هناك مجال لقول جديد .

والجديد هو كتاب لشيخ السياسيين المصريين فتحى رضوان « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » وعبر صفحات الكتاب التقط فقرة عن البطل اليسارى يوسف صديق .

يقول فتحى رضوان :

« أما يوسف صديق فبطل بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، انضم إلى الضباط الأحرار وآمن برسالتهم ، وشاءت الظروف أن ينفرد وحده بدور حاسم في الثورة ، تعرض فيه للموت أو الخطر الجسيم وهو يقوم به ، والثورة بعد لم تستقبل نور الحياة .

ومع أنه قد أدى دوره ، واحتمل عبثه ، وأجتاز بالثورة مرحلة الخطر فإن بقاءه بين زملائه لم يطل ليستمتع بالسلطة ويتذوق لذائد الشهرة ، وصعد في مراق الجند ، كما صعد إخوانه وزملائه الذين لم يبدلوا بذله ، ولم يجاهدوا جهاده .

د . رفعت السعيد

الأهالي - ٣١ / ٧ / ١٩٨٥

كتاب الأستاذ فحى رضوان فيه كل المغريات لكل الناس لأن المؤلف كان قريباً ومشاركاً في أحداث هو شاهد عليها ، وهذه الأحداث هي جزء هام في تاريخنا المعاصر الذى كثر فيه الجدل حول جمال عبد الناصر .

اسماعيل النقيب

الأخبار - ٨ / ٨ / ١٩٨٥

في أحدث كتبه « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » يكشف فحى رضوان أسرار ثورة ٢٣ يوليو ويلقى أضواء جديدة على شخصية عبد الناصر ورفاقه ، ويذيع الكثير من الحكايات والأحداث الهامة التى عاصرها ولمسها من قرب بحكم موقعه ، ويقترن هذا كله بأسلوب المفكر والأديب فحى رضوان المميز بالصدق والصراحة والوضوح والقوة والجمال أيضاً .

أحمد محمد عطية

أخبار الخليج (الشارقة) - ١٢ / ٨ / ١٩٨٥

قلت لإبراهيم بغدادى : ما هى حقيقة القصة ، لقد ذكر فتحى رضوان فى كتابه الأخير « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » ما يعنى أن الملك لم يمت بالسم ، ولكنه مات بسبب الإسراف فى الطعام .

.....

وأجاب إبراهيم بغدادى : هذه هى الحقيقة كاملة لقد مات فاروق من شره الطعام وقد سافرت إلى روما وحققت واقعة وفاته مع كل من كان على مائدته وفى المطعم ومع صاحب المطعم ومع أطباء المستشفى ، وتبين لى بالدليل الحاسم .. أنه مات من التخممة .

موسى صبرى

آخر ساعة - ٢١ / ٨ / ١٩٨٥

إن فتحى رضوان يروى لنا أهم التواريخ والذكريات من خلال أربعة عشر فصلاً ، تتميز بالصدق والنقاء والموضوعية وتدلل على أن كاتبها مؤرخ موضوعى يلتزم الأمانة والدقة دون أن يميل هنا أو هناك .

ولذلك فإن هذا الكتاب يبقى مجالاً للبحث والدراسة والتعليق لسنين طويلة قادمة ، ثم أنه يأتى فى هذا التوقيت بالذات أشبه بعقارة تحية من فتحى رضوان إلى ثورة ٢٣ يوليو فى عيدها الثالث والثلاثين .

أحمد زكى عبد الحليم

حواء

عن دار الحرية للطباعة والنشر صدر كتاب « ٧٢ شهراً مع عبد الناصر » للكاتب فتحى رضوان .. يقع الكتاب فى ١٩٩ صفحة تتوزعها أربعة عشر فصلاً ، الفصل الأول منها بعنوان « غبار التطهير وقذائف بين نجيب وجمال سالم » والأخير بعنوان « عبد الناصر يتحدث عن رفاقه »

وقد لاقى الكتاب إقبالاً كبيراً من جانب القراء تعجلى فى نفاذ طبعته الأولى التى صدرت فى شهر يوليو «تموز» الماضى قبل أن ينصرم الشهر نفسه .

الكتاب لا يندرج تحت المذكرات السياسية كما قد يوحى عنوانه للوهلة الأولى ولا يدخل فى باب أدب الاعتراف ولا يقع بين بين .

فقد شاء الأستاذ فتحى رضوان أن يأق الكتاب على شكل فصول أو موضوعات متفرقة لا يربط بينها تعاقب زمنى أو تتابع منطقى ، وإنما مشاركة صاحب الكتاب لعبد الناصر أو رفاهه الحميمين فى الأحداث التى انطوت عليها تلك الفصول أو الموضوعات ، ولعل السبب فى ذلك أن كاتبنا وضعها فى بادى الأمر للنشر فى مجلة هى مجلة «الفجر» التى تصدر فى الدوحة عاصمة قطر ، ثم جمعها مؤخراً فى كتاب على نحو ما أشار إليه فى تقديمه .

لكننى لا أدرى ما إذا كنت محقاً إذ أقول أن الأمر كان يقتضى - والحالة هذه - عنواناً آخر أقل شمولاً وأكثر تحديداً من هذا العنوان الذى حمله الكتاب .

بيومى قنديل

المجالس الكويتية - ١٤ / ٩ / ١٩٨٥ .

إن هذا الكتاب من أصدق الكتب التى خرجت عن الفترة الأولى فى ثورة ٢٣ يوليو خاصة ما أظهرته كتابات الكاتب الكبير فتحى رضوان من رؤى جديدة توضح كيفية اتخاذ القرار ما بين الدولة والثورة والقوى السياسية فى تلك الفترة بالإضافة إلى أنها كلمة صدق قالها كاتبها أثناء حياته مؤكداً أنه لم يدعى على أحد غير الحقيقة .

محمد بسيولى

١٥ / ٧ / ١٩٨٥



محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٢	مقدمة الطبعة الثانية
٥	تقديم
٢١	الفصل الأول <input type="checkbox"/>
	غبار التطهير وقذائف بين نجيب وجمال سالم
٣٥	الفصل الثاني <input type="checkbox"/>
	عندما هبت العاصفة على مجلس الثورة
٤٩	الفصل الثالث <input type="checkbox"/>
	قذائف ولطائف في مجلس الوزراء
٦٣	الفصل الرابع <input type="checkbox"/>
	عبد الناصر ... وقناة السويس
٧٣	الفصل الخامس <input type="checkbox"/>
	غاندى يمنع عبد الناصر من السفر إلى لندن
٨٧	الفصل السادس <input type="checkbox"/>
	غاب أخطر قرار في تاريخ ثورة ٢٣ يوليو
٩٧	الفصل السابع <input type="checkbox"/>
	يوم وقعنا ميثاق الوحدة مع سوريا
١٠٩	الفصل الثامن <input type="checkbox"/>
	عبد الناصر ... واختيار الرجال

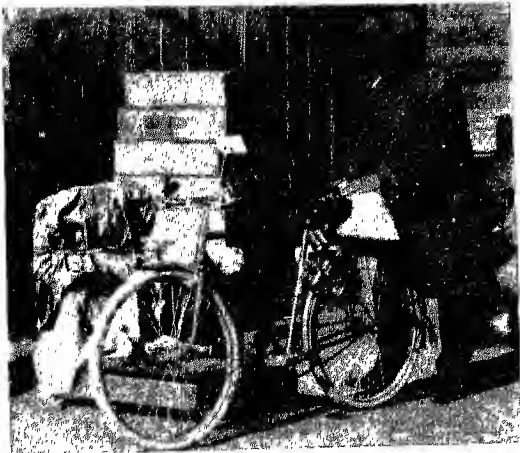
- ١٢٥ ☐ الفصل التاسع
عندما يغضب عبد الناصر
- ١٣٩ ☐ الفصل العاشر
ثقافة عبد الناصر
- ١٥٣ ☐ الفصل الحادى عشر
مجوهرات فاروق من الذى سرقها ووزعها على عشيقاته ؟
- ١٦٥ ☐ الفصل الثانى عشر
أزمات صغيرة ودسائس أصغر
- ١٧٩ ☐ الفصل الثالث عشر
من يحاكم الوزراء أيام عبد الناصر ؟
- ١٩١ ☐ الفصل الرابع عشر
عبد الناصر يتحدث عن رفاقه
- ٢٠١ ☐ قالوا عن هذا الكتاب



THE WORLD



AND ITS PEOPLE



المركز العالمي للموسوعات
٦ شارع محمود حافظ (ميدان سفير) مصر الجديدة بالقاهرة - ت ٣٤٥٩٣٩٨ - ٣٤٣٥١١٩

رقم ايدع ٨٦/٧٩٢٠
٩٧٧ - ١٦٦ - ٦٤ -



دار الحديث للمصاحف والطباعة والنشر



۱۸۷۵

الأخضر

العدد / الأستاذ محمّد كامل محمّد كامل خبير
في مادة اللغة العربية، الإجازة العامة، سنة ١٩٨٠
أرسله إليه الأستاذة والدة الأستاذة والدة الأستاذة

Null

دارا لالمطلب القزويني على " كتاب الحريه " حيث بلغت نسبه

مجموعات من الكتب ١٩٨٨ من الكميات الموزعة وبلغت منه مجموعات كتب الخمسينيات

• • • من الكتب الموزعة •

فذلك يردى الكرم بالنهي سرياء الاميات المساجد لموسى هرام لتوزيعها

١٠٠ جميع انحاء الجمهورية مدرس العربية وحشى بكل من تدرسه الطلبة لهذا ي جميع مزارع النسيم

1. _____ 2. _____

ويعملوا سيئاتكم بقبول وأمر الشكر ۝ ۵



ملء بر عام التوزيع

1272

البريد

هذا الكتاب

عاصر الأستاذ فتحي رضوان فترق ما قبل ثورة ٢٣ يوليو وما بعدها ، وشارك في الحياة السياسية خلالها بصورة فعالة ، إلى حد أنه خرج من المعتقل عقب قيام الثورة ليصبح واحدا من وزرائها .
ولفتحي رضوان اسهاماته - حتى الآن - في العديد من مجالات الكتابة ، وقد استطاع في كل ما كتب أن يحقق تميزا وإضافة مؤكدة .
والأستاذ فتحي رضوان هو حاليا رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان

.. وهذا الكتاب

مع تعدد الكتابات التي تناولت أبعاد شخصية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ومواقفه السياسية إلا أن هذه الشخصية ما زالت في حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل .

فتحي رضوان - في هذا الكتاب - يناقش الجوانب الإيجابية والسلبية في شخصية عبد الناصر .

ويتميز كتاب فتحي رضوان بتناوله لشخصية عبد الناصر كمحصلة تعامل مباشر ، في مدى ٧٢ شهرا ، كان خلالها واحدا من وزراء حكومة عبد الناصر ... فهما يلتقيان ويتناقشان ويتفقان في الرأي ويختلفان فيه ، بحيث يتيح للكتاب في النهاية أن يتعرف - بصورة أكثر صدقا - إلى ملامح شخصية عبد الناصر في أبعاده المختلفة .

.. وهذه الأذار

هي أول دار مستقلة للطباعة والنشر في مصر ، نشأت نتيجة جهد وعرق وإيمان مجموعة من المشتغلين بالفكر والكتابة .

□ لتكون ساحة للحوار وملقى للفكر المستير وللفاعل بين الآراء والاتجاهات المختلفة في مصر والوطن العربي .

□ ولتكون حلقة وصل بين التيارات الوطنية المختلفة والأجيال العاملة في الحقل العام .

□ ولتكون إطلالة على الغد تستشرف آفاقه وتبحث مشاكله ، وتسعى إلى فحص حلولها .

وهي من هذا المنطلق تتجاوز معارك الأمس ، وتخوض معارك الغد ، وتعتمد في ذلك على الجيل الجديد من الشباب ، تتحدث إليه وتعمل من خلاله وبواسطته .

وفي كل ما يصدر عنها فإن « دار الحرية » تلغزم بالموضوعية في تحليل ، وبالفكر العلمي ، وباحترام عقل القارىء ، وذلك بهدف دعم الحوار الفكري وجذب كل الآراء والاتجاهات إلى دائرة الحوار .

الشمس قرش